بير بيترسون
اللعنة على نهر الوقت
رواية
مكتبة
Telegram Network
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

«مكتبة ♔ النخبة»

بير بيترسون

اللعنة على نهر الوقت

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يُمنع تصوير و/أو تحميل و/أو توزيع الكتاب إلكترونيًا أو التسهيل لذلك بأي شكل من الأشكال دون موافقة الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من قبل الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلف.

القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون! لا تكن مجرمًا.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: publishing@all-prints.com

tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-703-6 النسخة الورقية

ISBN: 978-6144-58-439-2 النسخة الإلكترونية

Originally published as: **Jegforbannertidenselv.**

Copyright © 2008 ForlagetOktober A/S.

This translation has been published with the financial support of NORLA.

ترجمة: رفيف صبّاح

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

إهداء

إلى روح أخي الصغير حسن، كبيرنا

رفيف صبّاح

I

1

جرت هذه الأحداث منذ سنوات عديدة. كانت أمي بحالة سيئة منذ مدّة، ولتضعَ حدَاً لإلحاح القلقين عليها، لا سيّما إخوتي وأبي، قرَّرتْ أخيراً استشارة الطبيب الذي يعالج عائلتنا منذ زمن طويل. لا شك أنَه عجوز كبير في السّن، لأنيّ لا أتذكَّر أنّي زرتُ غيرَه يوماً، ويتراءى لي أنّي لم أعرفه شابّاً أبداً. وأنا لا أزال أذهب إليه مع أنّ مكان سكني بعيدٌ عشرات الكيلومترات من عيادته.

بعد معاينةٍ مقتضبة، حوَّل هذا الطبيب العجوز أمّي إلى مستشفى «أكِر» لتشخيص إضافيّ. في هذا المستشفى الكبير القائم قرب ملتقى الطرق «سِنْسِنْ»، في ذاك الجزء الشرقيّ من أوسلو الذي كان يحلو لي أن أعدّه موطننا، وضعوها في غُرفة مطليَّة بالأبيض، ثم في غرفة مطلية بالأخضر الفاتح، أو أخضر بلون التفَّاح، وعرَّضوها لفحوص عدة، لا بدَّ من أنَّ بعضها كان مؤلماً. ثم طلبوا إعادتها إلى بيتها بانتظار النتائج. بعد خمسة عشر يوماً، وصلتها النتيجة وعرفت أنَّ لديها سرطاناً في المَعِدة. كان ردَّ فعلها الأول قولها في قرارة نفسها: «لسنوات عدّة، حين كان الأطفال صغاراً، أمضيتُ ليالي بكاملها أرِقةً بلا نوم، لشدَّة خوفي من أن أموت بسرطان في الرئة. وها أنا مصابة بسرطان في المَعِدة. كم أمضيت من الوقت، وأنا قلِقة!».

هكذا كانت أمّي. كانت تدخّن مثلي مذ صرت راشداً. أعرف جيّداً هذه الحال الليليَة، حين تشعر بأنّ الحياة تتهاوى رماداً في فمك، وأنت جامد، متصلّب تحت اللحاف، وعيناك جافّتان وتؤلمانك. إلّا أنني خلافاً لها، كنت أقلق على حياتي أكثر من قلقي على تيتّم أطفالي.

وهي جالسة على طاولة المطبخ، ممسكةً غلاف الرسالة بيدها، كانت تتأمل المرجةَ، والحاجزَ المطليَّ بالأبيض، وحبالَ الغسيل والبيوتَ المجاورة. كانت ترى كلّ هذا من نافذتها منذ سنوات، وتقول في نفسها، ما لم تتوقّف

عن تكراره كلّ هذا الوقت، أو يكاد يكون كلّه: إنّها ليست سعيدةً هنا، في أعماقها.

لم تحبّ بلد الغرانيت هذا، ولم تحبّ غابات الصنوبر، ولا المسطّحات العالية، ولا الجبال. هي لا ترى الجبال، لكنّها تعرف أنّها هناك، كلّية الوجود، وأنّها تطبع بصمتها الأزليّة على سكّان النرويج.

وَقَفَت، وخَرَجَتْ إلى الرِواق، وأجرَتْ مخابرة هاتفيّة مقتضبة، ثمّ عادت لتجلس منتظرةً والدي. تَقَاعَدَ والدي منذ سنوات عدّة، وهي الوحيدة التي تعمل الآن، فهي تصغره بأربعة عشر عاماً، ولكنّها اليوم في عطلة، أو أنّها أخذت إجازةً ليوم واحد.

كان أبي متقلّب المزاج، ولديه دوماً أعمالٌ يجب القيام بها. كان يكرّس نفسه لمشاريع لم تكن أمّي تفهم منها الكثير، ولم تعاين نتائجها يوماً. ولكنّ خلافاتهما زالت منذ زمن طويل وتوصّلا إلى هدنة. كانت تتركه بسلام طالما أنّه لا يحاول التسلّط على حياتها. حتّى أنّها بدأت تدافع عنه وتحميه. وإذا تجرّأتُ على إبداء ملاحظة انتقاديّة، أو حاولتُ بخَرَقٍ دَعْمَ حقوق المرأة بأن أقفَ في صفِّها، كانت تأمرني بأن أهتمّ بأموري وبألّا أتدخّل. «من السهل عليك أن تنتقد»، كانت تقول غاضبة، «فالأشياء وصلتك على طبقٍ من فضَّة أيها الوغد الصغير».

وكأنّ حياتي خاليةٌ من الأحداث، فأنا على عتبة الطلاق. تلك المرّة الأولى التي أواجه فيها هذا الأمر، وكنت مقتنعاً أنَّ وجودي سيتحطّم. كنت في بعض الأيّام أجد صعوبةً في طيِّ المسافة الفاصلة بين المطبخ والحمّام من دون أن أقع على ركبتيّ مرّة على الأقلّ، قبل أن أتمالك نفسي وأعاودَ الوقوف.

كانت أمّي جالسةً إلى طاولة المطبخ كدأبها حين يعود أبي إلى البيت من أعماله الملحّة التي كان يقوم بها في «فالبرينغا»، حيّه القديم، حيث وُلدتُ بعد الحرب بسنواتٍ سبع. والحيّ الذي كان يعود إليه مراراً ليقابل رجالاً من عمره وبيئته، «ونادي العجائز» كما كان يقول. كانت تدخّن سيجارة «سالم» أو «لوكي» فالنعناع يفرض نفسه عندما يخاف المرء من سرطان الرئة.

كان أبي واقفاً في فُرجة الباب، ممسكاً خُرجاً يشبه الذي كنت أحملُه إلى الكلّية، عندما كان التجوّل مع خُرجٍ رائجاً. يمكن أن يكون أبي قد استخدم خُرجي، ممّا يعني أنّ عمر ذلك الخرج أكثر من خمسة وعشرين عاماً.

قالتِ أمي:

- سأذهب اليوم.

- إلى أين؟

- سأعود إلى دياري.

- إلى ديارك؟ اليوم؟ ربّما كان يجب أن نناقش هذا الأمر من قبل، وأن تدعي لي الوقت لأفكّر.

- ليس هنالك ما يدعو للنقاش. لقد أخذت بطاقتي. وصلتني الآن رسالة من مستشفى «أكر».. أنا مصابة بالسرطان.

- سرطان؟

- نعم، سرطان في المَعِدة. لذلك سأعود إلى دياري.

ما زالت تقول «دياري» حين تتكلّم عن الدانمرك، وعن المدينة التي وُلِدت فيها، في أقصى الشمالِ من البلاد، مع أنّها كانت تعيش في النرويج، في أوسلو، منذ حوالى أربعين عاماً.

- وتريدين الذهاب وحيدة؟

- نعم، أفضّل ذلك.

كانت تعرف تماماً أنّها بقولها هذا ستجرح والدي وشعرت بأن ذلك لم يفرحها، بل على العكس، كان أبي يستحقّ أفضل من ذلك بعد حياة كحياته. ولكنْ لم يكن لديها خيار. كان يجب أن تذهب وحيدة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

- لن أغيب طويلاً. أيّام عدة فقط، وبعد ذلك سأعود. يجب أن أعود لأدخل المستشفى. لا بدّ من إجراء عمليّة جراحيّة. على الأقل أرجو ذلك. وفي كلّ الأحوال، سأستقلُّ السفينة هذا المساء.

نظرت إلى ساعتها:

- أي بعد ثلاث ساعات. من الأفضل لي أن أحضِّر حقيبتي.

كانا يعيشان في بيت متوسّط مؤلّفٍ من غرفة جلوس ومطبخ في الطابق الأرضي، وثلاث غرفٍ وحمّام صغير جدّاً في الطابق الأوّل. كبرتُ في

هذا البيت. وأعرف كلّ فسخٍ في ورق الجدار، وكلّ شقّ في الأرض، و كلّ زاوية مثيرة للرهبة في القبو. كان مبنىً رخيصاً من الخمسينيات. وكان يكفي أن نضرب الحائط بقدمنا، لنجد أنفسنا عند الجيران.

سحقت سيجارتها في المنفضة ووقفت، ولم يتحرّك أبي. فهو لا يزال واقفاً على مدخل الباب، وخرجه في يده. قام بيده الحرّة بحركة مترددّة ناحية أمّي. لم يكن خبيراً بالاتصال الجسدي، سوى على حلبة، ولم تكن هي أيضاً خبيرة في ذلك. ولكنّها دفعته بلطف، يكاد يكون حبّاً، ليتيح لها المرور. أبدى قليلاً من الانزعاج، وقاوم قليلاً، ما يكفي ليجعلها تحسّ أنّه مصرّ على توجيه إشارة إليها من دون التعبير بالكلمات. «لقد فات الأوان الآن»، قالت في نفسها، «فات الأوان على كلّ شيء». ولكنْ ما كان بإمكانه سماعُها. ومع ذلك سمحت له بتأخيرها لوقتٍ كافٍ ليدرك أبي أنّ أربعينَ عاماً من الحياة المشتركة وأربعةَ أولاد، أحدهم ميّت، قد خلقت روابط متينة تسمح لهما بالحياة تحت سقف واحد، وانتظار واحدهما عودة الثاني بدل تعجيل الهرب ما أن يحدثَ أمرٌ جلل.

السفينة التي ستستقلّها، والتي نستقلّها جميعاً عندما نذهب إلى هناك، اسمها «هولغر دانسكي». في آخر عمرها، صارت السفينة مركزاً للاجئين السياسيين، بعد وقت وجيزٍ من تلك الأحداث، أولاً في «ستوكهولم» ثم في «مالمو»، كما قيل لي، وأُرسلت منذ زمن بعيد «للكسر» في بلدٍ آسيوي، على أحد شواطئ الهند أو بنغلادش. ولكن في الحقبة التي أحدّثكم عنها، كانت لا تزال تؤمّن الاتصال بين أوسلو وتلك المدينة من «جوتلاند» الشمالية التي نشأت فيها أمّي.

كانت أمي تحبّ هذه السفينة، وتعدّ سمعتها السيئة إجحافاً. لُقّبت «هولغر النحس»، مع أنّها كانت تصمد في البحر أفضل من مراكب اليوم، هذه الملاهي العائمة، حيث تُقدَّم كلّ أسباب السكر الشديد. وإنْ حدث أن أبحرت «هولغر دانسكي» في طقس سيء، وتقيَّأ ركّابُها، فلن يجدوا أنفسهم في أعماق البحر. أنا تقيأت فيها فعلاً، وما زلت على قيد الحياة.

وكانت أميّ تكنّ التقدير للعاملين على متن السفينة. ولكثرة لقاءاتها بهم، صارت تعرف معظمهم معرفةً سطحيَة، فالسفينة لم تكن كبيرة. و ما أن تظهر على العبّارة، كانوا يعرفونها ويحيّونها كواحدة منهم.

في ذلك اليوم ربّما لاحظوا رصانةً ما في تصرّفاتها، في مشيتها، في طريقة نظرها إلى ما حولها مبتسمةً تلك الابتسامة التي يفتَرّ ثغرها عنها في كثير من الأحيان، و التي لم تكن ابتسامة حقيقية، فليس لديها أيّ داعٍ للابتسام.

هذه هي حالها عندما تكون منشغلة البال؛ كانت في ذهنها بعيدةً؛ وليست حيث نظنّها. حينذاك كنت أجدها جميلةً جمالاً استثنائياً. ترقُّ بشرتها ويستحوذ على نظراتها بريق غريب. وأنا صغير، كنت أراقبها أحياناً وهي غير منتبهةً لوجودي، وأشعر بأنني وحيدٌ ومهمَل. ولكنّ ذلك كان مثيراً أيضاً، لأنّها كانت تذكّرني بممثّلات الأفلام اللواتي كنّا نشاهدهنّ على التلفاز. كانت تذكّرني بـ«غريتا غاربو» في «الملكة كريستين»، حين تقف في مؤخّر السفينة قُبَيْلَ انتهاء الفيلم وتحلم بمكانٍ صافٍ». غريتا غاربو» ظهرت بأعجوبة في مطبخنا، لتجلسَ على أحد الكراسي المعدنيّة، حاملة لفافة تبغ بيد وأمامها شبكة من الكلمات المتقاطعة لا تزال خالية. أو بـ«إينغريد بيرغمان» في «كازابلانكا»، فلديهما تسريحة الشعر نفسها و استدارة الخدّين ذاتها. و لكنّ أمّي لم تكن لتقول لـ«همفري بوغارت»:

You must do the thinking for both of us

(يجب أن تفكّر عنّا نحن الإثنين)، لا لـ«بوغارت» ولا لأحدٍ غيره.

يمكن أن يكون أعضاء طاقم «هولغر دانسكي» قد وجدوها مختلفةً في ذلك اليوم، عندما قطعت العبّارة حاملةً حقيبتها الصغيرة البنّية من الجلد الصناعيّ، التي أورثتنيها وما زلت أستعملها. ولكنَّ أحداً لم يوجّه إليها ملاحظة، وأظنّ أنّ ذلك أشعرها بالامتنان لهم.

عندما وصلت إلى قمرتِها، وضعت حقيبتها على كرسيّ. أمسَكَت كوب فراشي الأسنان الموضوع على الرفّ فوق المغسلة، وغسَلَته بعناية تحت الصنبور. ثمّ فتحت حقيبتها وأخرجت قارورةً صغيرة مخبّأة تحت ثيابها. قارورة «آبر تن»، ماركة الويسكي التي تفضّلها حين تشرب الكحول. وهذا برأيي، ما كانت تفعله أكثر ممّا كنّا نعتقد. ولكنْ، بالطبع، هذا الأمر لا يعنينا. كان إخوتي يعدّون «آبر تن» كحولاً رديئاً، لا سيّما في أثناء السفر، إذ بإمكانهم تناول مشروبات كحوليّة معفيَّةً من الضرائب. كانوا يفضّلون الويسكي من المَلْت الخالص، «غلنفيديش» أو «شيفاز ريغال»، وهي من الأنواع المتوافرة على البواخر التي تؤمّن الاتصال بين النرويج والدانمرك؛ وكانوا يلقون خطابات طويلة عن مداعبة الملْت الخالص الناعمة للحَلْق. وكنا نعرّض بأمّي ساخرين من ذوقها الرديء. حينذاك كانت ترمقنا بنظرةٍ ثلجيّة متسائلة.

- أهؤلاء أولادي؟ متحذلقون! من يرتكب خطيئةً عليه أن يتحمّل الحريق

.

وكنت أوافقها الرأي. فأنا كذلك كنت أشتري الماركة النرويجيّة «آبر تن» كلّما غامرت بالذهاب إلى «فينمونوبولي». لم يكن ملْتاً خالصاً، ولا تشعر بلزوجته في حلقك، ويحرق بلعومك ويجعل عينيك تدمعان إن لم تكن مستعدّاً نفسيّاً منذ الجرعة الأولى. ولكنّه لم يكن سيّئاً. كان رخيصاً فحسب.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

بحركةٍ نزقة، فَتَحَتِ القارورةَ، وملأت كوبها إلى ربعه وأفرغته في جوفها بجرعتين. اشتعل فمها وبُلعومها وأصابتها نوبة من السعال، فاستغلّت الألم لتبكي قليلاً. ثمَ دسّتِ القارورة تحت ثيابها، وأقفلت حقيبتها جيّداً، كأنّها تُهرّب بضاعةً ممنوعة، وموظفّو الجمارك يراقبونها حاملين كلّاباتهم وقيودهم. مسحت دموعها أمام المرآة، وغسلت و جهها بالماء، و شدّت ثيابها كما تفعل في معظم الأحيان النساء السمينات، ثمّ صعدت الى المَقصِف. كان مَقصِفاً بسيطاً، يقدّم قائمة طعام محدودة ومن دون بهرجة، تماماً كما تحبّ. لهذا أيضاً كانت «هولغر دانسكي» تناسبها.

أمسكت كتابها، فقد كانت تقرأ دائماً، ولديها دائماً كتاب في حقيبتها. ولمّا كان «غونتر غراس» قد أصدر مؤخّراً كتاباً، فلا شكّ أنّه هو الكتاب الذي أخذته معها، باللغة الأصليّة. بعد انتهاء دراستي في الكليّة، وعندما لم يعد هنالك ما يجبرني على قراءة الألمانية، وعندما توقّفت عن ذلك كلّياً، زجرتني متهّمة إيّاي بالكسل الفكري. دافعتُ عن نفسي قائلاً إنّها قضيّة مبدأ، لأنّي كنت معادياً للنازيّة، فأخرجها هذا عن طورها، أشارت إليّ بسبابتها المرتجفة. «ماذا تعرف عن ألمانيا وعن التاريخ الألماني؟ أيها الوغد الصغير؟». وكانت كثيراً ما تقول هذا: وغدٌ صغير. من المؤكّد أنّي لم أكن يوماً طويل القامة، و هي كذلك. في المقابل، كنت مشدود العضلات. كنت كذلك دائماً، ويبدو لي أنّ كلمة وغد كان يمكن أن يكون لها معنيان: أنّني قصير مثلها، ولكنّي رياضيّ مثل أبي، وفي نهاية الأمر هي تحبّني كما أنا. هذا على الأقلّ ما كنت أرجوه، فلم أقلق يوماً بحقّ، مهما زجرتني وسمّتني وغداً. ثمّ إنّها لم تكن مخطئة: في تلك الحقبة، لم أكن أعرف الكثير عن ألمانيا.

لا أظنّ أنّها كانت بمزاج اجتماعي في ذلك اليوم، في مِقصَف «هولغر دانسكي»، و أنّها شعرت برغبة في التوجّه إلى طاولة مأهولة، لتفتح حديثاً، وتتحرّى عن أفكار مرافقيها في السفر وأحلامهم، بذريعة أنّهم يشبهونها وآتون من بيئتها نفسها، أو على العكس، لأنّهم مختلفون. لأنّنا لسنا متماثلين واختلافاتنا هي التي تجعلنا مثيرين للاهتمام، «فهذا ما يجب البحث المتعمّق فيه»، كما كانت تقول دائماً. كانت تشعر بفضول تجاه الآخرين، وتوفّق في ذلك دائماً. ولكنّها في ذلك اليوم جلست وحيدة على طاولة لشخصين، وأكلت

بصمت، وغرقت في كتابها و هي تشرب قهوتها. بعد أن رشفت آخر جرعة في فنجانها، دسّت كتابها تحت إبطها ونهضت. ولكنْ في اللحظة التي غادرت فيها كرسيّها، شعرت فجأة أنّها تنهار من التعب، وأنّها لن تستطيع النهوض. تشبّثت بالطاولة؛ شعرت بأنّ العالم يدور من حولها، والسفينة تتمايل، ولا تعرف ما ستفعله لاجتياز المِقصَف، وتخطّي الباب و العودة إلى قمرتها. ولكنّها تمكّنت من ذلك. أخذت نَفَسَاً عميقاً، و مرّت من دون أن تتعثّر بالطاولات، ونزلت الدرج بخطوات واثقة، وهي تتحدّى بتلك العبارة التي سبق وأخبرتكم عنها. اضطرّت وهي تقطع الرواقّ الذي لا نهاية له أن تتكئ مرّتين أو ثلاث على الحائط قبل أن تجد باب قمرتها، و تُخرِج مفتاحها من جيب معطفها. ما أن أصبحت في الداخل، أدارت القفل. ثم جلست على السرير، وصبّت لنفسها كأساً دهاقا من «آبر تن» في كوب فراشي الأسنان، وأفرغته في جوفها بجرعة واحدة. فجعل الألمُ الدموعَ تنهمر من عينيها.

2

بعد أن اجتازت عبّارة «هولغر دانسكي» لتصل إلى مرفأ تلك المدينة من «جوتلاند» التي ما زالت تعدّها مدينتها بعد أربعين عاماً من العيش في أوسلو، قطعت رصيف الميناء بطوله مشياً، وحقيبتها الصغيرة البنّية في يدها. مرّت أمام الورش البحريّة التي كانت لا تزال ناشطة، بينما انهار معظم الورش الدانمركية في الثمانينيات كالقصور المبنيّة بورق اللعب. ثمّ أكملت طريقها حتّى مخزن البارود المكلّس للأميرال «توردنسكيولد» الذي نقلته البلديّة إلى المكان الذي يحتلّه الآن، أعلى بمائة وخمسين متراً من موقعه القديم قرب المرفأ. كانوا قد حفروا تحت مخزن البارود ومدّوا خطوط السكك الحديديّة، ثمّ بنوا جهازاً ضخماً للسحب، ودهنوا الخطوط بأكثر من ألف ليتر من الصابون الأسود. ونجحت تلك العمليّة. تمّ سحب البرج الحجريّ الضخم الذي يزن أطناناً، سنتيمتراً سنتيمتراً، حتّى موقعه الحاليّ، وهكذا أمكن بناء حوض جديد لترميم السفن، من دون تهديم أحد المعالم السياحيّة النادرة في المدينة. ولكنّ العمليات حدثت منذ زمن طويل، و كانت أميّ تشكّ في صحّة قصّة خطوط السكك الحديديّة والصابون الأسود. بدا الأمر لها شديد الغرابة. على كلّ حال، لقد غادرت المكان قبل ذلك، قبل الأحداث، كانت في النرويج، على مضض، وكأنّها أسيرة القدر. و لكن من دون شك، كان أمراً ناجحاً، فقد تمّ حقًّا نقل المخزن.

قبل ذلك بثلاث سنوات، دُفن والدها، الدائم التوتّر والقليل الصبر، في المقبرة المحيطة بكنيسة «فلادستراند»، قرب البستان، المتنزّه الذي كانت أشجاره - الزان و المرّان والقيقب- هي الأنواع نفسها التي كانت في المقبرة. وضعوه في القبر الذي كانت زوجته الساذجة و اليائسة قد دُفِنت فيه قبله بعامين، وكاد ذلك أن يكون بإرادتها، وحيث يرقد خالي منذ خمسة و ثلاثين عاماً، وقد صُعق بالكهرباءلا إراديّاً بعد حياة قصيرة جدّاً.

على شاهد القبر، جَثَتْ يمامةٌ ترنو إلى الأرض. كانت من معدن و لا يمكنها الطيران، ولكنَّها كانت تختفي من وقت إلى آخر، و لا يبقى في مكانها سوى أخيلة. لقد سُرقت اليمامة، ولا ريب في أنّ أحدهم لديه مجموعة بكاملها من اليمائم و الملائكة وأدوات عبادة أخرى من البرونز مخبّأة في خزانة، و يُخرجها عندما يحلّ الليل خلف ستائر مغلقة، ليمسّد أجسامها المالسة والباردة. في كلّ مرّة تُنشل فيها اليمامة، كانت أمّي توصي شركة المآتم على أخرى، فتأتي هذه الأخيرة لتركّبها. ولكنْ يظهر أنّ الشركة عملها غير متقَن، لأنّ اليمامة اختفت ثلاث مرّات خلال ثلاث سنوات.

فيما بعد، لم يعد هنالك من داعٍ، وهي راجعة من المقبرة على الدرّاجة أو سيراً على قدميها، لأن تمرّ أمام دار العجزة للذهاب إلى مبنىً في وسط المدينة، إلى بناية صغيرة حمّاماتها في الساحة، تقع في شارع يصعد من المرفأ واسمه «لودسغاد»؛ لم يعد هنالك من داعٍ لتشير بإصبعها إلى نوافذ الطبقة الأولى، وتقول إنّ هذا بيتها، وإنّها هنا أصبحت ما هي عليه؛ لم يعد هنالك من داعٍ لتشير نحو نافذة الغرفة في الطبقة الأولى المجاورة لدكّان الألبان الخاص بوالدتها، وتحاول من دون جدوى أن تشرح من كان أخوها. ولم يعد هنالك من داعٍ كذلك لتمرّ إلى هناك في الصباح الباكر ومعها قطع خبزٍ صغيرة في قِمعٍ ورقيّ عندما تصل من النرويج، وتدقّ الباب الذي يمكن لمحه من خلف البوابَّة الحديديّة. فلن يفتح لها أحدٌ بعد الآن، ولم يعد هذا شارعها. وهكذا في طريقها إلى وسط المدينة، تجنّبت المرور من «لودسغادي». وهي ما تزال عرضةً لنفحات الهواء الغريبة تلك في صدرها، مع أنّ ثلاثة أعوام قد مرّت، قطعت ساحة المرفأ وتابعت طريقها حتّى المحطّة الجديدة، حيث أخذت سيّارة أجرة. ابتعدت السيّارة واتجهت نحو «نوردر ستراندفج».

مرّت أمام مدرسة البحريّة ومعقل «توردنسكيولد» الذي كان يمكن رؤيته بصعوبة بشِعبه، ومرجاته المطرَّفة خلف أشجار الحور، المغروسة على جوانب الطريق، ثمّ أكملت طريقها أمام مركز نادي رياضة التجذيف. كان في النادي مِقصَف وكانت والدتي تذهب إليه كثيراً على درّاجتها، وتجلس أمام قنينة بيرة «تيبورغ» قرب الفرجة المزجّجة لتنظر إلى السفن الصغيرة الزرقاء، التي تدخل المرفأ من الدّرب الضيّق لحاجز الميناء، ثمّ ترسو أو تذهب من جديد محمّلة بأدوات للصّيد. لكنّ هذا لم يعد الآن سوى نشاطٍ من أنشطة الهواة؛ فقد توقّف كلّ صيد محترف على هذا الشاطئ منذ سنوات.

انطلق التاكسي عبر الأرض الجرداء التي تُغيرُ عليها الريح، بعلّيقها ورملها وشجيراتها التي تثنيها الزوابع عاماً بعد عام؛ والبحر يمتدّ مثل جلدٍ أزرق، مجدور في هذه الساعة الصباحيّة، وللهواء بياض الحليب. في المكان

الذي حلّ فيه الإسفلت مكان الحصى، دخلت السيّارة بين أشجار النسرين العجوز والصنوبرات المنحنية. لم يستلزم المسير كله أكثر من ربع ساعة. بدا ذلك غريباً بالنسبة إليها، لأنّها كانت تشعر أنّها تتقدَم كما في فيلم بطيء: الضباب الخفيف على زجاج السيّارة، والنور الرماديّ فوق البحر، والجزيرة البعيدة، ووميض المنارة الشاحب والرتيب، وثمار الزهر الأخيرة التي لا تزال تتدلّى من الشجيرات، كلّ منها لونه أحمر قانٍ، يكاد يكون بنفسجيّاً، مثل فوانيس صينيّة صغيرة.

عندما أرادت الالتفات إلى النافذة في الجهة المقابلة، دار رأسها بصعوبة؛ بلّلت شفتيها، ونظرت إلى يديها و حرّكت أصابعها ببطء. كان جلدها فاقداً الإحساس، مشدوداً، وهي تبتسم بلا سبب.

قبل أن تصرف التاكسي، طلبت إلى السائق أن يعود لأخذها عند الفجر بعد أربعة أيّام. هذا الأمر يناسبه، فهكذا سيضطرّ للاستيقاظ باكراً، قال السائق. وهو ما لا يفعله دائماً، لأنّه في المساء يحبّ أن يشرب زجاجة أو اثنتين من البيرة.

- «بالإكراميّة التي سأعطيك إياها، يمكنك شراء عشر زجاجات» قالت أمّي، بشرط ان تكون هنا على الوقت. هذا مهمّ، فلديّ أمور يجب أن أقوم بها، ليكنْ في علمك».

وأشارت بسبّابة تكاد تكون مهدّدة، إلى السائق. لكنّ الشاب اكتفى بالضحك، ولم تستطع أمّي تمالك نفسها من الابتسام.

- «ثقي بي»، أجابها.

بعد أن ساعدها في الصعود إلى الصنوبرة المنحنية، ومنها إلى الشرفة، حيث وضع حقائبها، عاد إلى السيّارة.

- «إلى اللقاء إذاً»، صرخ وهو عائد.

ثمّ أدار محرّك السيّارة ليغادر الأرض المعشبة لهذا الكوخ البحري حيث يدفعون بسخاء شديد. قبل أن يعود إلى المدينة، أشار بيده. وعلى سقف سيّارته، كانت الإشارة الضوئية تنير الفجر الرماديّ لأحد أيام الخميس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

II

3

لم أكن على علم بذهاب أمّي، لاستغراقي في حياتي الخاصّة. لم نتكلّم منذ شهر، وربّما أكثر؛ وليس ذلك مُستغرَباً مبدئياً، فالكثير من الأحداث كان يجري حولنا في تلك الحقبة من العام 1989. ولكنَّ الأمر كان مُستغرَباً بالنسبة إليّ، لأنّه كان مقصوداً من جانبي. لم أرغب في معرفة رأيها بحياتي، فكنت أتجنّبها متعمّداً.

في عصر ذلك اليوم، عندما استقلّت أمّي المترو في «فيتفت» حاملةً حقيبتها الصغيرة من الجلد الصناعيّ البنّي، وذهبت وحيدةً إلى المحطّة الرئيسيّة، واجتازت شاطئ البحر متحدّية الريح التي تشعّث شعرها، وهي متّجهة نحو المحطّة الأخيرة المليئة بتيّارات الهواء، لشركة «ج.س. هاغن أند أس» لتصل أخيراً إلى رصيف المرفأ حيث ترسو «هولغر دانسكي» - التي تمّ استيداعها بعد أسبوع من ذلك، على ما يبدو- كنت منطلقاً على طرقات «نيتندال» الترابيّة في سيّارة ليست لي. على المقعد الخلفيّ، جلست ابنتاي، اللتان باتتا في السابعة والعاشرة من العمر. السيّارة نوعها «فولكز فاكن باسات»، وهي لشخص تعود معرفتي به إلى عشرة أعوام خلت، ولا يتوانى عن إعارتي ما أشاء.

كان الليل قد حلّ، والظلام يخيّم، و المدّ على شاطئ «جوتلاند» يفعل ما كان يفعله عندما كنت في عمر ابنتيّ، وكما لا يزال يفعل من دون شكّ، مباغِتاً وغير متوَقَّع في كلّ مرّة. كنّا في بداية تشرين الثاني/نوفمبر، وكانت الطفلتان تغنّيان إحدى أغاني «البيتلز» التي تعلّمتاها، وهما تسمعان أسطواناتي القديمة. أتذكّر أنّها كانت «ميشال»، من ألبوم «رابر سول»، وهي ليست رائعة بشكل استثنائي، ولكنّهما كانتا مغرمتين بـ«بول ماكارتني»، الذي كتب أغاني يسهل على الأطفال ترددها. كان غناؤهما جميلاً، وحتّى العبارات

الفرنسية كان لها وقع حسن؛ عندما وصلنا إلى الخطّ المستقيم على جانب التلّة بين «هليرودسليتا» و «سكيجتن»، أفلتت المقود لأصفّق لهما بكلّ قواي.

أسعدني الشعور بأنهما هنا، على المقعد الخلفي. هكذا يمكن لهما أن تحدّثاني عن كلّ ما تريدان من دون أن تضطرّا إلى النظر إليّ؛ وأنا لم أكن مجبراً على النظر إليهما، وهما كذلك كانتا أحياناً تتجنّبان النظرَ إحداهما إلى الأخرى؛ عندها نبقى ملتفتين إلى النوافذ من دون أن نتفوّه بكلمة، والسيّارة تتابع سيرها، ونحن نعرف أنّ الأمور ليست على ما يرام مطلقاً. كانت البنتان تعرفان، وأنا أعرف، والتي لم تكن معنا تعرف أكثر من أيّ كان؛ لذلك لم تكن ترافقنا في أثناء رحلات هربنا.

هذا ما كانت عليه الحال.

- «أتريدانَ أن نذهب لرؤية الحقول؟» كنت أصرخ وأنا واقف في المدخل.

وتجيب الطفلتان من غرفتيهما:

- «نعم، نعم، نريد!»

والتي كانت زوجتي تقول:

- «اذهبوا أنتم. أنا سأبقى في البيت».

هذا ما كنّا نبغي. ولو أنّها قالت: سآتي معكم، لما عرف أيّ منّا كيفية الخروج من مثل هذا الموقف. ولما عرف أيّ منّا عمَّ يتكلّم، وإلى أين ينظر.

حينذاك كنّا، البنتان وأنا، ننزل إلى موقف السيّارات ونجتاز الأبواب الحديديّة الصفراء الثقيلة التي تُغلق خلفنا بصوتٍ مدوّ. كنّا في أكثر الأحيان نسلك طريق «نيتندال»، نحو الشمال، ولكنْ عندما يكون لدينا متَّسعٌ من الوقت، نتّجه نحو «نانيستاد»، ونكمل أحياناً حتّى «إيدسفول» والنهر.

كنّا نقطع على مهل الجسر الحديديّ الجميل متأمّلين كتل المياه التي تتدفّق تحت سيّارتنا، ثمّ نركن السيّارة في وسط المدينة، لنذهب لأكل الحلويات في قهوة نعرفها. ولكن ما كنّا نحبّه بشكل خاصّ، هو الطرقات الترابيّة، الطرقات الرماديّة الرجّاجة التي تخترق السهول المحصودة وحقول القمح، الملتوية كالأفعى بين الأسلاك الشائكة الصدئة ونصف المنهارة، والممتدّة على طول سياجات زرائب الخراف والأسـوار الكهربائية القديمـة ذات العوازل الخزفيّة البيضاء.

كنّا نكتفي بالتنقل في السيّارة، صعوداً ونزولاً، ونحن نغنّي أغاني «البيتلز» متوافقين مع شكل المنعطفات التي لا تنتهي بين الأشجار العارية التي تحيط بمجاري الأنهر، والمروج المتتالية، الأخضر الشاحب لونها يميناً، والرمادي البنيّ يساراً، تحت النور الأغبش لـ«نيتدال» ولـ«نانيستاد» ولمحيط «إيدسفول» في هذا الخريف من عام 1989؛ وننظر إلى المشهد وهو يمتدّ، أصفر قمحيّاً، ليكوّن مسطّحات واسعة ومربّعات؛ ونشاهد عند التفاف منعطفٍ حقول القصب التي جرى الكلام عليها حديثاً في الموجز الإخباري، بصبغتها البرتقالية والمَرَضيّة، ثمّ اللون البنفسجيّ والأسود اللّحي للحقول المحروثة بتسرّعٍ قبل قدوم الشتاء، عندما ستزول كلّ الأنوار نهائيّاً. في هذه الأمكنة، كنّا نسير بسرعةٍ أكبر، ولكنّنا نضحك كذلك، ونقول بأصوات نجعلها خائفةً وحادّة:

- «انتبه! هنالك ثقب أسود»!

لقد حدّثتهما عن الثقوب السوداء، وعن كيفيّة ابتلاعها لكلّ شيء، لحيواتٍ وعوالمَ بكاملها، حتّى لوجودنا نفسه. عندها كنت أندفع نحو اليسار وأكاد أقع في الحفرة، وتصرخ البنتان على المقعد الخلفي، ويمكننا النجاة بأعجوبة. ثم نطلق تنهيدة ارتياح، لأننا لم نكن يوماً بهذا القرب من الهاوية الكونيّة، وندندن u should’ve known better (كان يجب أن تعرف) بصوتين على الأقل، بينما أقود بأقصى سرعة.

ثمّ يحلّ الليل المبكّر، ولا يعود بإمكاننا رؤية أيّ شيء. في السيّارة كانت الظلمة تخيّم على أكتافنا وأيدينا. وكان شعر البنتين يحمرّ في ضوء الفوانيس البرتقالي والأصفر، و الأرقام على العدّاد تلمع، والمنبّه الضوئي الأزرق لأضواء مقدّمات السيّارات يضيء وينطفئ على إيقاع السيّارات التي تأتي من الجهة المقابلة.

ونحن نمرّ أمام «سكيجتن»، كنّا نتوقّف عن الغناء، ونقطع بصمت جسر محطّة «سترومن».

أحياناً كنّا نسير لنصف يوم بعد أن نترك موقف بنايتنا. نجوع إلى حدّ أنّ رؤوسنا تصير سائلة و تتدفّق عن الجوانب - إذا أمكن القول إنّ للرأس جوانب- ولكن لم يكن أيٌّ منّا يرغب في إقلاق الظلمة الصامتة التي لا يثقبها إلّا المنبّه الضوئي الأخضر للرفّاف الذي يومض على لوحة المفاتيح. عندها نقوم بالالتفافة الأخيرة عبر طرف الغابة. كنّا نلتفّ حول المستشفى راسمين قوساً دائرياً واسعاً، ثمّ نعود على أعقابنا أمام الكنيسة القديمة، ونرتقي المرتفع حتّى المدينة التي نقطنُها. وددت لو أعرف بِمَ تفكّر البنتان، الجالستان

صامتتين على المقعد الخلفي. أنا كنت أفكّر بطلاقي الذي كان يقترب مسرعاً، جاثماً على صدري كبومةٍ صامتةٍ في الليل، مع أنّنا اتفقنا على الانفصال وحسب، ولكنْ من دون تحديد موعدٍ معيّن. بقينا خمسة عشر عاماً معاً، أنا وهي، و لدينا ابنتان؛ ابنتان شعرهما يلمع، أصفرَ وأحمرَ، في الليل. ولكنْ في الحقيقة، هي من قرّر كلّ شيء. كان وجهي متجمّداً وحلقي جافّاً. ولو أنّني سُئلت عن حالي لأجبت: «أتألّم هنا»، مشيراً إلى مكان محدّد في أعلى الصدر، أو بالأحرى تحت العنق. صرت أصل أبكر فأبكر إلى عملي. وأنا جالس في الحافلة، كانت عيناي تحت الأجفان تحرقانني. كنت جاهلاً ما ينتظرني، وتساءلتُ إنْ كان بقائي وحيداً سيكون أكثر سوءاً. هذا ما أخافه: أن تكون الحال أسوأ. خفتُ من أن يؤثّر الأمر فيّ جسديّاً، هذا الألم المتزايد في صدري، وهذا النضال الذي يزداد صعوبةً لبلع أصغر مقدار من الطعام، والشعور بالشلل المفاجئ في ساقيّ، والأفكار التي تهيم مثل موجات مذياع معطّل، وهذا السقوط الذي لا قرار له الذي أعيشه خلال نومي: كلّ هذا لا بدّ من أنّ يزداد سوءاً، وقد أدركت مرتعِباً أن ليس بإمكاني فعل شيء لأشفى من ذلك. لن يستطيع أيّ جهد للإرادة أن يخرجني من هذه الحال. كنت أحياناً أبقى جالساً في مقعد، آملاً أن تخفّ آلامي إلى حدّ أستطيع معه إنجاز الأمور الأكثر تفاهةً: أن أقصّ قطعة خبز، أن أذهب إلى الحمّام، أن أقطع المسافة التي لا تنتهي بين المقعد والغرفة و أستلقي على السرير. في بعض الأحيان أنام على المقعد، ثمّ أستيقظ قافزاً، ورأسي مليء بومضات زرقاء، حين أسمعها، وهي تُدخِل المفتاح في قفل الباب.

كنت قادراً على القيادة عبر هذا المنظر الطبيعي وحسب: «نيتدال»، «نانستاد»، «ايدسفول». هنالك ألوان عند اقتراب الشتاء، أو بالأحرى غياب للألوان، وهنالك الخطوط التي ترسمها حواشي الغابات ومنعطفات الطريق؛ وكنت أقول لنفسي إنّني قد أتذكّر كلّ هذا فيما بعد، حين تتغيّر حياتي. هنالك أيضاً حقيقة عدم بقائي جامداً، وقيادتي من دون استعجال لسيّارتي الـ«مازدا» التي لونها بلون الشمبانيا. أو، كما اليوم، في سيّارة «فولكز فاغن» ليست لي، لونُها رماديّ معدنيّ. وهنالك البنتان على المقعد الخلفيّ، تغنّيان الأغنيتين Eleanor Rigby (إليانور ريغبي) وwhen I’m sixty four (عندما أصبح في الرابعة و الستّين). اللتين كتبهما «بول ماكارتني». لم أسمع من قبل أحداً يغنّي هاتين الأغنيتين بهذه الطريقة، وكنت أقول في نفسي: ينبغي ألاّ أنسى ذلك أيضاً.

زدت السرعة إلى أقصاها لارتقاء المرتَفَع الأخير، الطويل المنحدِر، والخوّان في الشتاء، حيث يلتمع الجليد على آخر منعطف. حين وصلنا إلى القمّة، قمنا باستدارة واسعة حول المباني المنخفضة، ثمّ توجّهنا نحو أحدها.

ونزلنا إلى موقف السيّارات تحت الأرض وكان بابه الآلي مفتوحاً، فقد كُسر منذ عدّة أسابيع. توقّفت في آخر الموقف، وعدت القهقرى إلى الخلف، وتراجعت بحذر لأركن السيّارة في المكان الذي رُسم فيه رقم شقّتي بخطّ كبير على نقش لوحة كان يمكن رؤية أطرافها. غطّت البنتان عيونهما بأيديهما، وتنفّستا بعمق حابستين أنفاسهما، فالمكان غير كافٍ للركن، والعمليّة ليست سهلة. في إحدى المرّات لم أنجح، ممّا سبّب مشاكل كثيرة مع أحد الجيران الذي - والحمدلله - قد انتقل من البناية. كان يسكن في الطبقة أسفلنا، وفي المساء يرفع صوت المسجّل إلى أقصى مداه، وكنت أسمع صوت زوجته، وهي تصرخ طالبةً إليه أن يُخفض الصوت.

في هذه المرّة، لم أعانِ من صعوبات. اندسست إلى الموضع المخصّص لسيّارتي تاركاً مجالاً كبيراً لجهتَي اليمين واليسار؛ حصل خيرٌ، فالسيّارة ليست ملكي. اجتثثنا أنفسنا من مقاعدنا، وصفقنا الأبواب كدأبنا في الكثير من الأحيان لنؤدّي دور الأولاد المشاغبين، جاعلين الصوت يدوّي فيُسمع في الطرف الآخر من الموقف. تحقّقتُ من أنّني لم أنسَ شيئاً؛ وأنّ الأبواب مقفلة والمفتاح في جيبي. صعدنا إلى الشقّة، أنا في آخر الدور، وعلى مضض.

دلفتُ إلى المدخل، وإلى المطبخ، لم يتغيّر أيّ شيء منذ عشر سنوات أو نحو ذلك؛ لا ملصقات الحائط، ولا السجّادات على الأرض، ولا المقاعد الحمراء القبيحة. مع ذلك، ما من شيء كما كان؛ ليس الأمر كما في البداية. في تلك الحقبة كنّا نحن الاثنين في مواجهة العالم كلّه، هي وأنا، متكاتفين ويداً بيد، «ليس هنالك إلّا أنت وأنا»، كنّا نقول، «أنت وأنا فقط». ولكنّ شيئاً ما قد حدث. لم يعد أيّ شيء ثابتاً، صار كلّ شيء مُجتثّاً من مكانه، باتت مسافة تفصل بيننا، صرنا مثل قطبين يتجاذبان و يتصادّان في الوقت نفسه، وتقليص المسافة الفاصلة يحتاج إلى الكثير من قوّة الإرادة، قوّة أكبر ممّا لديّ، والتي أملك الشجاعة لاستنفارها. لم تعد الأمور مثل ما كانت عليه قبل قليل، عندما كنّا نقطع ثلاث أو أربع بلدات من منطقة «رومريك»، في شرق النرويج، إلى الشرق من أوسلو. حينذاك كنت في أمان، محاطاً بحميمية وحماية داخل السيّارة، أمّا الآن، في الشقّة، فقد أصبحت الأمور مبهمة و متناثرة في كلّ الاتجاهات. وكأنّ فيروساً يهاجم عصب التوازن لديّ. أغمضت عينَيّ لأعيد العالم إلى ثباته، وسمعت باب الحمّام يُفتح و خطواتُها تقترب. كان بإمكاني تعرّف خطواتها في أيّ مكان، أيًّا كان السطح، لوحاً، أم تراباً، أم بلاطاً، أم أرضيةً خشبية. توقّفتْ أمامي مباشرة. سمعتُ أنفاسها، ولكنْ أبعد من أن أستشعرها على وجهي. كنت أنتظر. وكانت تنتظر. في إحدى الغرف، كانت البنتان تضحكان. بدا لي تنفُّسُها غريباً. ما هكذا كانت تتنفّس في الماضي. أبقيت عينيَّ مغمضتين، وأطبقت أجفاني بشدَّة، وأطلَقَت تنهيدة.

- «حسناَ يا أرفيد. ألا يمكنك التوقّف عن ذلك؟ أنت تتصرّف كطفل صغير».

ولكنّي لم أُشأ ان أفتح عينيّ. في كلّ الأحوال، كان الأمر واضحاً: لم تعد تحبّني. لم تعد تريدني.

- «اتّصل أخوك. يبدو أنّ الأمر مهمّ».

وقفت جامدةً برهةً، ثمّ عادت الى الحمّام. فتحت عينيّ ورأيت ظهرها يبتعد. وحككتُ أعلى صدري.

4

علمْتُ من أحد إخوتي أنّ أمّي قد ذهبت إلى الدانمرك ما إن عَرَفَت أنّها مريضة؛ ولم يتسنَّ لهم حتّى أن يجتمعوا بها قبل ذهابها، ولا أن يُقنعوها بالعدول عن رأيها، ولا أن يواسوها ببضع كلمات، كما أرادوا. عندها اتّخذتُ قراراً سريعاً. قمت باتصال هاتفيّ سريع، وبعد يومين وصلت بدوري إلى المدينة الساحليّة الصغيرة من «الجوتلاند» على متن الـ«هولغر دانسكي»، العجوز المنتَقَصِ من قدرها ظلماً وعدواناً. ولمّا كنت لم أستيقظ في الوقت المناسب، فاتني الفطور في المِقصَف، وكانت امرأة تطرق باب قمرتي.

- «لقد رسونا، لقد رسونا، يجب الخروج»!

وظننت لبرهة أنّها شخص تعرّفت به على البار، مساء البارحة.

تحوّلت السهرة إلى جلسة سكر، والبار الضيّق كان مكتظّاً. كانت الأكثريّة من الرجال، ولكن أمكن لنا كذلك رؤية بضع نساء، ولا بدّ من أنّهنّ اليوم أكثر عدداً. ثرثرت طويلاً مع كثيرات منهنّ بَدَوْن لي جميلات.

عندما يرغب المرء في شرب كأس، كان عليه شقَّ طريق في الزّحام. وإن عصفت به الرغبة كثيراً، مثلي، كان عليه الالتصاق بالبار. حرصنا على إمساك لفائف التبغ عمودياً، وإسناد أكواب البيرة أو كؤوس الويسكي المزدوجة إلى صدورنا. كان يتوجّب علينا، لإرواء الظمأ، أن نرفع كؤوسنا بتؤدة إلى الأذقان لتجرّع ما فيها من شراب ثمين.

كان بين الشاربين رجل لا يعجبني. كان سمج الوجه، وكنت متأكداً من أنه يعرف أموراً عنيّ، أموراً أجهلها، و يحزرها هو، كأنّني عارٍ تماماً بكلّ جروحي وندوبي، وعاجزٌعن التحكّم صورتي، وغير قادر أن أرى في عينيه ما يستطيع أن يراه في عينيّ. وما يراه، وما يعرفه، جعله في موقع قوّة. الغريب

في الأمر أنّي وجدت هذا الأمر مشروعاً. هكذا شعرتُ به. ومع ذلك كان هذا مستحيلاً، فأنا لم أره من قبل، وأنا متأكّد من ذلك. ليس بإمكانه أن يعرف شيئاً عن حياتي، ولكنّه ينظر إليّ بتعاظم و احتقار كلّما التفت إليّ. وفعل ذلك كثيراً.

كان ذلك مثيراً للجزع، مما أفقدني القدرة على التركيز. وحين دفعني وهو يشقّ طريقه للذهاب إلى الحمّام أو ليحضرَ شيئاً من قمرته، لمس كتفي كأنّه يريد استفزازي. أوقعتُ شيئاً من البيرة على القميص الذي اشتريته حديثاً، والذي كنت فخوراً به جدّاً. كنت متأكّداً من أنّه فعل ذلك متعمّداً، ووجدت حركته هذه تحمل تهديداً. تهديداً بالموت، ولا أعرف لماذا. وضعت كأسي على زاوية إحدى الطاولات، وغادرت البار.

صعدت أوّلاً إلى سطح المركب لجلاء أفكاري. وعندما فتحت الباب الحديديّ الثقيل، كان الدرابزين غارقاً في الظلمة. تدلّت فوق رأسي زوارق الإنقاذ، ضخمة مثل المناطيد في الضوء العارض للرّواق. وانغلق الباب خلفي محدثاً صوتاً مرعباً. سمعت ضوضاء البحر وعصْف الريح على حافّة السفينة. لم يكن البحر هائجاً، ولكنّه لم يكن هادئاً كذلك؛ كنّا في تشرين الثاني/نوفمبر وكان الطقس بارداً. وكانت «هولغر دانسكي» تتأرجح بهدوء في الليل الحالك، فما تمكّنت أن أرى غير طرف سيجارتي المشتعل، والزبد الأبيض للأمواج التي تلامس السفينة. وكان لسيجارتي مذاقٌ رديء. تساءلت إن كنت سأصاب بدوار البحر، ولكنّ اضطراب الأمواج لم يكن قويّاً بالقدر الذي يصيبني به. رميت سيجارتي من فوق السطح؛ فحملتْها الريح، واصطدمتْ بهيكل السفينة مشكّلة مطراً من وميض، ثمّ غيّبها الظلام. تراجعتُ بحذر حتّى شعرتُ ببرد الحافّة يلامس عظام كتفيّ، وأسندت ظهري إليها. وبقيت هناك أحدّق أمامي مباشرةً، حتّى تمكّنت من استعادة قدرتي على الرؤية الليليّة، وشعرت بأنّني في حالٍ أفضل. لقد اجتزنا «فوردر»، وأعالي البحر تمتدّ يمنةً ويسرة، وأنا تجمعني بالبحر معرفة قديمة. فجأة خطر لي أنّ رجل البار يمكن أن تطرأ إلى ذهنه فكرة الصعود إلى هنا، حينئذ سينتهي أمري. كان أضخم منّي وأقوى بالتأكيد، وبإمكانه أن يرميَني عن السطح إن رغب في ذلك، وسأختفي عندها إلى الأبد، ولن يعلمَ أحدٌ أين كنت. استحوذت الفكرة عليّ، إلى حدّ اضطررت معه أن أغادر سطح المركب، مع أنّي طالما كنت أنظر إلى البحر من على سطح مركبٍ يغمره ظلام الليل، فيشعرني ذلك براحةٍ كثيراً ما أكون محتاجاً إليها.

استطعت بصعوبة فتح الباب الثقيل الذي كانت الريح مصرّةً على تجميده داخل إطاره، ثمّ قطعت الرّواق ونزلت إلى قمرتي.

كنت قد جلست للتوّ على سريري حين دقّ أحدهم الباب. تجمّدت عروقي، ثم انتصبت بحذر، ولم أعرف ماذا أفعل. أرهفتُ سمْعي؛ فقُرع الباب

من جديد وبقوّة. وفجأة عرفت كيف أستجيب. كوّرتُ قبضتي اليمنى، وقطعت الخطوات المعدودة التي تفصلني عن الباب، ثم فتحته على وسعه، وفاجأت الطارقَ بلكمةٍ على غير هدى. كان الرواق غارقاً في الظلمة، ولم أرَ وجه الشخص، ولكنّي سمعت وقْعَ قبضتي وهي تنقضّ على حنكه، تماماً تحت الأذن. تهاوى على الحائط المقابل محدثاً ضجّة، ولا شكّ في أنّ ذلك حدث من قوّة الصدمة لا من قوّة قبضتي. وأنا أقفل مسرعاً الباب بالمفتاح، شعرت بألم عنيف في مفاصلي، وحبستُ أنفاسي. من جديد أرهفت السمع، ولكنْ لم أسمع أيَّ نأمةٍ في الخارج. ظللْتُ واقفاً لبرهة، ولكنّ الصمت كان مطبقاً. تمدّدت على سريري، مستمرّاً في إرهاف السمع، ثم مللت من ذلك ونمت. وفي اليوم التالي أيقظتني امرأة تطرق بابي.

- «لقد رسونا، لقد رسونا، يجب الخروج»!

وما حدث قبل ذلك بساعات، بدا لي مشهداً من حلم بدأ يتلاشى. لكنَّ يدي اليمنى كانت لا تزال تؤلمني، وأجد صعوبةً في فتحها وإغلاقها.

كنت أرتجف وأنا أقطع ساحة المرفأ التي تتلاعبُ فيها الرياح. شعرت بالغثيان، وبالدوار. وأنا أحمل معطفي القديم، متقلّداً حقيبة يد، أكملت طريقي عبر «لودسغادي» الذي يوقظ لديّ الكثير من الذكريات، ومررت أمام بار «سيناترا»، الذي كان في صغري وحتّى بعد ذلك بكثير يحتلّ المباني حيث توجد قهوة «فارغيكروين».

توقّفت أمام واجهة بائع التبغ والمشروبات الروحيّة بالقرب من سينما «كولوسيوم» القديمة، في شارع «دانمرك سغادي» الطويل. في صغري ذهبتُ مرّات عديدة إلى «كولوسيوم»؛ برفقة والدتي وشاهدت فيلم «متمرّدو باونتي» الذي لعب فيه «مارلون براندو» دور «فليتشر كريستيان». كانت أمّي تحب «براندو» كثيراً، وتقدّر تمثيله الشكس، الإيجازي والمعبّر في الوقت نفسه. كانت تحبّ الشاب «بول نيومان» أيضاً، لا سيّما في «النصّاب»؛ هو و«براندو» لديهما شيء ما أكثر من الآخرين، شيء متفجّر، كما كانت تقول. بينما «جايمس دين» كان وسيماً وحسب. في الحقيقة، لم يكن «جايمس دين» يعجبها، وكانت تجده بكّاءً، وقليلَ النضج إلى حدّ كبير، وكثير الميوعة. كانت تقول عنه إنه سرعان ما سيُنسى. ولكنّ الأعظم كان «مونتغومري كليفت»، في «طالما سيكون هنالك رجال» و«اللامتكيّفون»، لهشاشته، ونظرته، ووقاره.

كان محلّ التبغ والمشروبات الروحيّة لا يزال مقفلاً، ولم أكن أحتاج للبضاعة المرصوفَة على رفوفه؛ ليس بعد الليلة التي أمضيتُها. ولكني لما

ألقيت نظرة على الواجهة لمحت ثلاث زجاجات من الكلفَدوس، أفترض أنّها من ثلاثة أنواع مختلفة. وفكّرت فجأة أنّي لم أذقه يوماً. حسبت بأنّني إذا ذهبت إلى الكوخ سيراً على الأقدام بدل أن أستقلَّ سيّارة أجرة كما خطّطت، سأتمكّن من شراء الزجاجة التي في الوسط؛ لا بدّ أنّها ستكون لذيذة بالنسبة إلى شخص لا يعرف عنها شيئاً، مثلي. في الواقع، كنت أملك سيّارة، ولكنّها في النرويج، في مرآب. كان ذراع التوصيل هو ما تعطّل؛ ولا بدّ من أنّ إصلاحها قد تمّ منذ مدّة، ولكنّي لم أكن قد قرّرت بعدُ الذهابَ لاستعادتها. ولهذا السبب أسير على قدميّ أو أركب الحافلة كلّما أردت الذهاب إلى مكان ما. كان هذا مناسباً لي؛ ففي الحافلة يمكنني النوم. وهذا ما أفعله دائماً. أنام ما انْ تُتاحُ لي الفرصة. لم أكن أرغب في أيّ شيء آخر. و لكنّي الآن في الدانمرك، ولمّا كنت سأهدي نفسي زجاجة «الكلفدوس» هذه، يتوجَّب عليّ الذهاب سيراً على الأقدام. هكذا أنا. لم أكن راغباً في المشي، كنت مرهقاً، ولا أتذكّر بأنّني شعرت يوماً بالإرهاق إلى هذا الحدّ، وكاد ذلك أن يكونَ ممتعاً. تردّدت قليلاً، ثمّ قرأت أنّ المحلَّ سيفتح بعد عشر دقائق، وقرّرت أنْ أنتظر. و بعد أن اجتزت الباب، طلبت الزجاجة التي في الوسط، فحصلت عليها، ملفوفةً بكيس ورق بنيّ. كما في فيلم، قلت لنفسي. فكّرت في ذلك لأنّني نرويجيّ؛ وفي النرويج لا تُلَفُّ زجاجات الكحول أبداً بكيس بنّي. أعجبتني الفكرة. ماذا لو كنت شخصيّةً في فيلم؟ في هذه الحال لا شكَّ في أنّ الطريق سيبدو لي أقلّ صعوبة.

تحدّثنا مطوّلاً عن الكَلفدوس منذ سنوات بعيدة، أمّي وأنا، حين شجّعتني على قراءة «قوس النّصر» لـ«غريك ماريا رومارك».

- «إنّه كتاب جميل. قد يكون عاطفيّاً قليلاً، و لكنّه سيُعجبُك في سنّك هذه».

لم أكن قد بلغت العشرين من العمر بعد، ولم أشعر بالإهانة. ولم أكن أعرف معنى كلمة «عاطفيّ» في الحقيقة، ولم أدرك إمكانيّة أن يحمل هذا القول شيئاً من العجرفة، بالافتراض أنّ صبيّاً في سنّي لا بدّ له من أن يحبَّ ما هو عاطفيّ. لم يكن هذا ما تفكّر فيه، وليست تلك نظرتها إليّ. كانت تستنتج فحسب أنّي سأجد متعةً في قراءة هذا الكتاب، وكانت محقّة. لقد كان له تأثيرٌ مذهل فيّ، وأنا في ذلك العمر المبكّر. قلنا إنّه يجب علينا يوماً ما أن نذوق ذلك المشروب على كلّ حال. هو مشروب بدا لي تجسيداً للشراب السحريّ، مادّة مذهّبة تسيل خلال الرواية كلّها، وتأخذ حيّزاً لا حدود لأهمّيته، لأنّها كانت صعبة المنال بالطبع؛ في الـ«فينمونوبولي» لم يكن هنالك سوى علامة تجاريّة واحدة من «الكلفدوس» باهظة الثمن. ولكن في «قوس النصر»، كان الكلفدوس هو مشروبهم التقليدي. «بوريس» و«رافيك»، الصديقان الهاربان أحدهما من

«ستالين» و الآخر من «هتلر»، واللذان التقيا في باريس الثلاثينيات، قبيل وصول الألمان، حين كانت نهاية العالم تحوّم في كلّ مكان، من أقصاه إلى أدناه، وكانت أحاديثهما عن الحياة تثير الذكريات التي تعنّ لنا حين نغنّي هذا النشيد:

«لكلّ هذه الذكريات ولكلّ هذه الآمال

ولهذا الحزن أيضاً نقول لك: شكراً».

وهو ما فعلته خلال أحد مراسم الدفن، منذ زمن ليس بطويل.

قطعت «دانمرك سغادي» اللامتناهي في نور كضوءِ الغروب، وزجاجتي تحت ذراعي، باديةً للعيان في كيسها البنيّ. كنت شخصيّة قد اشترت، منذ الصباح، ما أنْ فتحت المحلّات أبوابها، زجاجةَ كحول فرنسيّ، وهي شخصيّة لا توجد إلاّ في بعض الأفلام أو بعض الكتب؛ في روايات أضحت قديمة، وكُتبت أثناء الحرب العالميّة الثانية أو قبل ذلك بقليل، وتتكلّم عن أحداث واقعيّة لمرحلة منصرمة. ومع ذلك أنا هنا، في الحاضر، مُحادٌ جانباً وكأنّني خطأ تاريخي.

حملت حقيبتي على كتفي وزجاجتي تحت ذراعي، وقطعت الحقل المعشوشب مارّاً تحت الأغصان المنهدلة للصنوبرة المشرفة على العنبر. لم تكن أمّي هناك، ومع ذلك، لم يكن الباب مقفلاً بالمفتاح. فأمّي هنا، لا تقفل الباب بالمفتاح أبداً، ليس قبل عودتها إلى النرويج. عندها كانت تقطع كلّ شيء، الماء والكهرباء، وكان أبي هو من يقفل الشاليه. كان مهووساً بإقفال كلّ شيء، الحقائب، أقفال أمان الدرّاجات، الأبواب؛ وبعد ذلك يبحث عن المفتاح في كلّ مكان، بينما نضرب الأرض بأرجلنا من نفاذ الصبر، ونحن نتجمّد من البرد إذا كنّا أمام الباب. وكنّا نقول إنّ هذا هو دأبه. عندها كان يتذمّر قائلاً: «ليس المرء دائماً حذراً بما فيه الكفاية» ووجهه محمرٌّ من الانفعال.

كان هنالك كتاب موضوع على الطاولة. لم يكن لـ«غونتر غراس»، بل لـ«سومرست موغهام»، باللغة الإنجليزية؛ طبعة جيب قديمة من «حد الموسى»، وهي قصّة طيّار أميركي ذهب إلى الهند بعد الحرب العالمية الأولى ليعيش انقلاباً روحيّاً. هو كتابٌ أثار غضبي دوماً؛ فهو شيء للهيبّيين. وهذا ما صار إليه، على كلّ حال؛ وتساءلت: لماذا تقرأ هذا؟ وضعتُ حقيبتي وقفلت عائداً، وزجاجتي في يدي. اجتزت ممرّ الصنوبر، ثمّ الطريق الترابيّ و مشيت حتّى المنعطف، حيث تشكلّ أشجار النسرين أجَمَة متراصّةً. وغادرت الطريق لآخذ الدربّ الذي يتعرّج بين العلّاقات حتّى البحر. كانت الريح تعصف بشدّة،

ورأيتُها مباشرةً. كانت جالسة على تلّة منخفضة، ملتفّةً جيّداً بمعطفها الدافئ، المرفوعة ياقتُه. كانت حاسرة الرأس، وخصلات شعرها البنّية تضرب وجهها؛ إنّها لم تَشِب بعد، أو شابت قليلاً جدّاً، مع أنّها تجاوزتِ الستّين من العمر. جلسَتْ هناك وحيدة، دافعةً رأسها إلى الخلف، كما كانت تفعل في الكثير من الأحيان، ما كان يعطيها هيئةً متعجرفة بنظر بعض الناس. و لكنّها بكلّ بساطة كانت شاردة الذهن، وتنظر حالمةً إلى البحر وتفكّر في شيء غير الذي أمامها، وهي تدخّن سيجارة، «كولي» أو «سالم» أو «لوك» دانمركية رخيصة الثمن.

أنا متأكّد أنّها سمعتني، و لكنّها لم تلتفت.

- «مرحبا»، قلت بصوت منخفض حين اقتربت منها، فلم تتحرّك.

«لا تبدأ بالكلام مباشرة»، قالت ببساطة.

«هذا أنا».

«أعرف أنك أنت. سمعتُ أفكارك تتضارب فوق على الدرب. هل أنت مفلس؟».

كنت أعرف أنّها مريضة، وأنّها قد تموت، لذلك أتيت، ولذلك تبعتُها. ومع ذلك لم أستطع كبح انفلات هذه الكلمات:

«سوف أطلّق يا أمّاه».

ربّما أكون قد رأيت من ظهرها أنّها تبذل جهداً، وأنّها تنقل مركز الثقل في جسمها لتنفصل عن المكان الذي كانت فيه أفكارها، والاقتراب منّي ذهنيّاً.

«تعالَ اجلسْ، قالت».

دفعت نفسها قليلاً، كما لو كانت تفسح لي مكاناً، مع أنّ في المكان متّسعاً.

«تعال»، ردّدت بنبرة تكاد تعبّر عن نفاذ الصبر، وهي تربّت على العشب القليل.

حينذاك انضممت إليها على تلّتها الصغيرة. ثمّ أخرجت القنّينة من الكيس البنّي، ووضعتها عند قدميّ مركّزاً إيّاها جيّداً في الرمل الأبيض لتبقى واقفة. لكنّي أظنّ أنّ أمّي لم تلاحظ شيئاً. لم تكن تنظر إليّ حتّى، ممّا أشعرني بالإحراج.

5

لسنوات عديدة قبل هذه الأحداث، في بداية الستينيات، درستُ في مدرسة حيّ «دالننغا»، في زاوية «دالننغاتا» و«غوتيبورغاتا». كان الطريق الذي عليّ اجتيازه للذهاب إليها يبدو لي بالغ القِصر، فمكان سكني أعلى بقليل في الشارع نفسه، قرب ساحة «كارل برنرز». لقد بلغت العشرين من العمر للتو، وكانت تلك المرّة الأولى التي أعيش فيها في مكان غير بيت الجوار في «فيتفت»، حيث نشأتُ في أواخر الخمسينيات وفي الستّينيات، وغادرت ما إن حصلت على منحتي التعليميّة. هذا ما كان يفعله الناس في تلك الحقبة عندما تحين لهم فرصة متابعة دراستهم، كما يُقال في شارعنا وفي كثيرٍ من الشوارع الأخرى.

حين استقرّيت، ذهبت الى وسط المدينة لأشتري مسجّلاً بجزء من قرضي: مولّد صوت «تاندبرغ ت. ر 200»، وجهاز تسجيل «لنكو» ومكبّران للصوت لا أذكر ماركتهما، ولكنَّ صوتهما بدا لي رائعاً. لم يكن ذلك الأمر مميّزاً على الإطلاق، فمسجّلي كان مماثلاً لمسجّل أخي الأكبر، الذي اشتراه كذلك بمنحته التعليمية. لم أتوقف عن تقليد أخي لمدَّة طويلة، ولكن ليس في كلّ شيء. في تلك الحقبة كنت شيوعيّاً، ذا ميولٍ ماويّة، ولم تكن هذه حاله. كان كذلك ماهراً في الأعمال اليدويّة، موهوباً جدّاً في النجارة، والرسم والتصوير، إلى حدّ أنّه لم يخطر لي يوماً أن أقلّده في هذه المجالات. عوضاً من ذلك، كنت أقرأ كتباً، أقرأ كثيراً. وانغماسي في الكتب بدا له تجربةً عميقةً ومثيرة إلى حدّ يمنعه من تقليدي. وهذا الأمر كان يفرحني، كما أذكر.

كنت إذا ما نزلتُ شارع «غوتبورغاتا» وأنا أغادر المدرسة، كحالي في كثيرٍ من الأحيان، سرعان ما أصل إلى مصنع الشوكولا «فريا»، وكانت أميّ تعمل هناك. كان مكانها على سلسلة الشوكولا المحشوّة، تمضي هناك منذ سنوات، ثماني ساعات في اليوم، وخمسة أيّام في الأسبوع، من دون ذكر

الساعات الإضافيّة. كانت تفوح رائحة الشوكولا في كلّ أنحاء أحياء «دالننغا» و«رودلوكا»، لا سيّما في بداية النهار حين يصبح الهواء بارداً ورطباً قليلاً. لم يكن ذلك يزعجني، إلّا في حال خرجت في المساء وشربت كثيراً. أما في الأحوال الأخرى، فكانت تلك الرائحةً تشعرني بالطمأنينة، وتذكّرني ببعض أيّام طفولتي، وبعض الوجوه المرتبطة بمواقف محدّدة؛ بعض وجبات خفيفة حول طاولة محضّرة جيّداً، وإشعاعات عموديّة للشمس تتسلّل عبر ستائر بيضاء مغسولة حديثاً، وأنا في وسط هذا كلّه، أشعر فجأة بأنّ العالم يسير كما ينبغي له. في وقت متأخر من المساء، عندما أجد نفسي وحيداً في شقّتي الصغيرة في ساحة «كارل برنرز»، أتوقّف في بعض الأحيان عن حماية نفسي من تدفّق هذا الشعور الآتي من الماضي. حينئذ أتحسّر متألّماً بشدّة على طفولتي إلى حدّ يُشعرني بالخوف.

بعد الدروس، وعندما أملّ من الجلوس في المقصف، كنت في كثيرٍ من الأحيان أمضي بعيداً في «غوتغورباتا»، ثمّ ألتفّ إلى اليمين باتجاه ملعب «دالننغا» الرياضي، وأتوقّف أمام مدخل العاملين في مصنع «فريا». أسند ظهري إلى الحائط القرميديّ القديم، وأجد رائحته طيّبة. إنّ له رائحة الطبيعة، مثل الأماكن التي ذهبت إليها مع والدي، في «أوستماركا» و«ليللوماركا»، وأتأمّل التمثال المعدنيّ البالغ الضخامة لـ«أرنولد هوكلاند»، الذي يدور ببطء حول قاعدته قرب الباب. لقد وُضِع هناك منذ سنتين أو ثلاث؛ ومن المُفترَض أن يُجسّد قيثاراً هوائيّاً و يُصدر أصواتاً عند هبوب الريح؛ مثل الموسيقا، كما كان يُقال، ولكنّي لم أسمع يوماً أدنى نغمة. أدخّن سيجارةً ملفوفة بورق «بيترو 3» و لديّ فسحة من الوقت متاحة لم يُسنح لي مثلها بعد ذلك أبداً. وأنا واقفٌ في الشمس، أنتظر والدتي التي لن يطول بها الأمر حتّى تظهر؛ ما إن ينصرف فريقها من العمل، تترك المبنى الضخم لتذهب سالكةً الطريق المخصّص للمشاة. كنت أراها من بعيد حين تخرج، وفي كلّ مرّة ألمحها فيها، أفكّر في هذه الأبيات لـ«رودولف نيلسن»: كنت أراكِ قبل أن تصِلي

لأنّي أعرف دوماً متى تكونين قريبةً منّي.

لا شكّ في أنّها قصيدة كتبها في العشرينات للمرأة التي يحبّها. وإذا ما خطرت ببالي، فلأنني هنا، على تقاطع أحياء «دالننغا» و«رودلوكا» و «غرونرلوكا»، في شمال أوسلو، في منطقة «رودلف نيلسن» نفسها، أمام مصنع عملت فيه من دون أدنى ريب فتيات عَرَفهنّ. وإن كانت التي أراها تظهر هناك هي أمّي لا حبيبة، فهي عزيزة على قلبي في كلّ الأحوال، كما هو مذكور في القصيدة. هكذا أحسستُ بالأمر.

وقفتُ، تاركاً الحائط يقف وحده.

- شوكولا «فريا»! صرختُ.

- لا أريد.

- كاراميلة «فريا»؟

- لا أريد كذلك.

احمرّ وجهها، لأنّها لاحظت أنّ البوّاب قد سمعنا، وأنّه يسخر منّا. ولكنّه تركها تمرّ.

- حسناً، ماذا بعدُ! ماذا تفعل هنا؟ هل أنت مفلس؟

قالت بصوت أكثر انخفاضاً عندما وصلت إلى قربي.

كنت كذلك. كما هو حالي دائماً. ولكنّي تهرّبت قائلاً: - ماذا؟ تلمّحين إلى أنّني هنا أنتظر أمّي عند باب الخروج من عملها المضني، لأنّني بحاجة إلى المال، وأنّني آمل أنّها ستعطيني قليلاً منه؟ بالله عليك يا أمّاه.

- كم تحتاج؟

هززت كتفيّ.

- هيّا، قالت فاتحة حقيبة يدها الصغيرة لتتناول محفظتها البنّية القديمة.

فتحت السحّاب بحركة مدروسة جيّداً، لتجنّب نظرة زوجٍ أفلت من زمام يديه حاليّاً مقودُ الاقتصاد العائلي، وأخرجت سرّاً ورقة مائة كورون مطويّة أربع طيّات دسّتها في يدي. وتظاهرت بقبولها رغماً عنّي.

- خُذْ.

رأيت مباشرةً ما نوع الورقة النقديّة.

- لا، حقّاً يا أمّاه. مائة كورون، هذا كثير.

فعلاً كان مبلغاً كبيراً من المال. وللمقارنة، كنت أدفع مائة وستين كورواناً للإيجار.

- هيّا، لن نعود للكلام عن هذا. وإيّاك أن تقول شيئاً لوالدك.

- أنا لا أراه أبداً.

- ليس هذا ذنبه، ردّت أمّي.

ولم تكن مخطئة، ولكنّي وافقت.

- لكن أكلّمه عن الأمر. ولماذا أفعل ذلك أساساً؟

كنت بحاجة حقّاً لهذه الكورونات المائة، هذا مؤكّد. ولكن وجودي هنا ليس سببه أنّني مفلس؛ فأن يكون المرء مفلساً هو طريقة حياة، وأنا لم أعد أنتبه لذلك. أنا هنا لأنّ عندي ما أقوله لها. هو أمرٌ تجهله وليس بإمكانها أن تحزره أبداً.

- هلّا نشرب قهوة قبل أن تعودي إلى البيت؟ في مقهى «برغرسن»؟

كان اقتراحي غير اعتيادي إلى حدّ أنّها قبلت من دون تفكير. عادةً كنّا نكتفي أن نقطع «غوتبورغاتا» وأن نكمل عبر «دالننغاتا» حتّى ساحة «كارل برنرز» ونمر قرب سينما «رينغن» - في الحادية عشرة من عمري شاهدت فيها فيلم «زورو المنتقم المقنّع» بجزءيه، في سبتين متتاليين وأسبوع لا ينتهي من الانتظار بين الحلقتين - ثمّ نصعد حتّى المترو، ونحن نتناقش حول الكتب التي قرأناها، والأفلام الجديدة التي اكتشفناها، والأفلام القديمة التي عدنا لمشاهدتها. مثل «السبت مساءً، الأحد صباحاً»، مع «ألبرت فيني» اليافع، الذي عُرض على التلفاز الأسبوع الماضي. كانت أمّي تستلطف «ألبرت فيني»، عندما كان واقفاً أمام المخرطة الميكانيكيّة لمعمل الدرّاجات، مشمّراً كمَّيه، مرنّماً بصوتٍ جامد رأيه في العاملين الهرمين، إلى أيّ حدّ لا يزالون متشبّثين بمُثُلِ ما قبل الحرب، وكيف أنّه هو لن يضيّع حياته هكذا؛ ولن يقبل مطلقاً أن يُستضعف مثلهم.

(أتحدّى أيّ كان أن يحاول هزيمتي، سيكون ذلك هو اليوم المشهود. ما أبغيه هو أن أقضي وقتاً ممتعاً، والباقي كلّه أكاذيب) كان يقول، زامّاً شفتيه.

تلك ترّهات، وأمّي تعرف ذلك أكثر من أيّ كان، ولكنَّ ذلك لم يمنعها من ترديد مقطع «ألبرت فيني» وهي توميء بسيجارتها: all the rest is propaganda! (الباقي كلّه أكاذيب) قالت بصوتٍ مسموع جيّداً في منتصف ساحة «كارل برنرز»، مقطّبة عينيها ولاكّةً الراءات كما يفعل أهل «نوتينغ هامشير». وواكبت جملتَها ابتسامةٌ سوداوية جعلتني حائراً. ولكنيّ وجدت ذلك راقياً.

ثمّ غيّرنا الموضوع. حدّثتني عن رئيس العمّال الذي يتحرّش بالنساء؛ على كلّ حال لم يكن هنالك سوى نساء لدى «فريا»، في قسم الشوكولا

المحشوّة. طفح الكيل لدى أمّي من هذا الخنزير العجوز، وكانت تريد أن تتصرّف؛ «ماذا لو تحدّثنا عن كيفيّة التعامل مع الأمر؟».

وصلنا إلى مقهى «برغرسن»، الذي لم يكن اسمه «برغرسن»؛ أنا من سمّيته كذلك، لأنّ رجلاً بهذا الاسم يُمضي حياته فيه بالقرب من الواجهة الزجاجيّة، غارقاً دائماً في الجريدة نفسها. «ذاك مكان برغرسن»، كان النادلون يقولون. يقع المقهى خلف سينما «رينغن»، في الشارع الصغير المنحرف الذي يكمل «ترومسوغاتا»؛ وبالمناسبة اسم الشارع الصغير»ترومسوغاتا» كذلك؛ ولكنه في ذلك المكان أشبه بمُلحق لا اسم له.

طلبْنا فنجانَيْ قهوة ورقاقتين، ثمّ علّقنا سترتينا على المشاجب قرب المدخل. كنت قد بدأت آنفاً أشرح لها ما يطرأ على حياتي؛ سأترك مدرسة «دالننغا» علماً أنّني طالب فيها منذ سنتين، ولديّ منحة ومسجّل، وأمضي سهرات احتفاليّة مع البيرة وكلّ ما تبقّى، وذلك لأنّ الحزب الذي كنت عضواً فيه يقيم حملة لدفع أكبر عدد ممكن من أعضائه ليصبحوا عمّالاً. لم نكن مجبرين على أيّ أمر، بالطبع، ولكنّ أحدهم من إدارة الحزب زارني في شقّتي الصغيرة؛ وشرح لي مطوّلاً بأنّ احتمال حدوث حربٍ جديدة كبرى أمرٌ واردٌ في ظلّ الجهود التي يبذلها الاتّحاد السوفياتي بعد أن دخل في سباق التسلّح. من الممكن أن يحصل ذلك ابتداء من السنة المقبلة؛ وهذا ما فهمته من دون شكّ في المخيّم الصّيفي للحزب، لذلك من العبث أن أبقى حيث أنا؛ يجب أن أكون مع الشباب. هذا هو التعبير الذي يستخدمه: «الشباب»، وهو يتكلّم عن العمّال بالطبع.

أشار، وهو يخطب بحركات أنيقة، نحو النافذة على العالم. ولكنّه أخطأ في الاتجاه: فلم يشر إلى المصنع القريب حيث يصحّ القول إنّ أمّي واحدة من الشباب، وإن كان معظم العمّال نساء؛ و لم يشر كذلك إلى الجهة المقابلة، حيث والدي واحد من الشباب، على بعد بضع محطّات مترو من هنا؛ بل أشار بسبابته إلى أسفل «فينماركغاتا»، نحو متحف «مونش». متحف «مونش» الذي كنت أذهب إليه في كثيرٍ من الأحيان، يوم الأحد، لأرى مجدّداً اللوحات الملوّنة، الحسّية والمقلقة التي كنت أحبّها كثيراً. ولكنّي أكره أن أسبّب الحزن للناس؛ هكذا كنت دوماً. وهكذا، رأيت بوضوح ما ينتظرني.

بعد أسبوع واحد فقط من هذه الزيارة، انضممت إلى اجتماع في مدرستي. كان الحاضرون أشخاصاً يشاركونني آرائي حول العالم والسياسة، وألقيت خطاباً عن أهميّة المحافظة على علاقات متينة بالطبقة العاملة في عصرنا. لم يكن خطابي سيئاً، ولكنّني لم أستطع كبح نفسي من الشعور

بالإحراج، وكأنَّ الطبقة العاملة التي أتحدَّث عنها لم تكن هي نفسها تلك التي يشكّل أمّي وأبي، يوميّاً، جزءاً منها. هي تشبهها بالتأكيد، ولكن لها طبيعة مختلفة، ولا تنتمي إلى العالم نفسه. بدا أنّ أحداً لم يلاحظ ارتباكي، فقد تقدّموا للتَّربيت على ظهري، وهم يمتدحون براعتي، ويقولون إنهم وجدوا كلماتي مثيرة للاهتمام. لا أعرف في أيّ الشوارع نشأ الحاضرون في الاجتماع، ولكنْ في نهايته كنت الوحيد الذي أعلنت أنّني سأترك المدرسة، وهذا ما فعلت. عندما كنت كشّافاً، كان الأمر مماثلاً: في فرقة اليحامير، أنا الوحيد الذي أخذ القَسَم بجدّية. في العمق، كان الأمر مماثلاً تقريباً.

حاولت أن أشرح كلّ هذا لأمّي. كنت قد خلعت سترتي، ونحن بانتظار القهوة والرقاقات، وفمي تفيض منه الكلمات. ثبّتّ نفسي في كرسيّي لأكون مقابلاً لها تماماً في هذا الوقت الذي سنمضيه سويّاً، نحن الاثنان. وفجأة رأيت يدها تطير فوق الطاولة كظلّ، وتهوي على خدّي. أحدث ذلك ضجَّةً عاليةً طغت على ما سواها من الأصوات. في الخارج، يقف رجلٌ أمام شاحنته، يُفرغ منها صناديق زهورٍ للمحلّ المجاور. وحين كانت الشمس تضيء سقف المبنى الآجريّ المقابل، كانت طفلتان تعودان من المدرسة على دراّجتين، وحقيبتاهما على حاملة الأمتعة؛ هما في حوالى العاشرة من العمر، ترتديان ثوبين خفيفين ولا شك في أنّهما لا يدفئانهما، وفي أعماقي شعرت بالرغبة القديمة أن يكون لديَّ أخت. لو كان لي واحدة، لكانت حياتي مختلفة، ولما وجدت نفسي جالساً هنا. ولكنْ، شاءت الأقدار ألاّ يكون لديّ سوى إخوة، ثلاثة إخوة، و خدّ يؤلمني؛ أشعر به وهو يصير أحمر وملتهباً. لم أعرف ماذا أفعل، و لا ماذا أقول. بقيت أنظر إلى الطاولة، وإلى طاولة الشرب؛ رأيت أمي بطرف عيني وهي تنهض. الصّمت كان مخيّماً، ولا يُسمع سوى هدير آلة صنع الثلج. تجمّدت النادلة في مكانها في منتصف الطريق إلى طاولتنا؛ تقدّمت بحذر، ثمّ وضعت صينيّتها وهربت مسرعة. عندها تذكّرت المائة كورون، فدسست يدي في جيبي، وأخرجت الورقة المصرفية المطويّة بعناية.

- خذي. لا ريب في أنّك تفضّلين أنْ أعيدَها إليك.

وتلوّن خدّي الثاني بدوره باللون الأحمر. نهضتْ أمّي تحمل معطفها تحت ذراعها. كان وجهها شاحباً وعيناها رطبتان.

- وغد.

صاحت بي ثم ذهبَت.

لا أعرف كيف أمكنني مغادرة هذا المقهى، ولا أعرف إذا ما أكلت رقاقتي، أو الرقاقتين، ولا أعرف إذا حاسبت بورقة المائة كورون، ولا أذكر ماذا فعلت في الأيّام التالية. ولكنّي الآن جالس بقرب أمّي فوق تلّة رمليّة صغيرة على الشاطئ في الشمال الشرقي من الدانمرك، في أحد صباحات تشرين الثاني/نوفمبر، وأذكر كلّ ما تبقّى. في مقابلنا، هنالك جزيرة صغيرة تدعى «هيرسهولم». وعلى الجزيرة منارة أراها كلّ صيف منذ القدم، وتراها أمّي كذلك منذ القِدم. تساءلتُ إذا ما كان وجود منارةٍ في مجال الرؤيا معظم الوقت يغيّر طريقة التفكير.

استنشقتْ الأنفاس الأخيرة من سيجارتها، ثمّ سحقتها في الرمال بحركةٍ متعبةٍ قليلاً، والتفتت إليّ.

- ماذا أحضرتَ، هنا؟ سأَلتْ مشيرةً بغير وضوح إلى الزجاجة المغطّاة جزئيّاً.

- كلفدوس.

- كلفدوس؟

ثمّ تذكّرتْ. هزّت رأسها بهيئة ناعسة قليلاً: - قوس النصر، أليس كذلك؟

- نعم، قوس النصر.

هزّت رأسها من جديد؛ بهذه الهيئة الشاردة السكِرة .

- إنّه كتاب جميل. عاطفيّ قليلاً، ربّما. يُفضّل أن يكون عمر المرء أقلّ من العشرين حين يقرأه للمرّة الأولى.

- نعم، من دون شكّ.

6

ظنّت أنّها تعرف من أكون، ولكنّ ذلك ليس صحيحاً. لا في ذلك اليوم على الشاطئ، ولا في مقهى «برغرسن»، قبل خمسة عشر عاماً، ولا في الحقبة التي لم أكن فيها شيوعيّاً بعد. لم تعرف شيئاً، لأنها كانت مهتمّة بأمور أخرى. تراني أدخل وتجهل من أين أتيت، وتراني أخرج وتجهل إلى أين أذهب. كانت تجهل ميولي، وتجهل كيف أعيش السادسة عشرة من عمري بعيداً عنها، فالسابعة عشرة والثامنة عشرة، ولا تعرف شيئاً عن نزهاتي اليائسة بمحاذاة «تروند هايمسفايفن»، بين «فيتفت» و«غرورود». في اتّجاه، ثمّ في آخر، مروراً بسجن النساء الذي ينتصب بثقله في الحقول كعدمٍ مظلم، لا يُتَصَوَّر وسرّي، ثمّ أمام حواجز «كالدباكن» وأبراج «رودتفت» المرتفعة كمنحدر تلّة على أطراف غابةٍ عميقة الغور وواسعة إلى حدّ أنّ المرء يمكن أن يضيع فيها، ويختفي إلى الأبد، لو أراد ذلك.

كنت أتنزّه في الخريف، في بداية تشرين الثاني/نوفمبر، ودائماً في تشرين الثاني، في وقت متأخّرٍ من المساء. كان هنالك مطر خفيف، والمصابيح تومض فوق رأسي، لأنّني أمشي بسرعة وتبدو و كأنّها تنطفئ وتضيئ، تنطفئ وتضيئ؛ وأحياناً تفرقع في الهواء الرطب وتطلق شراراتٍ زرقاء، بينما تدور الكلمات في رأسي، وأفكاري تحدث صريراً كأنّها تيّار كهربائي؛ ربّما اكتُشِفت أنوار زرقاء في دماغي لو أنّه قُطِّع رقاقاتٍ لدراسة ما يحدث فيه.

كانت مدرستي في قاع وادي «غرورودالن»، قرب المحطّة والمباني النجميّة حيث يعيش العمّال: السائقون والمفتّشون والميكانيكيّون. ولكنّي أستدير إلى اليمين قبل ذلك، قرب نادي كرة القدم والملعب، عند تقاطع «تروند هايمسفاين». أمرّ أمام الكنيسة والمقبرة، ثمّ أنزل الطرقات المتعرّجة وصولاً إلى أسفل المنحدر، وألتفّ عبر «هايمدال»، البيت الأحمر الذي كثيراً ما

تلتقي فيه الشبيبة المسيحيّة. حدث أن رغبتُ في الدخول إليه كما يرغب الجمل في دخول ثقب الإبرة، ولكنّي كنت أصطدم وأنا على الأدراج بغياب إيماني. وعندما كنت أمرّ أمامه، كنت أرى دوماً نور في النوافذ، وأرى أجساماً غضّةً تتحرّك تحت المصابيح؛ أجسام صبيان مثلي، وبالذات أجسام فتيات. هي أجسادٌ مسيحيّة من جذور شعرها إلى أخمص قدميها، وتستطيع أن تكون مسيحيّة حتّى في انحناء أوراكها، واستدارة أثدائها تحت الصدار، وبشرتها الناعمة والمسيحيّة، الحنطيّة و المذهّبة، التي تتألّق بطبيعيّةٍ أفتقدها. كنت أشعر بإحراج وأنا أفكّر في ما فعلوه: وضع أقدارهم بين يدي أحد آخر، بين يدي من يعدّونه قوّة عظمى تسبح أرواحهم في نورها الباهر. ويغنّون هذا النور من دون خجل، من دون ارتباك، وعيونهم تحدّق في السماء وابتسامة تعلو شفاههم. كانوا سعداء، يركضون في كلّ مكان و يقهقهون، محميّين بإيمانهم.

ولكنّي كَففت عن التوقّف على الأدراج أو أمام النوافذ لألقي نظرة؛ قطعت هذه المرحلة، ولم أعد أتطلّع إلى الدخول، وأمسكت بزمام قدري. ومع ذلك، ليس من السهل أن أكون وحيداً وكنت أعاني من هذا الأمر.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

في أحد المساءات، نزلت حتّى المدرسة. كانت غارقةً في الظلمة، وبدت لي غريبة ومخيفة. عَبَرت الفناء الخالي، وكان صدى خطواتي يرنّ بين جدران المباني، وفجأة شعرت بوجود والدتي. كلا، أنا لا أتخيّل: إنّها هنا و تنظر إليّ من خلال الظلمة الرطبة لفناء مدرسة «غرورودالن»، الخالية من كلّ شكل من أشكال الحياة في هذه الساعة المتأخرة، التي لا ينحني فيها أحد على النوافذ ليصرخ لي بتلك الكلمة المشجّعة، هذه الكلمة المشجّعة التي أتمنّاها كثيراً. و أعرف ما تتساءله: هل لدى هذا الصبيّ المؤهّلات الكافية؟ هل سيستطيع تدبّر أمره؟ أليس شديد الهشاشة؟ أعرف بماذا تفكّر: إنّني شديد الهشاشة. هنالك شيء ما فيّ يجعلها مرتابة، ضعف في الشخصيّة، صدع في أسس التكوين، هي الوحيدة التي لاحظته. كان لديّ تسهيلات كثيرة، هذا ما كانت تفكّر به؛ الحياة ليست هكذا، ولا يجب أن تكون هكذا.

7

عدنا إلى الشاليه، نكاد نتجمّد من البرد. وضعتُ الزجاجة على طاولة غرفة الجلوس، ثمّ توجّهت نحو المدفأة «جوتول» التي اشتراها أبي من المعمل مباشرةً قبل أن يرسلها إلى هنا، حيث كان أنبوب التدفئة جاهزاً بانتظارها؛ وهكذا صار بإمكان والديّ أن يتدفآ بالقدر الذي يريدانه، والإفادة من الشاليه في غير الفصل الدافئ.

كان هنالك خشب في الصندوق. جثوتُ على ركبتيّ وجهّزت كدساً مهوّى بشكل يسمح للنار أن تشتعل إذا ما سحب الموقد الهواء.

كان موقداً ممتازاً، إذ تنتشر منه الحرارة في الغرفة ما إن تبدأ النيران بملامسة المعدن. شعرت بخدرٍ يصيبني وأغمضت عينيّ.

- سأطلّق، قلت.

- سبق أن أعلنت ذلك. أتساءل لماذا؟ لماذا ستطلّق.

كانت واقفة خلفي، ربّما في ركن المطبخ، حدّقت إلى المدفأة حيث اشتعلت النار جيّداً.

- لا يمكن لنا الاستمرار هكذا.

وأنا أسمع جملتي، أدركت أنّ بالإمكان الظنّ أنّ الفكرة فكرتي، وأنّني أنا من اتّخذ القرار. ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك.

- أعتقد أنّها هي التي تريد الطلاق، قالت أمّي.

- لماذا؟

- أنا أعرفك.

- لا، لا تعرفينني.

فلم تتنازل حتّى بالرد.

- أنتِ أيضاً، كان يمكن أن تطلّقي، قلت.

- أحقّاً، هذا ما تظنّ؟ إلاّ أنّي لم أفعل ذلك.

- لما كنتِ تعرفينني إلى هذا الحدّ، كيف جرى أنّك لا تعرفين لماذا أطلّق؟

- أوه، «أرفيد». انسَ الموضوع.

فتحت عينيّ. كنت لا أزال جاثياً أمام المدفأة. نهضت ببطء، والتفتُّ صوبها.

- أظنّ بأنّني سأتمدّد قليلاً. نصف ساعة. هل يزعجك ذلك؟

- أبداً.

جلست إلى الطاولة، بعد أن أشعلت سيجارة للتوّ؛ بدا لي صوتها غامضاً، ويكاد يكون مخنوقاً، وكأنّها تكلّمني من خلال حائط. وبدل أن أذهب للنوم في إحدى الغرفتين الصغيرتين، كما كان دأبي في الأوقات العاديّة، تمدّدتُ على الكنبة القديمة في غرفة الجلوس؛ لم أُرِد أنْ أكون وحيداً في أثناء نومي من ناحية، ولا أن أدعها مستيقظة من دوني من ناحية أخرى.

كانت الكنبة تتأرجح مثل حال السفينة منذ ساعات؛ أشعرني ذلك بالغثيان، ولكنّي بعد وقت تعوّدتُ على ذلك، وصار يشعرني بلذّةٍ ما. كان لنسيج الكنبة السميك رائحة الصيف والسنّينيات، وكنت أسمع أمّي و هي تقلّب صفحات كتاب «حدّ الموسى»، من دون شكّ. شعرت بصوت ولاّعتها حين أشعلت سيجارة جديدة، ثمّ أفلتُّ نفسي؛ وقعت في الهاوية، ونمت قبل أن أصل إلى القاع.

لم أكن قد استيقظت تماماً بعد، ولكنّي عرفت مسبقاً أنّي لست في بيت طفولتي، ولا في شقّتي الحاليّة، في مدينةٍ أسمّيها عشّ النسر؛ عرفت أنّي لم أكن في سريري حيث أنام منذ عشر سنوات تقريباً، و أستيقظ في كثيرٍ من الأحيان لأعاين الظلام؛ عرفت أنّني في هذا الشاليه الذي أدّى دوراً مهمّاً

جدّاً في حياتي. حين كنت طفلاً، سمح لي هذا البيت الصغير المكعّب بتجنّب «هودوي»، مخيّم العُطل الذي يقع على جزيرة في الزقاق البحريّ لأوسلو، حيث يلتقي كلّ أولئك الذين ليس لهم مكان يذهبون إليه في أثناء العطل، سواء لأنّ على أهلهم أن يعملوا، أو لأن ليس لديهم الإمكانات الماديّة للذهاب، أو بكلّ بساطة لأنّ ذلك يدعهم يتلقّون بعض أشعّة الشمس على وجوههم، والريح في شعورهم وماء البحر على أجسامهم. بالنسبة إلى أطفال الستّينيات، كان هذا دواءً لكلّ العلل، ولكنيّ كنت مدركاً منذ تلك الحقبة أنّني لن أتحمّل الضغط الجماعيّ؛ لا في السرير، ولا في قاعة الطعام، ولا في أثناء الرياضة الصباحيّة. كنت أعرف أنّي سأصلّي كالآخرين، إذا فُرِضَ علينا ذلك؛ و أعرف أنّي مستعدّ لفعل أيّ شيء لأبدو متوافقاً مع الآخرين، لأنّي لست قويّاً إلى حدّ أن أبقى وحيداً في وسط الجمهور، قلقاً وظامئاً إلى الحرّيّة.

وأنا أصَّعَّد من خلال الطبقات المتتالية للوعي، سمعت صوت أمّي و صوتاً أجشَّ أعرفه؛ على الرغم من كلّ الجهد المبذول، لم يستطع الرجل الذي يتكلّم أن يخفض الطبقة الصوتيّة. أيّاً تكن الغرفة التي يوجد فيها، كان صوته يحافظ على قوّة يرتجف منها الأثاث والجدران، وترتجف معدتي تناغماً معها. كانا مع ذلك يحاولان الكلام بهدوء حتّى لا يوقظاني، و لم أتحرّك؛ كان أنفي غارقاً في نسيج الكنبة، و يداي مضمومتين خلف رأسي. كثيراً ما أستيقظ في هذه الوضعيّة، كأنّني أريد الاحتماء، كأنّ أحدهم يسدّد سلاحاً إلى مؤخر جمجمتي؛ أمكن القول أنّني شخصيّة تُعرض في الأخبار التلفزيونيّة، أنّه تحقيق عن بلد أفريقي، «الكونغو» أو «أنغولا»، أو لقطة من فيلم حربيّ شاهدته، تعرِض مساجين مصطفّين جنباً إلى جنب تحت الشمس الحارقة، وجوههم موجّهة إلى الأرض وأنوفهم مليئة بالغبار، وشفاههم جافّة، منتهكةٌ كراماتهم بنظرات الجنود المقترنة بابتساماتهم البيضاء و لفافاتهم البيضاء.

سمعت أمّي تقول:

- ما يفعله ضروريّ جدّاً. لايمكن للأمر أن يستمرّ كما في السابق، لم يعد الوضع يُحتمل. ولكن الكثير من الناس ضدّه، والجيش ضدّه، يمكن للحال أن تسوء. أتساءل ماذا سيحدث.

ثمّ أكملت:

- أتمنّى على الأقلّ أن أعيش لوقت طويل كافٍ لأرى كيف سينتهي الأمر.

بدأت تبكي، ثمّ توقّفت، غاضبة. عرفتُ ذلك من طريقتها في إشعال سيجارتها، من محاولاتها المتوتّرة والعقيمة بولاعتها.

ثمّ تدخّل صوت الرجل:

- لمَ لا نذهب لشرب القهوة عندي؟ هكذا، سيتمكّن الصبيّ من النوم بهدوء، كأنّه عجلٌ يؤخذ إلى المسلخ.

صوته العميق جعل هيكلي العظميّ يهتزّ.

- سيطلّق، قالت أمّي.

- تبّاً! قال الرجل، المدعوّ «السيّد هانسن»، والذي يسمّيه الجميع «هانسن» وحسب.

«هانسن» هو أعزّ صديق لوالدتي. على الرغم من أنّهما يعيشان في بلدين مختلفين، وأنا متأكّد أنّهما لا يتراسلان مطلقاً. هو عامل في مرحلة ما قبل التقاعد. كان يعيش في المدينة، في مبنى من القرميد، وما أن يكون لديه بعض الوقت حتّى يذهب إلى الشاليه خاصّته على درّاجة ناريّة صغيرة، أيًّا كان الفصل.

- لمّا كنت لم أطلّق يوماً، فليس عندي أيّ خبرة في الموضوع، قال.

حلّ صمت، ثم سمعت صوته من جديد:

- ما هذا، هناك؟

- زجاجة اشتراها «أرفيد». «كلفدوس»، كحول فرنسيّ.

- حسناً، هذا يثبت أنّ لديه مالاً، على الأقلّ. تعاليْ، سوف نتابع النقاش السياسي في الجانب الآخر من السياج. أعرض عليك فنجان قهوة و لديّ أيضاً قطعة حلوى، إذا أردتِ.

وأتخيّل أنّه داعب خدّها في تلك اللحظة.

سمعتهما وهما ينهضان و يتوجّهان نحو الباب. كانا يتكلّمان عن «غورباتشيف»، فهمت ذلك مباشرةً؛ الرجل الذي يحمل على جبينه خريطة أمّة مجهولة، رئيس الاتحاد السوفياتي، و هو المنصب الذي يشغله منذ عام والذي سيكون آخر من يحمله. آخر رئيس لدولة بدأت تجربةً منذ سبعين عاماً، و

فشلت فشلاً ذريعاً. و لكنَّ هذا الأمر لم يكن أحد يعرف بعد، أنّ «غورباتشيف» سيكون الأخير. حتّى هو.

ذهب أخي إلى السفارة السوفياتية في أوسلو ليطلب صورة لـ«غورباتشيف»، بينما حقبة تقديس الشخصيّات أصبحت بائدة؛ كانت هذه هي الحال حتّى في الصّين، مع أنّها كانت قد وصلت هناك إلى أوجها، يجب الاقرار بذلك. ثمّ أطّرها قبل أن يهديَها إلى أمّي بمناسبة عيد ميلادها.

- علّقيه فوق سريرك، وستتمكّنين من مكالمته قبل أن تنامي. كما هي حال «أرفيد»، مع «ماو».

فَعَلَت ذلك، بقصد التسلية خاصّة، ولكن لم يكن صحيحاً أنّي أتكلّم مع «ماو». لست تافهاً إلى هذا الحدّ. بالمقابل، كان لديّ في الواقع صورة لـ«ماو» فوق كنبة نومي؛ وهو المكان الوحيد الشاغر. ولكن كان هنالك كذلك صورة لـ«بوب ديلان» وأخرى لـ«جوني ميتشيل» على شاطئ في كاليفورنيا: oh California, California, I’m coming home (أوه كاليفورنيا، كاليفورنيا، أنا عائد إلى الديار)، ونسخة من منظر طبيعي لـ«تورنر» كذلك، لأنّي قرأت في مكان ما أنّ «تورنر» يرسم بريشات مغموسة في بخارٍ ملوَّن. وجدت ذلك بليغاً، وحين وجدت ملصقاً للوحة تمثّل البحر قرب «ويتبي»، وهي مدينة على الساحل الشرقي لإنجلترا زرتها في السنة الماضية، اشتريتها مباشرةً، لأنّ الأمر بدا لي صائباً.

صورة «ماو» هي الصورة الشهيرة الملوّنة حيث نراه منحنياً على طاولته، وهو يخطّط بريشة ألوان مائية. وفكّرت دوماً أو تمنّيت ألّا يكون ما يكتبه أحد مقالاته السياسيّة أو الفلسفيّة، بل قصيدة. ربّما تلك التي تبدأ بهذه الأبيات: صور هشّة للرحيل ولقرية الأيّام الخوالي.

اللّعنة على نهر الوقت: لقد تصرّم اثنان وثلاثون عاماً.

لأنّنا نكتشف فيها «ماو» الإنسان، «ماو» قريب لي، شخص يشعر في جسده بالخراب الذي يُحدثه الزمن كما شعرت به أنا، بما أنّي كذلك شعرت بالزمن يقبض عليّ، وينزلق تحت جلدي ويُحدِث فيه الكثير من الشحنات الكهربائية الصغيرة، التي لا أتمكّن من إيقافها على الرغم من رغبتي في ذلك. و حين تتوقّف، أكون قد صرت شخصاً آخر، وكان هذا يُحبطني.

ولكنّ سنوات السبعينيات ماتت ودُفنت. قبل أقلّ من عام من شهر تشرين الثاني/نوفمبر هذا، ذهبت إلى سفِارة الصين برفقة عدد من رفاق تلك

المرحلة البائدة؛ هتفنا الشعارات صراخاً، وحملنا رسالة إلى سعادة السفير، ولكنّي لا أذكر إن ظهر في الفناء أو أنّ أحداً آخر قد أتى؛ حتّى أنّي أجهل إن كنّا قد أبلغنا عن تسلُّم الرسالة. مهما يكن، طلبنا بالحاح إلى السلطات الصينية، إلى الحزب الشيوعي الصيني الذي كنّا نحترمه كثيراً، بإيقاف المجزرة بحقّ العمّال الشبّان الذين ينضمّون إلى الطلّاب؛ طلبنا إليهم إيقاف سيول الدماء التي، في شهر حزيران/يونيو 1989 هذا، كانت تسيل إلى كلّ طرفٍ من أطراف الساحة، أنهاراً صغيرة مشكّلةً دلتا حمراء، وطالبنا بتطبيق الديمقراطية في الصين. وكان هذا يبدو غريباً لنا، أن نكون هنا مطالبين بالديمقراطية لهذا البلد الشاسع الذي كان قُدسَنا، وحيث الشمس لم تعد تشرق من الشرق، إلّا بالنسبة إلى سكّانه، الذين سيصيرون مليارا في وقت قريب. لقد مات «ماو» منذ ثلاثة عشر عاماً تقريباً، وكنّا نسير بالآلاف في طرقات أوسلو حاملين صوره، والرايات السوداء تلاعبها الرياح و الشرائط السوداء حول أذرعنا. وأتذكّر أنّي فكّرت: ماذا سنفعل الآن؟ و لكن في حزيران 1989 بدا لي ذلك غريباً وحسب، وحزيناً قليلاً. كان بين الناس المحيطين بي كثيرون لم أرهم منذ عشر سنوات؛ كبروا كلّهم في السنّ، وكانت أصداغ بعضهم قد شابت، ولم يعد لدينا شعارات نطلقها، والهواء فارغ كما كان عندما وصلنا. وتركتُ الرصيف أمام السفارة الصينية بصحبة تلك التي كانت حياتي كلّها منذ خمسة عشر عاماً، والتي قريباً لن تعود كذلك.

8

وجدتُ عملاً في مكان قرب محطّة مترو «أوكرن»، وأنا أعملُ هناك منذ شهرين. حين أقف أمام الآلة، أرى النور يتسرّب في البهو عبر النوافذ العالية المطلّة على موقف السيّارات، وهو يرسم خطوطاً عَموديّة يجعلها الغبار الرماديّ سميكةً إلى حدّ أنّ المرء يمكنه أن يصطدم بها إن لم ينتبه؛ والمذهل أنّ أحداً لم يُصبْ بأذى حتّى اليوم. أملتُ أن يكون الهواء بين ألواح التحميل المحيطة بي، أقلّ كثافةً، وأقلّ قذارةً، ولكنّي لم أتوقّع ذلك مطلقاً. لا شكّ أنّه في حال أسوأ؛ فمن هناك يأتي الغبار.

في المساء وليلاً، تكون النوافذ سوداء. اضمحلّت الخطوط العموديّة والنور؛ إنّه يأتي الآن من النيون المعلّق بالسقف بسلاسل طويلة. انتقل الغبار كذلك؛ صار يعصف فوق رؤوسنا كقصاصات ورقٍ لامعة.

كنّا نحن أنفسنا في معظم الوقت أمام سلسلة العمل. نحن الفريق رقم واحد، كما كنت أقول، وتبنّى الآخرون هذه التسمية. ولكنْ في بعض الأيام يُفرَضُ علينا التناوب، وحينذاك لا نكون سوى رفيقين بين زملاءَ لا نكاد نعرفهم، ولم أتمكّن من الاعتياد على ذلك. كان الأمر أشبه بأن أعود بعد شهرين من العطلة، لأجدَ أبي وقد غيّر مكان الأثاث، فيتشوّش عقلي، وفي الأيّام الأولى أخطئ الطريق، وأصطدم بكنبة حين آتي من الرواق لأشاهد التلفاز مع إخوتي.

هنالك تضامنٌ أقلّ في الفريق الثاني، ممّا يخرّب التواتُر. كنت أشعر دائماً بتعبٍ أكبر في تلك الأيّام؛ لا سيّما عندما أركض حتّى العربة لأحضر لوحَ تحميلٍ آخَر، أضعه على المصاعد التي يُفترض بها أن تراعي حال ظهورنا، وأحياناً أجد محمّلي فارغاً حين عودتي. فيتوجّب إيقاف السلسلة، لأنّ دفاتر من ستّ عشرة صفحةً مليئةً بالنصوص والصور تبقى عالقةً بها بدل أن تندمج داخل النشرة المصوّرة التي نجمعها. وكان من ندعوه بـ«سوني أميركا» يُصاب بأزمة عصبيّة؛ يصرخ في وجهي ويرمِقني بنظرات قاتلة. لم يكن حسن، رئيس

فريقنا، لينظر إليّ بتلك الطريقة يوماً. كان هو «سوني» يقومان بالعمل نفسه، ولكنْ في أوقات مختلفة، ولا أفهم لماذا يرفض سوني قيادة عربته بنفسه. لماذا يجب عليّ أن أقوم بذلك مكانه؟ ولكنّي مضطرّ للاحتفاظ بوظيفتي. كان يجب أن أغضب، وأترك آلتي وأذهب للجلوس على لوح تحميل لأدخّن لفافة تبغ مديراً ظهري لـ«سوني». ولكنّ ذلك سيُعَدُّ تعطيلاً للعمل؛ وكنت أعلم أنَّ أحداً من الفريق الثاني لن يساندني. فاكتفيت بالنظر إليه شزراً.

«إيلي» هي أكثر من أتّفق معه في السلسلة. لنا الإيقاع نفسه في العمل، ونأخذ استراحة في الوقت نفسه، وكنّا ننظر إلى بعضنا ضاحكَيْن في كلّ مرّة يحدث لنا فيها أن نقوم بالحركة نفسها متزامنين، وكأنّنا شخص واحد له أربعة أذرع. وحين يكون المحمّل ملآناً، وكلّ شيء يسير على ما يرام، تلهو هي بالكلمات المتقاطعة، وأقرأ أنا بضع صفحات من كتابي. ثمّ نعاود العمل في الوقت نفسه. يشعر حسن بالسعادة عندما يرى هذا؛ كان يتصفّح نشرة مصوّرة من ورقٍ نشّاف كتابتها عربيّة. وعندما أركض حتّى العربة، تسرع «إيلي» لملء محمَّلي. ما من أحد يفعل ذلك غيرُها.

كلّ نصف ساعة، نتبادل الأماكن. خمسةٌ من محمّلاتنا مليئة بورقٍ خفيف ونشّاف، يُطلق سُحُباً من الغبار على وجوهنا. ولكنّه ناعم الملمس وصُنع «فولوم»، في النرويج. المحمّل الأخير يحتوي ورقاً مثلّجاً، ثقيلاً وقاسياً، صُنع «كيركنيامي» في فنلندا.

في كلّ مرّة نتبادل فيها الأماكن، تضربني «إيلي» بوركها ضربةً يمكن لها أن ترمي بي ليصطدمَ رأسي بأحد ألواح التحميل، وأطيّرَ الورق في كلّ الاتجاهات. كان وركها يترك بصمته على فخذي، فتضحك وأضحك، ويرفع حسن ذراعيه إلى السماء هازّاً رأسه.

في بعض الأحيان، عندما أضيق ذرعاً بـ«سوني» وفي أثناء غيابه، أقلّد لكنته الأميركية الثقيلة، وهي لكنةٌ جنوبيّة لم يفلِح في التخلّص منها. ولأنّني موهوب كنت أنجح في ذلك. لكنْ بعد ساعات، بعد الانتهاء من العمل، عندما أنزل حتّى مترو «أوكرن» عبر الطريق المحاط بالمصانع، كنت أشعر بالخجل من نفسي. كان يجب أن أعمل على توحيد الطبقة العاملة، لا أن أخلق انقسامات في صفوفها؛ هذا هو منهج الحزب. والعدوّ ليس «سوني أميركا».

عملتُ خلال الليل، ووقفت أنتظر على الرصيف. وصلت مقطورة مترو في الجهة المقابلة، فرِغت ثمّ امتلأت من جديد، استغرق هذا بعض الوقت، ثم عاودت الذهاب. نزل سيلٌ من الركّاب في هذه المحطّة، كانوا متدثّرين بسترات محشوّة، أو معاطف داكنة، وسترات من التويد أو صدريّات صوفيّة،

ولديهم أوشحة حول العنق، ويلبسون كفوفاً أو قفّازات، وهم جميعاً ذاهبون إلى إحدى منشآت القطاع. المصانع عديدة هنا، أكثر منها عند محطّات «غرورودالن» الأخرى.

عندما اكتظّت السلالم بالقادمين، ظهرت فتاة شابّة من مخبئها. رأيتها مرّات عدّة قبل ذلك. لا شكّ في أنّها نزلت من القطار الذي غادر المحطّة للتوّ، ولكنّها بدل أن تتبع الجمع الذي يصعد السلالم، ويجتاز الأبواب الصغيرة وينتشر في الفناء، انسلّت خلف البناء الحديديّ ذي السقف المستدير كسقف معبد صينيّ. ثم ظهرت من جديد، واقفةً على طرف الرصيف، منتظرةً المقطورة التالية. في إحدى المرّات رأيتها تمسح فمها بكمّ معطفها الأزرق، أو بالأحرى ردائها؛ بدا قصيراً عليها ولا أظنّ أنّه يدفئها. كان لديها غرّة و شعر طويل أشقر كشعر «جوني ميتشيل» على غلاف ألبوم (blue) ولكنّها أصغر سنّاً. ثمّ وصل قطاري. فُتِحت الأبواب، فصعدتُ، والتصقتُ بالنافذة المطلّة على الرصيف المقابل. ظللْتُ أحدّق إليها حتّى انطلق القطار، والتفتَتْ عندما انتبهتْ إلى ذلك.

حدث ذلك مرّات عدّة، وأنا عائد بعد تأديتي ساعات عمل إضافيّة؛ في كلّ مرّة تظهر من خلف المخبأ، بمعطفها الأزرق ذي الأكمام القصيرة جدّاً. كانت تبدو متجمّدة من البرد، وتنتظر القطار التالي، وتلتفت حين ترى أنّي أنظر إليها.

ينتبه المرء إلى أمور كهذه أحياناً في الصباح الباكر إذا كان يجيد الملاحظة، وأمكن له أن يستخلص نفسه من الضجّة المحيطة؛ لا سيّما إذا كان متعباً إلى حدّ يعيقه عن التفكير في أكثر من أمرٍ في الوقت نفسه.

توقَّف القطار عند ساحة «كارل برنرز»، وهي المحطّة الزرقاء؛ كانت «تواين» خضراء، و«غرونلاند» صفراء، أو بالأحرى سمراء فاتحة، وهكذا دواليك بناء على منطقٍ ليس بمنطق. كان غياب المنطق هذا يثير حَنَقِي، ووَدِدْتُ لو كان هنالك شيءٌ منه بدل هذه اللامعقوليّة النرويجيّة بكلّ ما للكلمة من معنى: لكان لذلك ميزة أوروبيّة، قارّيّة. بينما نجد هنا فجأة محطّة بلون الباطون الرّماديّ محشورة بلا سبب بين محطّات ملوّنة؛ و تبدو خاماً غيرَ مكتملة، ولها حيطان خشنة ورطبة، وعليها أن تبقى على هذه الحال، لأنّ أحدهم رأى أنّ لذلك صبغةً فنيّة.

في كلّ الأحوال، الأمرُ ليس مهمّاً. نزلت في ساحة «كارل برنرز»، المحطّة الزرقاء. كنت عائداً إلى بيتي بعد أن عملت لستّ عشرةَ ساعةً

متتالية؛ الساعات الإضافيّة تدرّ كمّيّة لا بأس بها من المال، ولكنّي متعب إلى حدّ الترنّح. في الساعات الأخيرة قبل الانصراف، لا يمكننا الوقوف إلّا بصعوبة؛ وتُضحكنا النكات الأكثر سخافة، وتبدو لنا رؤوسنا خفيفةً كبالونات الهليوم. كان جسمي رخواً كالمطّاط، ولكنّي أحبّ هذا، أحبّ هذا التّعب، كنّا جميعاً متعبين.

غادرتُ الرصيف بخطوات غير واثقة. كان هنالك طابور واقف أمام الكشك، من أناس متوجّهين إلى العمل، على العكس منّي، ويأخذون صحفاً ونشرات مصوّرة ومرطّبات. انتظرت دوري، ثمّ ابتعت جريدة «داغبلادت» اليوميّة. شعرت بأنّني مهمّ على نحو مذهل؛ ولم يكن جسمي كأجسام الناس المحيطين بي. أنا من أولئك الذين يديرون الآلة، أربعاً وعشرين ساعةً على أربع وعشرين إذا اقتضى الأمر. مشيت نحو المخرج بخطوات وقورة وحذرة، ثمّ اجتزت الأبواب المصنوعة من الزجاج المسلّح؛ في الخارج كان الليل لا يزال مخيّماً والجوّ بارداً جدّاً، فقد اقترب الشتاء. أكملت طريقي حتّى الساحة، ثمّ استدرت يساراً وقطعت المسافة القصيرة من شارع «تروند هايمسفاين» صعوداً قبل أن يتفرّع نحو وسط المدينة، وعند التقاطع، توجّهت نحو «فينماركغاتا»، حيث شقّتي الصغيرة في الطابق الأوّل من أحد المباني.

صادفتُ شخصاً أعرفه في ممرّ المشاة، وتوقّفنا في منتصف الطريق، إنّه رجل يكبرني سنّاً، بعشر سنوات تقريباً، وكنّا عضوين في الحزب نفسه. اسمه «فرانك»، وهو عامل مؤهّل، يعمل في مصنع قرب «هاسل»، أمضى فيه كلّ سِني عمره، راشداً؛ حاله ليس كحالي، فليس لديَّ سوى شهرين من الأقدميّة في عملي الجديد. ولكنّ «فرانك» ليس اسمَه الحقيقيّ، بل اسمه الحربيّ، و أنا لا أعرف اسمه. أنا اسمي «آرن»، و يُفترض أن يحلّ مكان «أرفيد»، ولكن بما أن للاسمين مقطعين لفظيّين، ويبدآن بحرف الألف، كنت كثيراً ما أخطئ. أنا ذو مظهر بشوش (خلافاً لمعنى الاسم)، ولكنّي أنا من اخترتُ هذا الاسم الحربيّ و بدا لي تغييره صعباً.

- مرحباً يا رفيق، قال. أأنت ذاهبٌ إلى العمل؟

- كلّا، أنا عائد. عملتُ ليلاً. أنا أسكن هناك.

أريته النافذتين المطلّتين على التقاطع، فاستدار ليلقي نظرةً، ثمّ التفت إليّ.

- ساعات إضافيّة، إذاً؟

رددتُ بالإيجاب، إنّني عملتُ ساعات إضافيّة وإنّني متعب جدّاً، فقال إن هذا جيّد، لأنّه ليس هنالك ما هو أفضل من الساعات الإضافيّة الليليّة، لتوطيد

الروابط بين العمّال؛ لأنّ ذلك يعزّز روح التكافُل، وهكذا يصبحُ من الأسهل على المرء أن يكون شيوعيّاً.

- لا شكَّ في أنَّك محقّ، قلتُ.

ولكنْ، لأكونَ نزيهاً بكلّ معنى الكلمة، يجب أن أعترف بأنّني نسيت أن أكون شيوعيّاً في تلك الليلة. لقد تجوّلت وأنا أروي النكات أثناء الاستراحات، كالجميع. وعندما كان حسن يبذل جهده، مستخدماً أدواتٍ مسطّحة وهو يلعنُ ويضربُ بشدّة لأنّ نشرةً مصوَّرةً لم تطوَ جيِّداً، قد علِقَت وسدّت الزنانير والتُروس؛ استغللنا الأمر لنلعب كرةَ القدم أمام الشاحنات، بكرة كبيرة صُنعت من خرق برتقاليّة مثبّتة بالأسلاك المطّاطيّة والخيوط، كما كان يفعلُ الأطفال في الأراضي البور قبل الحرب. لقد أُجريت مباراة كأس العالم لكرة القدم في ذلك العام، و كنّا لا نزال نشعر بالحماس في سيقاننا، علماً أنّ هولندا خسرت أمام ألمانيا في الدورة النهائيّة.

انحدرت سيّارة نزولاً على الطريق وهي تزمّر بغضب؛ الضوء غدا أخضرَ ونحن في منتصف الطريق.

- نَمْ جيّداً واستيقظ بإرادة متجدّدة، قال «فرانك»، الذي لم يكن اسمه «فرانك».

قلتُ إنّني سأحاول. ثمّ تابعَ طريقه وتابعتُ طريقي، وأمكن للسيّارة المرور. اجتزت باب مدخل بنايتي، واتّجهت نحو درج الفِناء. ثمّ صعدتُ إلى الطابق الأوّل وأدخلتُ المفتاح في القفل.

كان الصمتُ في الشّقَّة مطبقاً، وهنالك رائحة غُبار. وكان رأسي ما زال يطنّ، وذبذبات الآلة لا تزال في جسدي؛ وتُحدِثُ قرقعةً في صدغي وصفيراً في أذنيّ. إذا ما خلدتُ مباشرةً إلى سريري، فلن يؤاتيَني النوم.

كنتُ أرغبُ في فنجان من القهوة، ولكنّ ذلك سيزيد حالي سوءاً. فتحت الثلّاجة لأتناول البيرة، نصف زجاجة فقط، ولكنْ لم يكن هنالك بيرة، ولم أكن أرغب في عصير الفاكهة. شربتُ كأساً من الماء، وجلست أمام الطاولة ووضعت جبيني بين يديّ. ثمّ أغمضتُ عينيّ وكففتُ عن الحركة. أحياناً أقع فريسة فكرة أنّنا نصنع شيئاً لا فائدةَ منه مطلقاً، ومرهِقاً، ولكن ليس لذلك أهمّيّة، فالمهمّ هو العمل.

نهضتُ أخيراً. ذهبت إلى غرفة الجلوس وتناولتُ الكتاب الذي كنت أقرأه في ذلك الوقت، «عند تقاطع الحضارات» لـ«جان ميردال»؛ وهو يتحدّث

عن أفغانستان، حيث تلتقي الخطوط من الشرق إلى الغرب، ومن الغربِ إلى الشرق، ويتكلّم عن قوافلَ من العلم وأغانٍ لا تكادُ تُسمَع في الهواء النادر الوجود. عدتُ للجلوس على طاولة المطبخ واستغرقتُ في الكتاب. كانت سماءٌ تنيف على الجُمل، وينبسطُ العالم بكلّ اتّساعه، نحو الماضي ونحو المستقبَل؛ القصّة تدفّقٌ هائل نحن جزء منه. في كلّ البلدان، الناس لديهم الرغبات نفسها، والأحلام نفسها؛ يحيطون بالأرض صانعين دائرةً، ويمسك بعضهم بأيادي بعض.

عدتُ إلى غرفة الجلوس. وأنا أخلع ثيابي، ألقيتُ نظرةً على «ماو»، الذي كان هناك بين «بوب ديلان» و«جوني ميتشيل». ثمّ اندسستُ تحت اللحاف. قرأتُ صفحتين أو ثلاثاً، ثمّ شعرت بعينيّ تغمضان، فوضعتُ الكتاب. الآن يمكنني النوم، قلتُ في نفسي، لقد صار الأمر ممكناً، وسيكون كلّ شيء على ما يُرام.

9

غادرتُ كنبة النوم القديمة وتوجّهتُ نحو النافذة. لقد شقَّ وطء بالأقدام لسنوات عديدة ممرّاً عبر أجمة الصفصاف التي تفصل أرضنا عن أرض «هانسن». رأيت ظهرَ أمّي وظهر جارِنا يغوران فيه، كما غُرتُ فيه منذ عشرين عاماً مع تلك المدعوّة «إنغر»، لنذهب ونداعب بعضنا في منزلها عندما تكون وحيدة في المنزل. ظننتُ بأنّ كلّ شيء سيستمرّ هكذا، حتّى اليوم الذي وصلتُ فيه في بداية الصيف لأكتشف أنّهم قد باعوا الشاليه. لم أنتبه يوماً إلى ما يطرأ من تغييرات، إلّا في اللحظة الأخيرة؛ لم أكن أعرف أنّ مَيْلاً يمكن أن يطمسَ آخر، كما يقول «ماو»، وكنت أجهل أنّ التيّارات العميقة يمكن لها أن تحوّل منحاها في اتّجاه لم نتوقّعه. وعندما لا نستطيع الالتفاف في الوقت المناسب، نجد أنفسنا وحيدين منزوين.

توجّهتُ نحو الباب، حيث تركتُ جزمتي. انتعلتها، ثمّ وضعتُ معطفي وخرجتُ. استدرتُ حول الشاليه وصولاً إلى الصنوبرة القديمة المنحنية. وكان هنالك ثلاث صنوبرات قبل عشرات السنين، ولكنّ عاصفة شتويّة اقتلعت اثنتين منها، وأمضى والدي صيفاً بأكمله يقطّعهما حطباً، كوّمه أمام مستودع الأدوات، مربوطاً بعناية ومغطّى بصحيفة معدنيّة متموّجة. أمّا الصنوبرة الثالثة فقد قاومت؛ ولم تستطع أيّ ريح أن تقضي عليها. لقد نمت وطالت وأصبحت اليوم، سامقةً حقّاً بالنسبة إلى صنوبرة دغليّة، وأصبحت أغصانها كثيفة. كانت أغصانها تخيّمّ على الجزء من الأرض المطلّ على شاليه هانسن؛ وتسلبنا الشمس المسائية، وتحفّ أغصانها السفلى بسقفنا عندما تهبّ الرياح البحريّة. كانت أمي ترغب في أن نقطعها. وهي تكرّر ذلك منذ سنوات؛ يجب قطعها؛ لا يجب أن يبقى منها ولا جِذْمة، ولا حتّى بُراية. ولكنّ الوقت مرّ وتكاسل أبي؛ لم يعد يافعاً، وأفهم تلكّأه.

مشيتُ على طول أجمة الصفصاف، مارّاً أمام الشقّ المطلّ على أرض «هانسن»، وأكملتُ سيري عبر الطريق ذي الحصباء. انتبهت إلى أنّني أسلك الطريق نفسه الذي سلكته من قبل؛ بدا لي ذلك مثيراً للسخرية، وكأنّني أتحرّك في دائرة، غير قادر على فعل شيء غير تكرار نفسي.

توجّهت امرأة عجوزٌ صوبي راكبةً درّاجة، ولديها حقيبة بنّية معلّقة في مقودها، وسرعان ما عرفتها. هي أمّ لفتاة اسمها «بينتي»، كان أخي قد عاشرها. ليس الكبير، ولا الأوسط، بل الذي يتلوني مباشرةً، وقد توفي منذ ستّ سنوات. حيَّيتها باقتضاب، ولكنْ أظنّ بأنّها لم تعرفني، أو أنّها لم تُرِد ذلك؛ اكتفت بمتابعة طريقها على درّاجتها السوداء، الدانمركيّة. كانت تملك كذلك، وعائلتها، شاليهاً قريباً من هنا. هم يعيشون في جنوب المدينة، على بعد ساعة بالدرّاجة.

بعد خمسة عشر أو عشرين متراً، في محاولة رعناء للفرملة، وَضَعتْ رجلَها فجأةً على الأرض. كادت تنقلب ودرّاجتَها، وحقيبتها ومتاعها كلّه. ثمّ التفّت نصفيّاً، واضعةً يداً على المقعد.

- أهذا أنت يا «أرفيد»؟ قالت بصوتٍ قويّ.

السيّدة «كاسبرسن»، هكذا كانت تُدعى. «إلسي ماري كاسبرسن». ولكنّنا لم نستخدم أسماءها الأولى يوماً.

اقتربتُ منها وتوقّفتُ أمام مقودها.

- نعم، بالطبع. هذا أنا.

- أنتَ هنا؟ وأمّك كذلك؟

- نعم.

- كثيراً ما أفكّر بها. كيف حالها؟

- هي بخير. في أحسن حال.

- هذا أمرٌ جيّد.

كانت تنظر إلى دوّاسات درّاجتها.

- هو أمرٌ محزنٌ، ما أصاب أخاك. صبيّ بهذا الجمال.

أخي؛ أيّ أخ؟ فكّرت. نسيتُ أخي. ولكنْ لم يكن ذلك صحيحاَ. أنا لم أنسه.

- أتعلم، كنت أرجو أن يكون لي صهراً.

- كنت أعتقد أنّ «بينتي» هي التي لم تعد تريده.

- أحقّاً؟ ألم يكن هو الذي قطع العلاقة؟

- لا أعتقد. ليس هذا ما أتذكّره، على كلّ حال.

- ربّما أنت على حقّ. لا أعرف. و لكنّه كان يعجبني صِهراً.

- أعرف.

- إنّه لأمرٌ حزين، ما حدث.

- نعم، إنّه لأمر حزين.

ولكنّي فكّرتُ بغير ذلك أيّتها العجوز الفاجرة. ماذا تعرفين عن كلّ هذا؟ ماذا تعرفين؟ لا شيء. لا شيء مطلقاً.

- أذكر ذلك كما لو كان البارحة.

- كان ذلك منذ ستّ سنوات.

- مضى كلّ هذا الوقت؟

- نعم.

هزّت رأسها وهي تعضُّ شفتيها، لا بدّ من أنّها تفكّر بابنتها. ربّما «بينتي» تعيسة، ربّما تزوّجت أحمقَ. ربّما كان عليها أن تختار أخي. ولو اختارته لما مات.

- أوه حقّاً، الماضي هو الماضي؛ ولا يمكننا فعل شيء. ولكن بلّغ أمَّك سلامي. قل لها إنّي سأذهب لرؤيتها، إنْ بقِيَتْ بضعةَ أيّام أخرى.

لا أنصحُكِ بالتوجّه إلى هناك، فكّرتُ. لا أنصحُكِ بذلك أبداً.

- بالطّبع. لن أتوانى عن ذلك، قلتُ.

أفرحها ذلك. ثمّ رسمت على وجهها تعبيراً قلِقاً.

- لا يجب أن أتأخّر. الطقس بارد، فنحن في تشرين الثاني/نوفمبر.

- هذا صحيح. نحن في تشرين الثاني.

- إلى اللقاء يا «أرفيد».

- إلى اللقاء، سيّدة «كاسبرسن».

ابتعدت على مطيّتها السوداء. وانتظرتُ أن تغيب خلف شجر النسرين، وأكملتُ طريقي حتّى الشاطئ.

جلستُ في المكان عينه الذي جلستُ فيه من قبل؛ حيث وجدت في الصباح نفسه أمي. وأنا أنظر حولي، لاحظتُ أنّ كتلة نباتات الأسل قد كبُرت مساحتها إلى حدّ أنّه لم يعد بالإمكان السباحة في هذا الجزء من الشاطئ، إلّا إذا ما حضّر المرء ساطوراً. هنالك نهرٌ يصبّ في البحر اذا ما ابتعدنا قليلاً باتجاه الشمال ويستمرّ في انهماره تيّاراً تحت مائيّ على طول الضفّة. الماء أُجاج هناك، والنباتات غيرها على باقي الساحل. عندما كنت صغيراً، أقمنا جسراً خشبيّاً فوق النهر ليمكننا الوصول إلى أجمل أماكن السباحة من دون أن نبلّل أقدامنا، ولكنّي لا أرى أيّ أثرٍ له الآن. صار يجب الاقتراب من المدينة و شواطئها ليمكن السباحة.

أغلقتُ عينيّ وغمّست يديّ في الرمل. قلتُ في نفسي: يجب أن أبقى هكذا، من دون حركة. ثمّ تعرّفتُ الرائحةَ، وأحسستُ على جلدي بهذا الهواء الذي كنتُ أحسّه دوماً، عاماً بعد عام، في هذا المكان بالتحديد، ولكنّ إحساسي لم يكن في أيّ يوم من الأيام، كذاك الذي انتابني وأنا في السابعة من عمري: في ذلك الوقت، كان الفصل مختلفاً، والشاطئ مختلفاً، خالياً من نباتات الأسل، والعُلّيقات، كان كلّ شيء أكثر أفقيّةً، متوازيةٌ خطوطه متلاحقةٌ على مدى النظر حتّى البعيد، حيث تتصاعد الغيوم دخاناً. وكنّا هنا، على سفح التلال، ولمَّا تبدأ الستّينيات بعد. في الشرق، في المقابل تماماً، كانت الجزيرة ذات المنارة. طَفَت ضبابة فوق سطح البحر و كانت المنارة مطفأة، ولكن يمكنني أن أحدّد مكانها في أيّ وقت، فقد كانت دائماً على مرمى بصري.

كان نهاراً حارّاً جدّاً، وهنالك تصَّعدُ روائح لاذعة لأعشاب بحريّة جافّة، وقناديل بحرية تتحلّل تحت النور الباهر. وهنالك رائحة البحر، والعطر الواخز للعلّاق، و النكهات الحلوة لزجاجات عصير الليمون المفتوحة حديثاً. وأنا نحيفٌ، وخصلات شعري بنّية، أحفر الرمل الداكن اللون والرطب برفشٍ صغير،

محاطاً بإخوتي الشقر، ذوي الأجسام الرياضيّة. كانا اثنين فقط في تلك الحقيبة؛ كانا لطيفين، لكنّهما يحتلّان مساحة كبيرة. ففي كلّ مرّة ألتفت فيها، أجد أحدهما في مكان غير بعيد.

اقترب رجلٌ على الممرّ متّجهاً نحو الشمال. كان رافعاً أسفل بنطاله، وكانت ساقاه بيضاويتين كالطبشور. عندما مرّ أمامنا، لم يكفَّ عن التحديق إلينا. توقّف على بعد عدّة أمتار، ثمّ خفض نظره نحو أمّي، الجالسة على بساط اسكتلندي، و في يدها لفافة تبغ. ولما كانت غير خائفةً من السرطان بعد، فلا بدّ من أنّها سيجارة «كارلتون». في اليد الأخرى حملت كتاباً لـ«غونتر غراس»؛ إنه كتابٌ ضخمٌ أرسل إليها من ألمانيا، كما أذكر. لا بدّ أنّه «الطبل»، الذي صدر حديثاً وأحدث ضجّةً. كانت ملوّحةً بالشمس وترتدي زيّ بحر أحمرَ موشّى بخيوط زرقاء؛ أتذكّره جيّداً، له مظهر مغضَّن كقماش الكريب، وكغبنات الثوب المصنوعة بدقّة، وكثيراً ما حلمت به.

- اسمحي لي بأنْ أحيّيك، يا سيّدتي، قال الرجل بصوت قويّ. كم هو كريم من جانبك أن تسمحي للاجئ صغير أن يمضي عطلته في كنف عائلتك.

هكذا عبّر عن نفسه و باللغة الدانمركيّة. ولكنّا فهمناه بسهولة، وفهمنا كلّنا أيَّ طفلٍ يقصد. مع أنّي لست صغيراً إلى هذا الحدّ. التفت الآخرون ليتفحَّصوني وبدا إخوتي محرجين، لا أعرف لماذا. لقد احمرّت وجنتاهما في كلّ الأحوال، وبدا لي أنّ أميّ رسمت ابتسامة مُكرهة. ولكنّها لم تُجب، ورفع الرجل قبّعته. أنا متأكدٌ أنّها كانت قبّعة من القشّ، باناما، لها شريط أسود. ثمّ أكمل طريقه متبختراً، ويداه وراء ظهره، وحافي القدمين، فخوراً بنفسه، و بهذه المرأة الشديدة الوقار الممدّدة على بساطها، وفرحاً بملاحظةٍ بدت له صحّتُها مؤكّدة. ومع ذلك: ما هو البلد الذي يمكن أن أكون قد هربت منه؟ كوريا، ربّما، أو السهوب العالية في التيبيت؟ لكنّ ملامحي ليست آسيويّة. ولا يمكن كذلك الظنّ أنّني جزائريّ صغير، فأنا لست أسمرَ و إن كانت الشمس قد لوّحت بشرتي. لا بدّ من أنّي أتيت من هنغاريا إذاً، بسبب الأزمة الاقتصاديّة هناك. تعدّدت الخيارات في الواقع، وربّما لم يفكّر هذا الرجل ببلدٍ محدّد؛ لقد رأى أنّي مختلف وحسب، وأنّي لا أشبه إخوتي. وفي تلك الحقبة كانت هذه الإجابة الوحيدة الممكنة عن السؤال الذي طرحه على نفسه: إنّني لاجئ صغير مؤكّداً. ولا ريب في أنّه من أولئك الناس الذين لا يمكنهم الصمت.

ليته لم يقل تلك الكلمات، في ذلك اليوم على الشاطئ، لأنّي لم أنسها مطلقاً. مع أنّني صرتُ أُشبه أبي في النهاية، ومع أنّه أكّد لي دائماً أنّني طفلٌ مرغوبٌ به، والوحيد الذي بُنيت آمال على ولادته، كان ذلك يؤكّد شكوكي: مكاني في كنف العائلة ليس طبيعيّاً بالقدر الذي تمنّيته.

بعد مرور الرجل، فقدتُ رغبتي باللعب، مع أنّنا بقينا وقتاً لا بأس به على الشاطئ بعد ذلك. أشعلت أمّي لفافة تبغ جديدة، وعادت للاستغراق في كتابها، ولكنّي رأيت من المكان الذي كنت مقرفصاً فيه أنّها لا تقلب الصّفحات. ثبطت عزيمتها، وأضحَت غير قادرة على التركيز، ولا شكّ في أنّها قرأت وأعادت قراءة السطور نفسها لا أعرف كم من المرّات. أو أنّها لم تكن تقرأ واكتفت بالتحديق إلى الصفحات المطبوعة. شعرتُ بضيق، فليست الأمور كما يجب أن تكون، ولكن ما كان بإمكاني فعل شيء غير التظاهر بإكمال لعبة لم تعد تهمّني.

لكنّي تعلّمت شيئاً في ذلك الصّيف، وهو الصيف الأخير قبل نهاية الخمسينيات وبداية الستّينيات، الصّيف الأخير قبل تشييد الحائط بين الشرق والغرب: عندما يضطرّني الأمر، أنا قادرٌ على تلقّي الإهانات. أن أتلقّاها، وأن أتجرّع ما يجرحني، وأتظاهر أنّ شيئاً لم يكن، بحيث أنّي استمررت في محاكاة لعبة صارت بلا معنى. قمت بكلّ الحركات مرفقاً إيّاها بكلّ التعابير اللازمة. ولا بدّ من أنّ من رآني ظنّ بأنّ لنشاطاتي معنى، بينما كانت خاليةً منه.

هنالك ممرّ ضيّق لا يزال يُشقُّ في الرمل حتّى المكان الذي كان فيه الجسر، ويمرّ بمحاذاة الأسلات و يتعرّج في بعض الأماكن بين النباتات. وقفتُ، وكنت في السابعة والعشرين من عمري، نزعت الرمل عن بنطالي و سلكتُ الممرّ. وبعد وقتٍ لم أعد أرى المنارة ولا البحر، بل أرى فقط الجذوع الضخمة المنتشرة على الجانبين؛ كحائط من الخيزران، على ضفاف «يانغزي جيانغ»، في الصّين. في تلك اللحظة قرّرت أن أكون صينيّاً؛ مشيتُ طاوياً ركبتيّ كجنديّ منهك بعد أن واجه الاجتياح الياباني. أو كالشاعر «تو فو»، منذ قرون خلت، في أحد أسفاره الطويلة، المحفوفة بالمخاطر.

في منعطفٍ للنهر أمامي، رصيف ميناء خشبيّ منزوٍ، وثلاثة مراكب مربوطة هنالك، واحد أحمر، وواحد أخضر وآخر أزرق، والمجاذيف موضوعةً على المقاعد. لم أرَ أحداً، لا على اليابسة ولا في البحر، لا شيء سوى الممرّ والأسلات ومرجة عشب صغيرة أمام رصيف الميناء، فصعدت إلى المركب ذي القعر الجاف، ثمّ استويت على مقعد التجذيف في الوسط، مديراً ظهري لرصيف الميناء وللضفّة. ولم ألمس المجاذيف، بل اكتفيت بالجلوس هنالك، من دون حراك، متأمّلاً النهر. ماؤه أخضر وأملس كمرآة، لم يكن على هذا النحو في يوم من الأيام، ولم أشعر يوماً بالاكتئاب إلى هذا الحدّ.

لا أعرف كم من الوقت بقيت هناك، ولكن عندما نهضتُ لأعاود الصعود إلى اليابسة، كنت أرتعد من البرد. باعدتُ بين ساقيّ لأصل إلى رصيف الميناء، ولكن على الرغم من الجهود التي بذلتها لنقل ثقل جسمي، أمكنني بصعوبة

لمس حافّته بطرف قدمي. انتهى بي الأمر إلى الانزلاق، ووجدتُ نفسي في الماء، عالقاً بين المركب والجسر العائم. اصطدمت رقبتي بالحافّة، ولمعت شرارات في عتمة دماغي وأرعبني الألم. عندما فتحت فمي لأصرخ طالباً النجدة، شَرِقْتُ بالماء الأُجاج. كانت سترتي مبلّلة، وشدّتني كنزتي المثقلة نحو الأعماق، ولَم أتوقّف عن العطس وتحريك الماء محاولاً السباحة. ولكن لم يكن هنالك مكان كافٍ. ثمّ تذكّرت أنّه يفترض أن أتمكّن من الوقوف حيث أنا. وعندما وقفت، كان الماء بالفعل يصل إلى الصدر. ولكنّي لم أتمكّن من تسلّق الجسر العائم، فالمكان ضيّق جدّاً، والحركة فيه غير مريحة. في النهاية، تخلّيتُ عن كبريائي؛ أخذت نفساً عميقاً، وغطستُ تحت المركب. مشيتُ على أربعٍ على القعر الرمليّ، ونجحتُ في الوصول إلى الجهة المقابلة و تسلّق الجسر العائم. حيثُ بقيتُ متمدّداً على طولي، حتّى جعل البرد أسناني تصطكّ، وأجبرني على النهوض.

كان لديّ احتمالان للخروج من هذا المأزق. أنْ أعود من حيث أتيت، أو أسلك الممرّ صعوداً حتّى البيوت التي يعيش فيها المراكِبيّون. ولكنّي لم أرغب في أن يراني أحد في الحال التي كنت فيها؛ فانطلقت عبر المرج الصغير وانسللت بين الأسلات. لم يعد وارداً أن ألعب دور الصينيّ، فركضت حتّى الشاليه من دون توقّف. كانت جزمتي تحدث صوتاً لامتلائها بالماء؛ مررت أمام المستودع، وتجنّبت الصنوبرة التي تحجب الشمس، واستدرت عند زاوية الشرفة. كان الباب مفتوحاً، ورأيت أميّ واقفة عنده، وحيدةً، ورأسُها محنيٌّ ويداها في شعرها. عندما سمعتني انتصبت، واستندت إلى إطار الباب. حملقت فيّ بطريقة غريبة، وكأنّني رجل من القمر، أو لا أعرف من. ثمّ نظرت في عينيّ مباشرةً.

- قل لي يا «أرفيد»، من أين أنت قادم؟

كان الماء يسيل من سترتي، ومن شعري. التفتُّ وأشرت نحو الطريق، نحو البحر القابع خلف الأشجار.

- من هناك.

هزّت برأسها.

- أوه يا إلهي. أنا لا أتكلّم عن هذا.

- أحقّاً؟

تأمّلتها طويلاً. لم تبدُ بحالة جيّدة.

- إلام تنظر هكذا؟

- إليكِ. أنظر إليكِ.

- توقَّفْ، قالت.

ثم اختفت داخل الشاليه.

10

هذا ما دار في خلد السيّدة «كاسبرسن»، وما ظنّت أنّ من الجائز أن تذكّرَني به:

في صبيحة أحد الأيّام، اتصّل بي أخي الأكبر في عملي ليقول لي إنّ عليّ الذهاب إلى مستشفى «أوليفال» فوراً.

كان الأمر يتعلق بأخي الآخر، الذي يليني، والذي ودّت السيّدة «كاسبرسن» لو يكون صهرها. في تلك الحقبة، عملتُ في مكتبةٍ في وسط أوسلو، قرب المعرض الوطني. وقد مضى عليّ عامان هناك. قبل ذلك، عملتُ في دارٍ تطبعُ نشرةً مصوّرة، ومجلّة أسبوعيّة ضخمة؛ وأمضيت خمس سنوات أمام سلسلة الإنتاج. ظننتُ أنّني مضطرٌّ إلى ذلك، ولكنّي كنتُ مخطئاً.

كنتُ قد اجتزتُ الباب للتوّ عندما سمعت رنين الهاتف. أشعلتُ النور، ثمّ انحنيتُ فوق الطاولة لأجيب، محشوراً بين رزمتين من الكاتالوجات التي أرسلها ناشرون إنجليز وأميركيّون. كلّ يوم، ما عدا الأحد وسبتٌ من اثنين، أغادر شقّتي، وأركض بين المباني لألحق الحافلة وأجلس فيها، فرحاً ومرتاحاً. ثمّ أنام حتّى مركز أوسلو، مستنداً إلى زجاج النافذة الطنّان. بشكلٍ عام، أنا أوّل من يصل إلى العمل، وما توانيتُ عن العمل يوم الأحد كذلك. كنتُ استمتع في هذه المكتبة كما لم أشعر في أيّ مكان آخر. تلك المرّة الأولى مذ صرتُ بالغاً، التي أستيقظ فيها من دون أيّ ألم في جسدي، وأنا أفكّر أنّي ذاهب إلى العمل. كنت أشعر بسعادة لا توصف، واستغرقت وقتاً طويلاً لأفهم أنّ السّبب ليس العمل وحده، بل كذلك لأنّ بإمكاني صفقَ باب شقّتي كلّ صباح، والتنفّس بحريّة والذهاب.

الذهابُ من المكتبة إلى مستشفى «أوليفال» ليس أمراً معقّداً. يكفي الركض حتّى «بيليستريديت»، على مسافة مبنى، والصعود في أيٍّ ترامٍ

متوقّف هناك. بعد ذلك، يكفي ربع ساعةٍ للوصول إلى المستشفى.

كنّا في بداية الخريف والسماء صافية. وأنا ملصقٌ وجهي بنافذة الترَام، رأيت مستغرباً، نورَ الشمس يصبغ المباني بلون أصفر مُتَوهَّم، كما الإضاءة على المسرح؛ إنها إضاءةٌ قادمةٌ من مَنْوَرٍ خارجِ مرمى بصري. لا أذكر يوماً أنّي رأيت نوراً مدهشاً إلى هذا الحدّ في عالم الواقع، ولكن لا بدّ أنّ ذلك قد حصل.

لم أكن أجهل ما ينتظرني في نهاية المطاف، ولكنّي تجنّبت التفكير في الأمر. ما زال لديّ ربع ساعة طويلة، يمكنني تكريسها لأمر آخر. يمكن لحيوات بأكملها أن تكون في الربع ساعة هذا، ككونٍ قابلٍ للتمدّد، وكلّ ما فيه لا متناهٍ. مع أنّني كنت على يقين أنّني بعد خمسة عشر دقيقية وبضع ثوانٍ، بعد عدد معيّن من المحطّات، سأصل إلى مستشفى «أوليفال» ويجب عليّ النزول، وقطعُ مئات الأمتار على رصيف «كيركيفاين»، والاستدارة إلى اليسار تحت البوّابة التي تعلوها قبّة صغيرة، والتوجّهُ إلى المبنى المحجوزِ فيه أخي الثاني في مكان ما في الطابق الحادي عشر.

- «وأنت خارج من المصعد، تستدير إلى اليمين وتسأل في قاعة المراقبة»، شرح لي أخي الأكبر على الهاتف. و«تلفَّظِ اسمَه بصوتٍ مسموع»، أضاف بنبرةِ تهديدٍ ليس من عادته استخدامها.

ولكنّي لم أكن متأكّداً أنّني سأتمكّن من ذلك.

كلّ هذا سيحصل بعد وقتٍ قصير. حاولت التفكير بأمر آخرَ، بواسطة الجزء من دماغي الذي اعتقدتُ أنّه ما زال قيد العمل. بدا لي أنّني إذا ركّزت سأتمكّن من التفكير في عدد لا بأس به من المواضيع، وأولّ ما خطر ببالي، ولا أعرف لماذا، هو مقطع من كتاب «همينغواي»: «باريس هي عيد»، حيث يدخل «همينغواي» وزميله الأكبر سنّاً والمشهور في ذلك الوقت، «سكوت فيتزجيرالد»، إلى حمّام مقهى في زاوية شارع «جاكوب» وشارع «السانت بير» لفحص حجم عضو «فيتزجيرالد». فقد عبّرت له زوجته «زيلدا»، عن ازدرائها، وقالت له إنّ درجة السعادة في العلاقة الزوجيّة، تتناسب وطولَ العُضو وأنّ ما لدى «فيتزجيرالد» لا يمكن له يوماً أن يُسعِد امرأة.

كان هذا الأخير محبطاً بالطبع. ولكنْ، في الحمّام، وجد «همينغواي» أنّ الأمور على ما يرام. «سكوت» طبيعيّ بكلّ معنى الكلمة، ولكن بالنظر إلى الأمور من علٍ، لا يمكننا إدراك ذلك. عليه أنْ ينظرَ إلى نفسه جانبيّاً في مرآة، ثمّ يقوم بجولةٍ في متحف «اللوفر» لتفحّص التماثيل القديمة، وسوف يرى بلا ريب أنّ المقارنة ستكون لصالحه.

ربّما لم تكن نصيحة «همينغواي» سيّئة، ولكنّي وأنا أعيد قراءة الكتاب بعد أن تخطّيت الثلاثين من العمر، في العام 1983، أي العام نفسه الذي أتكلّم عنه هنا، صدمتني النبرة المتعجرفة لذلك المقطع. بعد ثلاثين عاماً، ما زال «همينغواي» تنتابه الرغبة في إذلال «فيتزجيرالد». مع أنّ ذلك الأخير، كان في تلك الحقبة في حالة اضمحلال؛ وسيُمضي عاجلاً ما تبقّى من حياته في الكحول والنسيان، بينما «همينغواي» متوجّه نحو القمّة وسيحتلّها أمداً مديداً. يُظهر ذلك خسّة طالما صدمتني في كتبه، وبدت لي غير محتملَة لا سيّما في مشهد حمّام شارع «جاكوب»، وكأنّ الأمر يعنيني شخصيّاً. بناءً على هذا الأمر، تساءلتُ إن لم تكن أعمال «همينغواي» كلُّها تنضح بحقيقة جليّة، وهي أنّ بإمكانه أنْ يكون نذلاً حقّاً. وكان بإمكاني بلا شك الاستمرار في هذه التأمّلات لمدّة طويلة لو أنّ الترام، في تلك اللحظة بالتحديد، لم يستدر عند زاوية المباني القرميديّة الحمراء حيث مدرسة أوسلو للطبّ البيطريّ. تقع هذه الأخيرة على يمين خطّ الترام بالنسبة إلى الذاهبين نحو الشمال، في الحيّ السكنيّ المدعوّ «آدمستوين». وهو حيّ لا أتردّد عليه مطلقاً، ولما أمكنني تحديد مكانه بسهولة لو سألني أحدهم عن الطريق إليه. إلا أنّي، في العام الماضي، ذهبت إليه في سيّارة ليست لي؛ قطعتُ الطريق الطويل لمدينتي في الشمال الشرقي من أوسلو، باسطاً خريطة على المقعد قربي، ذاهباً إلى المدرسة البيطريّة، آخذاً إليها كلبةً، ليست لي كذلك، لتُحقنَ بإبرة. لا أفهم كيف قبلتُ القيام بتلك المهمّة، ولكنّي وافقت. هي كلبة يملكها أناس من عائلتي المقرّبة، ولم يعد بامكانهم الاحتفاظ بها لأسباب لا تعنيني. كنت أعرف هذه الكلبة جيّداً؛ فقد أخذتها للنزهة الصباحيّة بضع مرّات صباحاً خدمةً لأصحابها. أظنّ بأنّنا نكنّ التقدير لبعضنا، تاركين بيننا مسافةً يفرضها التهذيب؛ فأنا أعرفها مذ كانت جروة، وكنت ما أزال يافعاً. ولكنّها توتّر أعصابي كذلك؛ هي نصف كلبة صيد ونصف زئنيّة [1]، وترفض المشي تماماً كما أرغب. هي أيضاً من النوع الذي يشدّ الرسن حتّى أُستثارَ حَنَقاً. ولكنّي كنت أعرف أنّني إنْ تركتها، ستسارع إلى الهرب بعيداً جدّاً. كان هذا مزعجاً حقّاً، لا سيّما عندما أكون في عجلة من أمري لألحق الحافلة الذاهبة إلى أوسلو، وهي تضيّع وقتي، وأنا أركض خلفها بين الأيكات المحيطة بالمدينة التي كنت أعيش فيها في ذلك الحين، والتي ما زلت أعيش فيها وأنا أكتب ما أكتب. و هنّأت نفسي أكثر من مرّة لأنّي لست صاحبها.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

لكنّي عندما ركنتُ السيّارة في الموقف أمام عيادة الحيوانات المتوسّطي الحجم، كانت جالسةً بهدوء على المقعد الخلفيّ، وتنظر بانتباه من نافذة سيّارة، الـ«أوبل كاديت» الحمراء نفسها التي يأخذها فيها أصحابها للنّزهة. للمرّة الأولى، مشت إلى جانبي بهدوء عندما اجتزنا الباب لنتوجّه نحو شبّاك التذاكر، حيث كانت امرأة تتفحّصني باستياء بعينيها الزرقاوين، أو هذا ما بدا لي. وعندما سألتني عن سبب زيارتي، أخبرتها أنّني أتيت ليتمّ حقنُ هذه الكلبة.

- «حسناً» قالت خافضةً عينيها إلى الحيوان، الكلبةِ، التي استجابت لنظرتها هازّةً ذيلها بهدوء. «يمكن لك الجلوس هناك، فقبلك أناسٌ ينتظرون».

دلّتني على قاعة الانتظار، ولم يكن ذلك ضروريّاً؛ فقد عرفت مكانها.

جلستُ أنا والكلبة، ممسكاً في يدي ورقةً عليها رقم. تمدّدت الكلبة تحت قدميّ، واضعةً قوائمها على حافّة حذائي. فكّرت أنّني يجب أنْ أكلّمَها بلطف، يجب أن أقول لها بضع كلمات مواسية في الدقائق المتبقّية من حياتها. ولكن لم يخطر شيء في بالي. في كلّ الأحوال، كانت هادئةً تماماً، وربّما حالمة قليلاً. مع أنّ هنالك أناساً حولنا، يحتلّون المقاعد يميناً ويساراً، يصطحبون قططاً وهمستر [2] وحيوانات صغيرة أخرى في أقفاص.

بعد وقتٍ، أتى رجلٌ أبيض الرداء ليذيع الرقم المسجَّل على ورقتي. نهضتُ وناولتُه الرسن، وتبعته الكلبة مذعنةً. ثم عدت إلى الجلوس، مع أنّه لم يطلب إليَّ بوضوح أن أفعل ذلك. أقلقني أمرٌ: لم يسألني أحد إنْ كانت الكلبة لي فعليّاً. عندها بدا لي الموقف مربكاً وملتبساً. من يثق بهذا العالم، يمكن أن يصيبه أيّ شيء.

لم يستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق. ثمّ عاود الرجل الظهور بردائه، الذي كان لا يزال ناصع البياض. أشار إليّ بيده. نهضت من جديد، وفتح لي الباب على وسعه ليدخلني. ثمّ دلّني على باب آخر بحركة فيها شيء من الصَّلف.

- لا بدّ أنّك تريد رؤيتها.

- نعم، نعم، بالتأكيد.

بقي جامداً في وقفته، ورافعاً ذراعه، فخَطَوْتُ الخطوة التي تفصلني عن الباب وفتحته. كانت الكلبة على طاولة معدنيّة. في ذلك المشهد شيءٌ

لافت: هي مضطجعة على بطنها، وقوائمها الأربع ممدودة في الاتجاه نفسه، في وضعيّة ما أخذتها أبداً أثناء حياتها. لم أرها يوماً صامتةً إلى هذا الحدّ. الكلب الميّت أكثرُ صمتاً من بيت مهجور، ومن كنبة في غرفةٍ خالية.

- جرى كلّ شيء على ما يرام. قال الرجل ذو القميص الأبيض.

لم أُجِب. تساءلت إن كان يتوجّب عليّ أخذها، وحملها حتّى السيّارة. تخيّلت نفسي مجتازاً غرفة الانتظار، مارّاً أمام الجميع والكلبة الثقيلة الوزن بين ذراعيّ، تخيّلتُ وَبَرَها على كفّي، ورأسها المتأرجح، وأذنيها اللتين تختلجان. ولكن لا شيء في تصرّف الرجل أشار إلى أنّه ينتظر ذلك. وتالياً، تهيّأت للذهاب خالي اليدين.

- شكراً، قلت.

- نسيتَ هذا.

انتفضتُ. وناولني الرسن والطوق. فأخذتهما، ثمّ ذهبت إلى شبّاك التذاكر للمحاسبة. عندما صرت في السيّارة، وضعت الرسن والطوق على المقعد إلى جانبي، فوق الخريطة التي رسمت دائرة فوقها بقلم الحبر لتحديد حيّ «آدمستوين». أخذتُ أضرب المقود بقبضتي قائلاً في نفسي: أيّها الحقير، لماذا قبلت أن تراها؟ لماذا تجيب بنعم عن كلّ شيء؟ لماذا تعتقد أنّك مضطرّ إلى ذلك دائماً؟ صرت أضرب بعنف، كما أضرب الآن على نافذة الترام الذي اجتاز المدرسة البيطريّة، وفهمت أنَّ ربع ساعة من الحريّة لا يشبه بشيء كوناً قابلاً للتمدّد، وأنّه لا يمكن التهرّب من طبيعة الوقت، وهي أنَّه يتسلّل من بين أصابعنا ما أن نفقد الانتباه.

ثمّ وصلت إلى تقاطع «كيركيفين»، حيث يجب النزول للذهاب إلى مستشفى «أوليفال».

وأنا خارج من المصعد، خطوتُ خطوتين أو ثلاث نحو اليمين. لم أشعر بأنّي مستعدّ، فتوقّفت من دون حراك. شيء ما كان عالقاً في حلقي ولم أستطع التخلّص منه. هنالك نوافذ واسعة أمامي تطلّ على الشمال، وعلى الشرق وعلى الغرب. اقتربت منها، ثمّ وضعت جبيني على الزجاج ونظرت إلى الأسفل. شعرت بشحنة كهربائيّة في معدتي، كادت ترميني من خلال النافذة أحد عشر طابقاً أرضاً. اجتاحت حرارة لا يمكن كبتها جسدي؛ واخترقت ريحٌ عاصفة رأسي؛ ورفعت كل أنواع القذارات التي نسيت أن أنظّفها إلى قِحفي. وضعتُ يديّ الاثنتين على النافذة التي كان جبيني لا يزال ملتصقاً بها، مباعداً بين قدميّ لأستعيد توازني. وبقيت فاتحاً عينيّ، باذلاً أقصى جهدي لأبقى بلا

حراك. لو أنّ طائرة مروحيّة مرّت على ذلك الارتفاع، طائرة مروحيّة مسعفة تنقل مرضى حالتهم بالغة السوء، لرأى ربّانها وجهاً فمه مفتوح وعيناه جاحظتان، قناعاً ملتصقاً بنافذة على ارتفاع دزينة من الطوابق. أغمضت عينيَّ مطبقاً جفوني بشدّة، وتوقّف العالم عن التأرجح.

تحت، في أسفل المبنى، كان هنالك رجل، أو بالأحرى صبيّ يركض بأقصى سرعة. مرّ أمام المدخل، واختفى في زاوية، ثمّ عاود الظهور في الجهة المقابلة وقام بدورة أخرى. بدت هيئتُه مألوفة، ولكنّها من الطابق الحادي عشر بدت مشوّهة بشكل غريب، وتكاد تكون مقوّسة.

توجّهت إلى قاعة المراقبة، ومرّرتُ رأسي عبر الباب المفتوح. لفظتُ اسم أخي بصوت مسموع، وتلقّيتُ إجابة دقيقة ترافقها نظرة ملحاح. وأنا أمشي على طول الرواق، وجدتُ غرفته. فتحت الباب ودخلت.

لم يكن الأمر كما تخيّلته، فليس هنالك مرضى غيره، وغرفته لا تشبه تلك التي عرفتها في المرّات النادرة التي زرت فيها أصدقاء في المستشفى، وليس ممدّداً في سرير عاديّ. كان يتنفّس اصطناعيّاً. انتهى أمرُه، هذا واضح؛ ليس هو من يتنفّس، بل الآلة هي التي تضخُّ الهواء إلى رئتيه. لا يتنفّس ايّ إنسان بهذا الانتظام، والآلة تُحدث صوتاً، تُصدر صفيراً آليّاً مخيفاً. لا شكّ في أنّ هذه الآلة مؤلمة، لا بدّ أنّها تؤذيه، هي تعتدي على جسده، وهو ليس في حال تسمح له بالدفاع عن نفسه؛ كان أمره منتهياً، ولا يمكنه فعل شيء. ولكنّ أمّي جالسةٌ قرب سريره، ممسكةً يده بين يديها الاثنتين ولا تبكي؛ اكتفت بتكرار «بُنيّ، بُنيّ»؛ كانت مركّزة تماماً على ما يحدث، أو ما حدث من قبل؛ ومأخوذةً بكلّيَّتها، عَمِيَّةً عن كلّ شيء آخر، وابنها هو أخي الثاني، ولكنّه ليس الأصغر؛ كان كبيراً وقويّاً، ولا يشبهني أبداً، لكنْ لا بدّ من أنّ له دوراً في حياتي. ولا بدّ من أنّي لعبت دوراً في حياته كذلك، لأنّنا نعرف بعضنا منذ سبعة وعشرين عاماً؛ وعلى الرَّغم من اختلاف سنّنا وكلّ ما يفرّقنا، لا شكّ في من أنّنا تبادلنا الأفكار وتشاركنا في بعض الأمور. ولكنّي نسيت كلّ شيء. اختفت جوانبُ بكاملها من حياتي في اللحظة التي دخلت فيها هذه الغرفة في مستشفى «أوليفال»، حيث رأيت أخي موصولاً بآلته، عارياً وسجيناً كرائد فضاء في قمرته، مقذوفٍ وحيداً باتجاه مكان صغير دافئ في الكون البارد. إن كان هنالك أماكن كهذه، أشكّ في وجودها بشدّة. لا أذكر شيئاً. لا أذكر أيَّ تواطؤ بيننا؛ ليس منذ مدّة قريبة على كلّ حال، ولا عندما كنّا طِفلين. ومع ذلك، ليس هذا ممكناً. لا بدّ أنّه موجود في مكانٍ ما؛ لو أمكنني فقط التركيز لوجدته. ولكنْ بدا أنّ دماغي يعاني من عدم التركيز، أصبح بقعة لزجة ينزلق عنها كلّ شيء،

وحيث أيّ إشارة تختفي مباشرةً، وكأنّها حالة تلاشٍ للفكر. لم أكن أنتبه إلى شيء في حياتي؛ إذ تمرّ أمورٌ ولا أسجّلها، أمورٌ مهمّةٌ.

كان أبي جالساً في مقعد قرب النافذة، وعلى شفتيه شيء يشبه الابتسامة. ابتسامة في غير موضعها. نظراته تائهة فوق مجموعة المباني التي تشكّل مستشفى «أوليفال»، فوق «أوليفال» المدينة - الحديقة ببيوتها ذات الطابع الإنجليزي المتكلّف قليلاً؛ ومن المكان الذي كان جالساً فيه، لا شكَّ أنّ بإمكانه رؤية ملعب «أوليفال» الرياضيّ.

رآني وهو يدير بصره عن النافذة. كنت لا أزال واقفاً على العتبة، وفهمت فجأة أنّه محرَج. إنّ التعبير الذي رأيته على وجهه، وفي عينيه، وهذه الابتسامة الخفيفة، تعبير عن الإحراج، بينما ابنه الثالث موصول بآلة، ويموت على بعد أمتار منه. إن لم يكن قد مات. وأنا كوالدي، نشبه بعضنا، صُبِبنا في القالب نفسه، هذا ما يُقال لي دائماً. كنت مثله، محرجاً. لم أرَ الموت يوماً من هذا القرب؛ كان الموت غريباً عنّي وأشعرني ذلك بالإحراج. لم أرد أن أكون هنا. لم أعرف ماذا أقول، ولم يعرف أبي ماذا يقول. التقت نظراتنا ثمّ غضضنا البصر. شعرتُ بأنّني محبطٌ وحزين. غادرتِ الحرارة العنيفة التي شعرت بها في الرواق جسدي، وانقبضت مفاصلي وتجمّد وجهي كقناع مسرحيّ. نظرت إلى الكرسيّ الذي جلستْ عليه أمّي، منحنيةً فوق سرير أخي، وتساءلت ماذا كانت لتفعل لو كنت أنا هناك، موصولاً بآلة في الطابق الحادي عشر من مستشفى «أوليفال»، وأنا أموت أو ربّما ميّت. هل ستكون مأخوذةً، ومنذهلةً ممّا يحدث لي إلى هذا الحد؟ هل كانت لتغوص من دون تحفّظ في قدري؟ أو أنّ الظلّ الذي ألقيه قليل الأهميّة و الصلابة؟

عدت القهقرى إلى الباب. التقت نظراتي من جديد بنظرات أبي؛ أخرجت علبة التبغ من جيبي، وأشرت إليها بيدي، ثمّ فتحتُ الباب خلفي وانسللت إلى الرواق. لم ترفع أمّي رأسها، و لا مرّة لتنظرَ إليّ، وتشاركَني بما يحدث.

هنالك نوافذ في الرواق كذلك، وصدم نورٌ باهرٌ وجهي. استدرتُ نصفيّاً، وبحثت في كلّ جيوبي عن نظاراتي الشمسيّة، ووجدتها في النهاية. وضعتها على عينيّ ثم لففت سيجارة، مسنداً ظهري إلى الحائط. بلّلتُ اللاصق، ثمّ طبّقت طرف الورقة وأخذت أبحث عن غرفة مسموح التدخينُ فيها. اكتشفت واحدة في طرف الرواق، بهو صغير خلف فاصل مزجّج، فيه أرائك وطاولات. لكنّ جسمي لم يطاوعني على الجلوس، واكتفيت بالبقاء واقفاً أمام الفاصل، وسيجارتي في يدي، متنشّقاً نفساً بعد آخر على مراحل منتظمة، ومحاولاً عدم التفكير في شيء. في الواقع، لم يكن الأمر صعباً.

عندما بدأ عقب السيجارة يحرق أصابعي، وأردتُ سحقه في المنفضة، المصنوعة من الحديد الأبيض، والموضوعة على الطاولة، رأيت أخي الصغير يمرّ بسرعة فائقة أمام الفاصل الزجاجي. كان منقطع الأنفاس وفمه مفتوحاً. كان خارجاً من المصعد ووجهه الجميل شاحب، ومنتفخ كأنّ حشرات قد لسعته، وعيناه متورّمتان. مشى من دون أن ينظر إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولكنّه يعرف جيّداً إلى أين هو ذاهب. وفهمت أنّه قد ذهب إلى غرفة الإنعاش من قبل، وأنّه عاود الخروج منها، وأنّه يعود إليها الآن بعد أن ركض وركض حول المبنى.

11

رأيتها تظهر مرّة أخرى من خلف مخبأ محطّة «أوكيرن»، قبل أسبوع من تعرّفي إليها. كانت متّجهة صوبي على درّاجة، على رصيف «تروند هايمسفاين». خرجت من مصعد مبنى في مدينة «أرفول»، والتحقت بالجادّة الواسعة عبر طريق المشاة الذي يمرّ أمام المكتبة الجديدة.

كان الظلام مخيّماً؛ وقد حضرتُ للتوّ اجتماعاً في الطابق الثامن من أحد الصروح، في شقّة من غرفتين قريبة من المصعد. قاموا بمراجعة نقاط قوّتي ونقاط ضعفي. قوّموا المناضل الشيوعي، والانسان كذلك، فلا تمييز بين الشخصيّ والسياسيّ. كان هنالك ستة أعضاء؛ بينهما اثنان أصغر منّي سنّاً، لا يزالان في المدرسة وقاسيين، فهما يملكان الروح الثوريّة. وأنا كذلك كنت أملكها، ولكن لم تكن مواجهتهم سهلة، ولم أجتز الموقف بشكلٍ جيّد كما كنت أتوقّع. والآن أتهيّأ للذهاب إلى منزلي، في ساحة «كارل برنرز».

صعدَت من الجانب المقابل، قبل إشارة التوقّف مباشرةً، وعرفتها للتوّ. كانت لا تزال ترتدي معطفها الأزرق البالغ القصر، معلّقة على طيّته الشارة نفسها التي أضعها، حمراء وزرقاء ونجمة صفراء في الوسط، وعلى إطارها الأبيض تُقرأ عبارة «النصر لجبهة التحرير». لم تكن تضع وشاحاً، ولا بدّ من أنّها تشعر بالبرد، وهي قد عرفتني كذلك. لم أرَ وجنتيها تحمرّان، إذ ليس هنالك نورٌ كافٍ لذلك، ولكنّي متأكّد أنّها احمرّت وعندما مرّت أمامي، قلتُ «مرحباً». تمهّلت وتوقّفت بعد أمتار عدّة. التفتت؛ شدّت ياقة معطفها حول عنقها، وسكتُّ أنا.

- لقد رأينا بعضنا من قبل، قلتُ أخيراً.

- نعم.

اقتربتُ ووضعتُ يدي على مقود درّاجتها.

- أحبّ معطفك، إنه يعجبني كثيراً.

وهذا صحيح. كنت أجده مناسباً جدّاً، مع أنّه قصير. كان يعطيها هيئة مغنّية روك. وأضحكها تعليقي.

- إنّه معطف أخي، قُدِّم له عند تكريسِه في الحزب. ارتداه في ذلك اليوم وحسب؛ ومنذ ذلك الوقت، لم يعد يرغب حتّى في النظر إليه. إنّه يعجبني، ولكنّه بشع جدّاً على أخي.

- إنّه رائع.

عندما رأيتها من قرب، بدت لي صغيرة جدّاً في السنّ، وأصغر ممّا ظننت.

- وأنتِ هل تمّ تكريسكِ؟

- بالتأكيد.

ضحكتْ من جديد، ولكنّها لم تقل متى، واحمرّيتُ بدوري؛ أنا أحمرّ كثيراً، وأعرف مسبقاً متى سيحدث ذلك و لا بدّ من أنّها لاحظت ذلك لشدّة قربنا من بعضنا. أفلتُّ المقودَ وأشرتُ بإصبعي إلى شارة جبهة التحرير التي تضعها.

- هذا جيّد.

- أنا أؤيّدهم.

- تؤيّدين من؟ سألتُ لأختبرها.

لم يكن ذلك لطيفاً من جانبي.

- هؤلاء الذين يقاومون الاجتياح الأميركي لـ«فيتنام»، جبهة التحرير.

- هذا أمرٌ جيّد.

- نعم، نعم، هذا أمرٌ جيّد.

- نعم، قلتُ، غير عارفٍ كيف أكمل. لا بدّ من أن نلتقي من جديد. أضفتُ.

قلتُ ذلك مفكّراً في رصيف محطّة «أوكيرن».

- نعم، أتمنى ذلك. قالت.

لكنّها لم تفكّر في ما أفكّر فيه. أعطيتها عنواني. هكذا؛ عنوان بيتي وكلّ شيء. ابتسمت، واكتفت بهزّ رأسها بهدوء، ثمّ افترقنا.

بعد أسبوع، دقّت بابي. ثمّ عادت مرّات عدّة لرؤيتي، وهي راجعة من مدرستها في وسط أوسلو. شربنا الشاي في مطبخي الأحمر، وكلّمتها عن أمور ظننتُ أنّني أعرفها، وكتبٍ قرأتها، وأفغانستان وتقاطع الحضارات، وماو في مكتبه، و«إدوارد مونش» وحزبي.

وأخبرتني هي عن عائلتها شارحةً لي لماذا لا تحبّ العودة إلى بيتها بعد الدراسة. وفي أحد الأيّام جلست على طاولة المطبخ لتكتب فروضها. بعد ذلك ثرثرنا و دخنّا حتّى وقتٍ متأخّر من العشيّة، وأظنّ أنّ ما أثّر بي أكثر من كلّ شيء طريقةُ إمساكها بالسيجارة، معصمُها محنيٌّ قليلاً و الجذوة باتجاه الأرض. في تلك الليلة لم تعد إلى بيتها.

بعد أيّام، دقّ أحدهم باب تلك الشقّة الصغيرة التي أعيش فيها منذ بدأت دراستي في المدرسة الواقعة عند تقاطع «دالننغاتا» و«غوتيبورغاتا». وهي مدرسة لم تعد تعدّني واحداً من تلامذتها. في تلك الحقبة لم يكن يزورني الكثير من الناس، باستثناء الفتاة ذات المعطف الأزرق. افترقتُ إراديّاً عن أصدقائي الذين تشاركت معهم في كلّ شيء تقريباً لمدّة عامين، في مطعم المدرسة، وفي غرفة التدخين، وفي السهرات التي نشرب فيها البيرة. فجأة، لم يعد يجمعنا شيء. ولم أكن قد صادقتُ أناساً جُدُداً، ما عدا رفاقي في الحزب. ومع أنّي أكنّ لهم الكثير من التقدير-معظمهم في كلّ الأحوال- لم نبنِ علاقات شخصيّة. لذلك يدقّ القليل من الناس بابي، غير السيّدة «أندرسن»، جارتي في الطابق الأسفل، التي لا تنفكّ تنتقد طريقتي في تنظيف الدرج، إذ أستخدم سائل الجلي بدل إضافة الصابون الأسود.

كان الوقتُ بعد الظهر. نهضت عن طاولة المطبخ حيث أقرأ رواية لـ«ويليام فولكنر»، أو لأكون صادقاً، أحاول أن أقرأ؛ إذ كان عويصاً جدّاً، وليس «فولكنر» واحداً من الكتّاب الذين ينصح بهم الحزب، ولكنّي حـاولت مع ذلك. وضعتُ معيّن صفحات صينيّاً له شريط أحمر في «أبسالون، أبسالون!» ثمّ

توجّهت نحو الباب ونظرت من منظار الباب، كما أفعل دائماً. على فُسحة الدرج كانت تقف أمّي.

مضى شهران لم أرها فيهما، ولم أكلّمها، ولم أستقلّ المترو حتّى «فيتفيت» في «غرورودالن» لأزورها، ولا حتّى لأدعوها إلى العشاء، كما فعلتُ كثيراً من قبل.

حملت على أطراف أصابع إحدى يديها، كنادل في مطعم يحمل الصحون بين الطاولات، علبةً مسطّحة مغلّفة بورقة بيضاء. نظرت أمامها مباشرةً مع تلك الابتسامة التي ليست بالابتسامة. لم تكن تحدّق في منظار الباب، وما كان بإمكانها أن تدرك أنّني أراقبها من الداخل. العلبة البيضاء بمحاذاة أذنها اليمين؛ ونحن في الخريف، وتلبس معطفها الرماديّ ووشاحاً أحمر حول عنقها؛ كانت أكبر منّي سنّاً في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور. عندما أفكّر في ذلك، يبدو لي الأمر غريباً، إذ بدت لي في أحسن حال.

لكنّ أمراً حاسماً قد حدث. هناك ما قبل وما بعد، لقد قطعتُ حدوداً، نهراً مثل ال«ريو غراندي»، وصرتُ الآن في المكسيك، حيث كلّ شيء مختلف ومخيف قليلاً. ترك العبور آثاراً على وجهي، وأمّي مدركة لذلك: كلّ منّا يقف على ضفّته. كانت مجروحة لأنّي تخلّيت عنها بكامل إرادتي، ولم تعد تحبّني ولن تريدني بعد اليوم. وقد تقول: «خسِئت أيّها الوغد».

كان بإمكاني التظاهر بأنّني غائب؛ أمكنني أن أكون في السينما، أو خارجاً لشراء أغراض، أو في العمل، مع الفريق الصّباحيّ. ولكن لا بدّ من أنّها تحقّقت من الأمر. ثمّ إنني اشتقت إليها في كلّ الأحوال، ففتحت لها الباب.

- مرحباً، قلتُ.

- مرحباً. قرّرْتَ أخيراً أن تفتح لي؟

جعلتها تنتظر أكثر من اللزوم.

- تفضّلي، قلتُ، مُفسحاً لها.

اجتازت العتبة، لا مبتسمة ولا متوتّرة، بل راسمةً ذلك التعبير عن قلّة الصبر الذي كثيراً ما تبرزه. وكأنّها تقول: «فلننتهِ من هذه التفاهات». قطعنا الرواق الصغير وأدخلتها إلى المطبخ، الذي كان الغرفة الوحيدة المرتّبة؛ على

كلّ حال لم يكن الأمر بهذا السوء، إذ ليس في الشقّة سوى غرفة واحدة أخرى، يتراكم فيها كلّ ما أملكه، طبقاتٍ متتالية، عليّ الإقرار بذلك.

- هل أنت مفلس؟ سألت.

- كلّا، كلّا، ليس حقّاً.

- بالفعل، أفترض أنّك لستَ مفلساً، قالت واضعة علبتها بهدوء على طاولة المطبخ. ثمّ ألقت نظرة على «أبسالون، أبسالون!».

- إنّه قاسٍ.

- أنا أشاركك الرأي. ولكنّه ليس سيئاً.

- ليس سيئاً أبداً. ولكنّي أشعر بخجلٍ كبير لأنّني لم أستطع أبداً إكمال قراءته.

في الواقع، لن أتمكّن من إكمال قراءته أنا أيضاً، كنت متأكّداً من ذلك. ولكنيّ سعيد بقراءته، حتّى لو لم أستطع الوصول إلى نهايته. الغريب أنّني لم أشعر أنّ لذلك أهمّية.

فكّت بعناية جانباً من العلبة، وأخرجت صندوقاً صغيراً فيه رقاقَتان. حدّقت بهما غير عالمٍ ماذا أقول، وغير عارفٍ إن كان يجب أن أفرح أو أن أجد ذلك محرجاً.

- من عند «برغرسن»؟ سألت.

- كلّا. ليس من عند «برغرسن». أليس عندك قهوة؟

- بلى، بالتأكيد.

- ضعِ الماء ليسخن، إذاً. هكذا سيمكننا الانتقال إلى الأمور المهمّة.

فعلتُ ما قالت لي. وكأنّي غير قادر على القيام بأيّ حركة من دون أن تأمرني بها. إذاً وضعْتُ الماء على النار، ورأيت أنّها تنظر إلى يديّ، وتعاين إن كانتا قد تغيّرتا. وقد تغيّرتا حقّاً، صارتا حمراوين ومتشقّقتين، وأظافري وسخة، و لا بدّ من أنّها لاحظت ذلك. كنت لا أزال متشنّجاً بسبب ساعات طويلة أمضيتها وأنا أحمل أثقالاً، وأقوم بحركات عنيفة لست معتاداً عليها، وهو ما أفعله كلّ يوم منذ شهرين. بدا لي اليوم وكأنّه أربع وعشرون ساعة على أربع

وعشرين. ولكنّي لم أن أريد إخبارها بذلك. إلّا إذا طرحت عليّ السؤال. وهي بلا شكّ لن تفعل ذلك.

نظرتُ إلى الساعة التي فوق الباب. ما زال لديّ ثلاث ساعات قبل الذهاب. وهذا الوقت يكفي لأكلِ الحلوى وسلوك الطريق حتّى مكان عملي، في «أوكرن»، وهو يبعد مسافة محطّتي مترو فقط. هو مكانٌ عَمِلَ فيه والدي كذلك لسنوات، ولكنّه لم يعد يعمل فيه؛ لم يعد يحتمل القيام بجهد مضنٍ، ولا إمضاء نهاراته وسط الضوضاء والغبار، أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين، أسبوعاً بعد آخر، مع جدول ساعات عمل دائم التغيير. كان الضغط الدائم يتلفه، فيوقع الأكواب والصحون، وسقمت أمعاؤه، ولم تعد قواه تسمح له أن يقطع أربعين كيلومتراً متزلّجاً كما كان يفعل كلّ يوم أحد مذ صار راشداً. واليوم لم يعد يستطيع القيام بذلك.

- أليس من المفترض أن تكوني في العمل في هذه الساعة؟ سألت.

- أين؟ لدى «فريا»؟

- نعم. أين إذاً؟

- لم أعد أعمل لدى «فريا».

- لم أكن أعرف.

- بالفعل، كيف يمكن لك أن تعرف.

بعد أن وضعتُ ثلاث ملاعق صغيرة من القهوة في مصفاة ورقيّة، سكبتُ الماء في وعاء فيه حاملٌ للمصفاة من البلاستيك البنيّ. اتّجهتُ نحو النافذة بانتظار ترشّح الماء. نظرت إلى «فينماركغاتا» والأشجار شبه العارية لمتنزّه «أولانار»، ونظرتُ إلى حافّة النافذة التي طليتها بالأحمرِ الزاهي، والتي سيتوجّب عليّ إعادة دهنها بطبقات بيضاء عدّة عندما أنتقل من هنا. وهذا ما لا بدّ من أن يحدث في يوم من الأيّام. وعندما صارت القهوة جاهزة، صببتها في ركوة عازلة للحرارة لونها برتقالي بقدر احمرار حافّة النافذة. ثمّ جلست.

- أحضر فناجين وصحوناً، قالت أمّي.

ما إن جلستُ حتّى اضطررت للقيام من جديد لأحضر فناجين وصحوناً من الخزانة. فتحتُ الدرج الأوّل تحت طاولة العمل وأخرجت مسحاة القلي التي أستعملها كذلك مسحاةً للحلوى في المرّات النادرة التي أحتاجها فيها. وضعتها قرب الرقاقتين، ثمّ عدت إلى الجلوس. لم تجد أمّي عيباً آخر تنتقده؛

أمسكت المسحاة ووضعت لنا قطع الحلوى، وفتحت الدرج وعادت حاملةً شوكتين.

- حسناً، فلنذُق هاتين الرّقاقتين ولننسَ الموضوع.

وهذا ما فعلناه، وكأنّ شيئاً لم يُقل. أدارت الفيلم إلى النقطة التي لم يكن قد حدث فيها شيء بعد، والرقاقة كانت لا بأس بها؛ كانت شهيّة، ولم أذق ألذ منها يوماً، وأنا خبيرٌ بها. والخريف هنا، في الجانب الآخر من النافذة، والريح تنحدر على الطرقات، وتشكّل زوابع من الرمل والأوراق الميّتة، أوراق كستناء، وقيقب وزيزفون، وبدا الإسفلت أقسى منه في الصّيف، كقشرة جافة يخاف المرء أن يقع عليها متهالكاً تعباً. ولكن في المطبخ، أشاع مشعاع التدفئة المركزيّة حرارته، التي صعدت على طول أقدامنا وحتّى معدتينا؛ والمشعاع كذلك دهنته بالأحمر. في الحقيقة، لقد فات الأوان. فهمت فجأة أنّ الأوان قد فات. كان يجب أن تأتي قبلاً؛ كان يجب أن أركب المترو حتّى بيت الجوار الصغير ذي الكرتونيّة الهشّة إلى حدّ أنّنا نجد أنفسنا عند الجيران إذا ما ضربناها بأقدامنا. وفهمت أنّها تعرف ذلك أيضاً. ولكنّنا إذا تجنّبنا الكلام عن الأمر، واستمرّينا بأكل رقاقتينا، ربّما يمكننا طرد هذه الحقيقة. في كلّ الأحوال، هي لم تأتِ لتعتذر، بل أتَت لأنّها أنجبتني، لأنّي ابنها. هذه هي الحقيقة. أتت لأنّها أمّي، ولكن فات الأوان. هناك شيء ما قد انكسر، وهنالك حبلٌ شُدَّ كثيراً، وتمزّق، ثمّ انقطع محدثاً دويّاً يرنّ بين الحيطان القرميدية. وكنت أعرف أنّها تسمعه تماماً كما أسمعه أنا.

الكرة في ملعبي ولكن لا يمكنني إبقاءها فيه. قرّرتُ أن أشيع شيئاً من الخفّة والدعابة في هذا المطبخ الملتهب.

- إذاً طردكِ رئيس عمّال «فريا»؟ سألتُ مبتسماً لأنّني بالطبع لم أظنّ ذلك.

- كلاّ. ولكنّي أنا من ركلته بقدمي.

- ركلتِه بقدمك؟

- نعم. في عظم السّاق، وبقوّة. ثمّ صفقت الباب.

- ولكن لا يمكن لك ترك عملكِ هكذا ؟ هنالك قوانين، أليس كذلك؟ أنت تعملين هناك منذ عشر سنوات؛ هكذا تخسرين كلّ حقوقك.

- في الحقيقة، الأمر برمتّه كشسع نعلي. إذا ما سمحت لي باستخدامَ مثل هذا التعبير.

لن أستاء بسبب ذلك بالطبع. ولكنّي أعرف أنّ أبي ما كان ليفعل أمراً كهذا، ولا أنا. مع أنّني أنا من أقلع عن حياته السابقة، ومن ترك مدرسة كان يتعلّم فيها أشياء حلم دوماً بتعلّمها. أنا من جعل من نفسه عاملاً. ولكنْ هما لم يكن لهما الخيار.

- وماذا تفعلين الآن؟ أقصد هل وجدتِ عملاً آخر؟

- أنا وصيفة في «بارك أوتيل» .

كان صوتها خشناً وتنظر إليّ بتحدّ، وكأنّني من النوع الذي يزدري مثل هذا العمل. مع أنّي لا أعرف حتّى ماهيّته.

- أنظّف الغرف بالمكنسة الكهربائية، وأسوّي الأسرّة، وأنظّف مقاعد الحمّامات، وكلّ هذه الأمور.

وأنا الذي لم أنمْ يوماً في فندق، فهمت أنّها تفعل تماماً ما كانت تفعله في بيت «فيتفيت»، ما فعلته دائماً وكرهته دوماً.

- ولكنْ يا أمّي، كنتِ دائماً تكرهين هذا.

- نعم، ولكنِ الآن ليس عندي اعتراض عليه. الآن يُدفع لي لأقوم به؛ الأمر مختلف، أليس كذلك؟

عليّ أن أقرّ بذلك، فعلاً الأمر مختلف.

كنّا هنا، أنا وهي، وجهاً لوجه، نأكل رقاقتينا في المطبخ الأحمر المطلّ على «فينماركغاتا» و«أولا نار» و لا شيء آخر، في منتصف الطريق بين متحف «مونش» وساحة «كارل برنرز». وكان الصمت مخيّماً. سكتنا وتجنّبنا النظر واحدنا إلى الآخر، وبدأت أفكّر في الأفلام التي شاهدناها سويّة، على التلفاز أو في سينما «سنسن»، أو سينما «غرورود» أو «رينغن»، قرب منزلي. فكّرت في مساءٍ منذ عشر سنوات؛ كنّا ذاهبين إلى «كولوسيوم»، في «ماجورستوا»، أنا وهي، لنشاهد «الجائزة الكبرى»، مع «إيف مونتان» و«جايمس غارنر» في دورَي سائقَي سيّارات سباق. كنّا نرتدي ازهى ثيابنا، هي في فستان أزرق عليه زهور صفراء وأنا في سترتي «البيتلز» الرماديّة من دون ياقة والمزيّنة بالأسود. ولم أستغرق الكثير من الوقت قبل أن أنحاز إلى «إيف مونتان». كان

صارماً وحازماً خلف المقود، ولكنْ كان لديه شيء آخر أيضاً، شيء ما في نظرته، ربما هو حنان، لا يمتلكه «جايمس غارنر».

- ألا تتعب من القيادة؟ يسأل «مونتان».

- كلا، يجيب «غارنر».

- أنا أتعب أحياناً، يقول «مونتان».

ولعلّ الحنان البادي في عينيه مردُّه إلى كونه فرنسيّاً، وكانت أمّي تفهم لماذا شعرتُ بأنّني قريبٌ منه.

ولكنّه يموت في الفيلم. يموت في اللحظة التي يفهم فيها أنّه قد وجد السّعادة التي يبحث عنها منذ أمدٍ بعيد، مع «إيفا ماري سينت»؛ إنها سعادة كان يمكن لها أن تزيل تجاعيد وجهه الفرنسيّة الحنونة. ترك الحلبة داخل جحيم من النيران، وأغمضت عينيّ مزدرداً ريقي، وعند الخروج من السينما اضطرّت أمّي للتوقّف في مرآب سيّارات «ماجورستوا» لتواسيني. وكنّا نسمع هديراً قادماً من مجموعة سيّارات تُقِلُّ رجالاً متحمّسين بسبب الفيلم، يثيرون هدير المحرّك، ويفلتون الواصل فجأة، ويجعلون الدواليب تنزلق، ليشنّوا هجوماً على العالم بسرعة فائقة، سالكين منعطفات ضيّقة جدّاً، بحثاً عن الكمال، مع أنّهم عائدون إلى البيت. وهذا ما جعل أمّي تضحك بصوت كئيب؛ ضحكة بدت لي شبه مداعِبة. وضحكت أنا كذلك، فرحاً ومتحمّساً، بصوت جليّ؛ كنت لا أزال طفلاً، والدموع في عينيّ، وأحدّق في وجهها، لأنّي أفهم ما يحدث. أفهم لماذا أطلق الرجال هدير محرّكاتهم بعد أن رأوا الفيلم، وأفهم أنّها تضحك لأنّها تجدهم تافهين، وأيضاً لأنّ ذلك يعجبها. ولو أنّ لدينا سيّارة، أنا وهي، لقمنا بمثل ما قاموا به تماماً، ولدرنا في الموقف منزلقين على الأرض، ثمّ انطلقنا مسرعين في شوارع أوسلو، هي وأنا، و أنا خلف المقود.

- أتذكرين «الجائزة الكبرى»؟ سألت.

- مباراة الأغاني؟

- كلّا. الفيلم الذي شاهدناه، أنتِ و أنا، في «كوليسيوم»، ويمثّل فيه «إيف مونتان».

- و«جيمس غارنر»؟ نعم، أذكره. لقد راق لي كثيراً. سيّارات سريعة، «مونتي كارلو». ولكن «إيف مونتان» يموت. كان الأمر رهيباً، وكنتَ تبكي من دون هوادة. ولكن لم نكن لوحدنا أنت وأنا. ألم يكن أخوك معنا؟

وفجأة، تذكّرت. أخي الكبير كان هناك، وأحطنا بأمّي في ظلمة «كولوسيوم» الفسيحة. لم نكن وحدنا هي وأنا؛ بل هو كذلك، وكنّا ثلاثتنا بالتأكيد في المرآب حين بكيتُ من دون هوادة. بينما لم يبكِ أخي أبداً، والرجال أطلقوا هدير محرّكاتهم قبل إفلات الواصل، والانطلاق في الشارع، والاختفاء عند زاوية «ماجورستوا» سائرين على أغطية العجلات، أو يكادون. ولكنّ أخي ليس في الصورة التي احتفظت بها عن تلك الليلة. لقد محوته. كما محا «ستالين» «تروتسكي».

وانتهى الأمر. انتهينا من تناول رقاقتينا وفرغ صحنانا. نهضت مستندةً بيديها الاثنتين على الطاولة، ثمّ طوت علبة الكرتون الصغيرة أربع طيّات، وكوَّرَتِ الورقة البيضاء. واتّجهت نحو طاولة العمل لترمي كلّ شيء في سلّة المهملات.

- إذا، سنلتقي يوم الأحد ربّما؟ الكلّ قادمون لتناول العشاء. سيكون إخوتك هناك.

- نعم، بكلّ سرور. إلا إذا كان لديّ اجتماع.

- حسناً. قالت، وقد تسمّرت.

بدت وكأنّها تريد أن تضيف شيئاً، لكنّها غيّرت رأيها. رافقتُها إلى الرواق وفتحت باب المدخل. نزلتْ من دون أن تلتفت إلى الوراء على الدرج الذي غسلتُه، درجةً درجة، بسائل الجلي.

III

12

قبل بضعة أسابيع من إبحاري على متن ذلك المركب العجوز «هولغر دانسكي»، اكتشفت رسالةً بين النشرات الدعائيّة والصّحف التي كنت مشتركاً فيها منذ تركت المنزل، منذ سبعة عشر عاماً. فضضت المغلّف، وجلست على أوّل درجات السلّم، بالقرب من شقّتي، الواقعة على الشمال قرب صندوق البريد. ستبرد عجيزتي، ولكن لا يهمّ؛ هذا هو المكان الذي أجلس فيه عندما تطرأ على ذهني أفكارٌ عاجلة. وهذه هي الحال الآن.

كان المغلّف من الحجم الصغير، وفيه بطاقة بريديّة تمثّل نسخة من لوحة فنّيّة. على الجهة الأخرى من البطاقة، ملأتْ امرأةٌ كلّ المساحة كتابةً أخذت صيغتها النهائية في الخمسينيات.

هذه هي بداية النصّ:

«يوم السبت في الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، التقينا في المحطّة الرئيسيّة، وكنت أضع قلنسوة سوداء مزدانةً بجواهر ملوّنة. رأيت أنّك تشبه والدك. نشأتُ في المسكن رقم 5 من شارع «فالرنغاتا»، في الطابق نفسه حيث مسكنكم. أذكر عائلتك وأباك جيداً، وأذكر أمّك على وجه الخصوص».

وقّعت في الأسفل على اليمين، باسم لم يعنِ لي شيئاً. وأسفله أضافت بين قوسين: اسم الشهرة «فرانتزين».

«فالرنغاتا» رقم 5! المبنى الشعبيّ على تقاطع «سمالنسغاتا» و«فالرنغاتا»، حيث يمرّ الترام. أذكر دكّان الألبان قرب موقف الترام، وبلاط أرضيّته، وكذلك السقيفة التي نرى من خلالها الفناء وحبال الغسيل المحاطة بسياج؛ تُشاهَد من الرصيف ثيابٌ داخليّة بيضاء تتدلّى كرجال ميّتين - كنت

أقول في نفسي إنها جثث - بينما تتحرّك قمصان جدّي ذات المربّعات دائماً، مشيرةً إليّ. بعد السقيفة إلى الشمال، كنّا نصعد في البئر الأولى للسلّم، المزيّن بابها بنافذةٍ صغيرةٍ من الزجاج المسلّح، ثمّ نصعد طبقةً فأخرى وسط تلك الرائحة التي أشعر بأنّها مرتبطة بجدّي، بثيابه: سترته البنّيّة، وقمصانه، وعقدة الفراشة الحمّصيّة التي يضعها دائماً حتّى عندما لا يرتدي سترة، أو بالمادّة التي يدهن بها شعره: سائل دبقٌ محفوظٌ في قوارير صغيرة عليها علامات بلون تبغيّ. ولكنْ هنالك سبع شقق في بئر سلّمنا، إذا ما حسبنا حجرة البوّاب كذلك، ولا شك في أنّ جدّي ليس المسؤول الوحيد عن هذه الروائح. لا بدّ من أنّ الرائحة نفسها تعبق في كلّ مباني أوسلو. يُقال عن جدّي إنّه كان رجلاً طيّباً، ومسيحيّاً مؤمناً. ولكنّي شخصيّاً لست مقتنعاً بذلك، ولا أمّي مقتنعة.

الاسم «فرانتزين»، يُقرأُ على الباب المقابل. أذكر مَغْلَقَ فتحة البريد، التي تنفتح نحو الخارج وليس الداخل، ومنظار الباب الذي فوقها، على ارتفاع جسم إنسان. باب «فرانتزين» كان أوّل ما نراه، أمّي وأنا، عندما نصعد الدرجَ، يداً بيد، بعد التبضّع أو العودة من نزهة في وسط المدينة. كان هنالك رفض في جسدينا، رفض نتشاركه، وتيّارٌ كهربائيّ قويّ يمرّ من ذراعها إلى ذراعي، ومن ذراعي إلى ذراعها، ويُثْقِلُ أرجلَنا. وما كان يذهلني دائماً وجوده على المغلق، هو حرف الزّاي، الذي ظننته مخصّصاً لـ«زورو».

باب عائلة «فرانتزين» كان على يمين الدرج في الطابق الثاني، وبيتنا على اليسار. على بابنا يُقرَأُ اسم شهرة جدّي. وتمّ تصغير اسمه الثاني «أدولف» إلى ألف، ما لم يكن مستغرباً بُعَيْد الحرب. أنا أحمل اسمه نفسه، الاسم الأوّل نفسه والشهرة نفسها، لكنّي نجوتُ من «أدولف» اسماً ثانياً، لأنّ قسّ كنيسة «فالير‌ينغا» رفض ذلك رفضاً قاطعاً.

خلف ذلك الباب المُعلَّم بألِفْ، عاشت أمّي برفقة والدي، واثنين من أعمامي، وجدّي. ثمّ هنالك أنا وأخي. كانت الشقّة مكوّنة من غرفتين ومطبخ، والغرف ليست بكبيرة، والجدران داكنة وكئيبة، و الستائر مقفلة دائماً، ولا أعرف لماذا. لا بدّ أنّ أحدهم قدّر أنّ الغرف ستكون أكثر انتعاشاً إذا مُنِع النور من دخولها.

كنتُ أجهل تماماً أنّ أمّي تعرف الناس الذين يجاورونا، حيثُ كُتِب «فرانتزين» مع زَاي. لم أرَ يوماً أحداً يجتاز الباب، لا دخولاً ولا خروجاً، ولكن الواضح أنّ بعض الأمور قد فاتني؛ كنتُ صغيراً جدّاً عندما انتقلنا إلى بيت آخر. انتقلنا على عجل، هذا ما قُلتُه في نفسي لاحقاً؛ في الليل وبسريّة، في شاحنةٍ أخذتنا عبر «غرورودالن»، نحو «أوكرن» و«بجيركي»، نحو الغابة والنور، نحو بحيرات «فيسليتجرن» و«ألونسجون» و«برايسجون».

عندما يكون أبي والرجال الآخرون في العمل - كانوا يعملون كلّهم في معمل أحذية «سولومون»، في «ماريدالسفاين»، قرب ساحة «كيلاندس» - يُدَقُّ الباب أحياناً في منتصف النهار، فتترك أمّي الغرفة التي نوجد فيها أنا وأخي، حيث ننام رأساً لقدمين على الأريكة، وتلقي نظرة من منظار الباب. إذا لم يبدُ لها الرجل الواقف خلف الباب خطِراً جدّاً، ولا منفّراً جدّاً، تُدخلُه و تُجلسه على كرسيّ تحت مشجب الرواق. ثمّ تذهب إلى المطبخ لتحضّر له فطوراً. كان الرجال الذيّن يدقّون البابَ ملتحين، ليس لديهم عمل ولا مال، يرتدون ثياباً مبقّعة تعود إلى ما قبل الحرب. كانوا رجالاً من دون مساكن ثابتة، مرفوضين في كلّ مكان، ينامون تحت أشجار الحديقة العامّة قرب الكنيسة، و تحت شرفات المباني في «غالغيبرغ»؛ وفي «إينيباكفاين»، وفي زاوية «سترومسفاين»، حيث تتصدّر المكان محطة وقود ذات طابع أميركي، وقرب البيت الكبير الذي يأوي مدرسة ضبّاط «جيش الخلاص»، حيث يتدرّب مسيحيوّن في بزّات نظاميّة على المبارزة بالسيوف في صالة في الطابق الرابع، وهم يضعون في أرجلهم الجوارب لتبقى الأرضيّة بحالة جيّدة. وفي أكثر من مرّة، كانت أمّي تعطي زوجاً من الأحذية المستعملة لأحد الرّجال الذين يدقّون البابَ، لأنّهم بحاجة إليها بالتأكيد.

وأنا أصغر سنّاً، كثيراً ما قلتُ في نفسي. ربّما كان أحد هؤلاء الرّجال هو أبي الحقيقي؛ بدا لي أنّ جزءاً من مشاكلي سيُحَلّ إذا كان لديّ أبٌ مجهول لا اسم له، يتجوّل في الطرقات المظلمة، مرتدياً سترته القديمة ومنتعلاً الحذاء الذي أعطته إياه أمّي. يتجوّل بلا هوادة بحثاً عن مكان خاص به، مكان ليس كبيراً، ولكن يمكن أن أكون فيه كذلك، مكان أختفي فيه، منكمشاً في زاوية مظلمة، وفخذاي ملتصقان بمعدتي وجبيني على ركبتيّ، من دون حراك، حابساً أنفاسي، منتظراً سماع وقع أقدامه، الذي سأتعرّف إليه مباشرةً. ومع أنّني انتهيتُ من هذا الاستيهام منذ وقتٍ طويل، صدَمَني أن أقرأ السطور الأولى التي كتبتها لي تلك التي اسم شهرتها «فرانتزين»، بالزّاي، وكانت في المسكن رقم 5 في «فالرينغاتا». أعرف أنّني أشبه أبي، ولكن لم يعد أحد يقول لي ذلك. لم يقله لي أحد منذ سنوات. لا بدّ أنّ السبّب موتُ معظمهم، أولئك الذين أمكنهم الانتباه للأمر.

لأنّي لم أُرِد أن أشبهه، لم أشأ أن أنظر في المرآة وأكتشف أنَّ من أراه هو أبي. ولكنّي فَهمت مذ كنتُ صغيراً جدّاً أنّ كلّ المؤشرات تدلّ إلى الواقع نفسه، ومع الوقت سيبدو واضحاً للجميع إلى أيّ حدّ أشبهه. هذا سيبعدني نهائيّاً عن أمّي، مع أنّهما متزوّجان، هي وهو. كانا يتشاركان الحياة نفسها، ولكنّي لم أرَ الأمور هكذا. بالنسبة ليّ، لم تكن تلك حياة مشتركة. ولم أرِد أن أكون مرتبطاً إلى الأبد بأبي بحجّة أنّي أشبهه جسديّاً وربّما فكريّاً؛ لم أشأ أن أجد

نفسي في الجانب الآخر من الحدود، على الحافّة الأخرى من الهاوية، حيث هو، بين الأثاث الغارق في نور كئيب، برفقة أبيه و«أدولف» اسمِه الثاني، وبصحبة إخوته، أعمامي: عشيرةٌ من الرجال الكئيبين المتكاتفين، مسمّرين في مكان ليست أمّي فيه. لأنّها مختلفة؛ أدخلت إلى هذا المكان رغماً عنها، ما يمنحها، ويا للمفارقة، نوعاً من الحريّة.

كان أخي الأكبر معها دائماً. هو طفلٌ غير مرغوب فيه، وُلِد في السرّ والخزي في عرض البحر في الدانمرك، بين العلّاق والخرفان، على جزيرة اسمها «لايسو». ذهبت إلى هنالك بكلّ عجلة، بينما أخي لا يزال شُحيمةً في بطنها. وخلق هذا بينهما تواطؤاً كنتُ مبعداً عنه. هو يحمل الشمس والعذاب في جسده، وينمو في عالمٍ من زبدٍ ومن بحرٍ أزرق؛ كان واثقاً من نفسه، بنغولته وتحدّيه للقوانين. أوّل ما رآه هو كلاب الرعي الراكضة في البريّة، ودوران النوارس على المرفأ، والقبّة الزرقاء فوق الجزيرة. أمّا أنا، فرأيتُ وجه أبي وترام «فالرنغاتا» وثلاث حمامات مسكينة تحط على حافّة النافذة حيث يتدلّى السّتار. بين الصبيان الأربعة المتتالين، أنا الوحيد الذي تمّ التخطيط لولادته، والوحيد الذي رغب به الاثنان؛ تكرّر هذا الكلام على مسامعي كثيراً، وكان من المفترض بي أن أعدّه مديحاً وتهنئة.

يُعطيني ذلك شرعيّةً لما توانيت في التخلّي عنها: أردتُ أن أكون بلا قوانين مثل أمّي وأخي، وأردت أن أكون معهما، وأشاركهما ألمَهما، وأن أمشي سرّاً باحثاً عن انتماء جديد، ربّما في الليل، في الطرقات المظلمة. أردتُ أن أفتح الباب لغرباء وأختبئ خلف قناع، مثل «زورو»، لأنّ ما يجمعهما لا يُطال. وكان هذا يخيفني. على مرّ السنوات، أصبحتُ فارساً وحيداً راكباً في ميدان ملغَّم؛ تمسّكت بأمّي، وصرت أمارس الرياضة من أجلها، وأمثّل في المسرح من أجلها، وأنتزع منها ضحكات بواسطة نكات غبيّة تضيع خاتمتها في فوضى من الكلمات، ما إن أفتح فمي، حتّى تخرج الكلمات مختلطةً وبسرعة فائقة. وضعت حفاضات لمدّة أطول من الأطفال الآخرين لأبقيها معلّقة لي؛ تعلّمت القراءة قبل أن أترك القماط. ولكنْ مهما بذلتُ من جهد، كنت أشبه والدي.

لم تجرِ الأمور بسهولة بالنسبة إليّ، ولم يكن أيّ شيء بسيطاً في الرقم 5 من شارع «فالرنغاتا». لذلك كنت متنبّهاً لكلّ ما يجري حولي، ولا بدّ من أنّي لاحظتُ أنّها تفقد وزنها بسرعة، وأنّ حضنها لم يعد ناعماً كما كان. بينما كان جسمها دائماً متيناً ومشدوداً قبل ذلك. ولكنّي لم أقل شيئاً، ولم أصرخ «انتبهوا». تركت الرجال الآخرين في المنزل غارقين في ضلالهم؛ لقد بدأتُ الكلامَ متأخّراً، ولم أكن أعرف إلّا بضع كلمات نرويجيّة. حتّى أنّها

اضطرّت لتدبّر أمرها بنفسها، مع فقدان وزنها ونزفها المتقطّع، وأوقات حيضها المضطربة. في النهاية ذهبَتْ، بالسرّ تقريباً، لترى طبيب صحّة عامّة، ثمّ طبيباً نسائيّاً، مصطحبةً أخي، وأنا في عربة الأطفال؛ وضعتنا في غرفة انتظار لم تكن قطع لعبة الـ«ليغو» قد وُضعت فيها بعد، وبقينا جالسين فيها أحدنا إلى الآخر، وأرجلنا متدلّية؛ إلى أن حملني أخي على حضنه ليريني رسوم إحدى المجلّات. وانتظرنا وقتاً بدا لنا دهراً، بينما هي ممدّدة خلف الباب المزدوج المبطّن، ذائبة خجلاً، وساقاها مثبّتتان.

في النهاية، دفع الطبيب النسائي كرسيّه، ونزع نظّاراته السميكة.

- أنا آسف، يا سيّدتي، أفضّل أن أعلن لكِ الأمر. إنّه سرطان على الأرجح. سنرى ما يمكن فعله. عندكِ أطفال، أليس كذلك؟

- نعم، أجابت باقتضاب، لديّ أطفال.

كان كلّ الرّجال لا يزالون في العمل عندما عدنا من جولتنا السرّيّة - حتّى «ساغين»، كما بدا لي، أو «بجولسن». ولمّا كانت قد رتّبت الشقّة ونظّفتها قبل ذهابنا، خرجت إلى فسحة الدرج وضغطت جرس باب السيّدة «فرانتزين»، العائدة للتوّ من العمل، والموجودة في المطبخ تصحبها طفلةٌ كتبت لي رسالة بعد سنوات عدّة.

جلست أمّي على طاولة مطبخ السيّدة «فرانتزين». وضعت وجهها بين يديها وبدأت تبكي، لأنّها كانت مرهقة؛ الطريق حتّى «ساغين» أو إلى «بجولسن»، وهي تجرّ أخي وتجرّني، كان متعباً. سألت السيّدة «فرانتزين»، التي كانت أمّي قد أخبرتها من قبل:

- إذاً، يا صغيرتي، كيف جرت الأمور؟

- أنا مصابة بالسرطان وسوف أموت.

- ليس هذا مؤكّداً. الكثيرون ينجون منه، وعندكِ أطفال.

- نعم. هذا صحيح. عندي أطفال. عندي طفلان. وفي حياتهما القصيرة كانا دائماً غير مرتاحين، والآن لن يبقى لديهما أمّ لتعتني بهما، وتعطيهما ما يحتاجان إليه، وأنا قد أهملتهما بشدّة.

- ليس هذا صحيحاً. لا يمكنك قول ذلك.

- بلى، قالت أمّي. بلى، هذا صحيح. لم يُسمح لهما بتناول الشوكولا، ولا حتّى مرّة واحدة.

وهذا ممكن: ربّما لم نأكل الشوكولا مطلقاً، ولكن لم تكن هي السبب. في حين أنّها، بدءاً من ذلك اليوم صارت تتخمُنا بالشوكولا، شوكولا بالحليب من عند «فريا» وألواح «كويك لانش» خاصّةً، وصار كلّ يومٍ عيد، وتنهمرُ من عينيها أحياناً دمعة أو دمعتان لأنّها ستموت، ولن نكون معاً في السنوات القادمة، في السنوات المتدافعة على الأبواب واحدةً خلف الأخرى. مع ذلك، كنّا في عيد، وكانت تلمّ أوراق الشوكولا وتدسّها في كيس تذهب لترميه في مهملات بئر السلّم الآخر، وتنظّف فمينا بعناية بقفّاز حمّام قبل أن يعود الرّجال.

وفي النهاية لم تمت. بقيت على قيد الحياة؛ وأنجبت ولدين آخرين، ولا أعرف ما الذي أدّى إلى هذه النهاية، إنْ كان التشخيص خاطئاً أو أنّها تعرّضت لعمليّة جراحيّة ناجحة من دون أنْ يُقال لي. أو أنّها كانت متعبةً بكلّ بساطة لعيشها بين كلّ هؤلاء الرجال خلف ستائر الطابق الثاني المغلقة، وإن كانت هذه الحياة هي التي جعلتها تفقد الوزن وأصابتها بالمرض. ليس هذا مستحيلاً، فبعد وقت وجيز، تركنا ذلك المكان بأقصى سرعة، بئر السلّم هذا على تقاطع «سمالنسغاتا» و«فالرنغاتا»، حيث يمرّ الترام اللعين، لننتقل إلى أحد بيوت الجوار في «فيتفيت»، انتهى بناؤه منذ عام. وأبي كان معنا، ولكنْ ليس الآخرون. وسرعان ما تحسّن وضعها واستعادت تقريباً مظهرها السابق.

13

كنتُ متجمّداً من البرد ومبلّلاً. تبعتُ أمّي داخل الشاليه، شادّاً على مقدّمة معطفي؛ أمكنني أن أفكّ الأزرار العالقة في عرواته الصغيرة جدّاً وأن أخلعه، ولكنَّ ذلك كان عمليّة بالغة التعقيد. ولمّا كانت أمّي تدير لي ظهرها، قرّرت التخلّص من باقي ثيابي. كان الماء يسيل على طول فخذيّ، فبحثتُ في حقيبتي، ولكنّي لم أجد ثياباً للتبديل؛ لا سترات صوفيّة ولا قمصان. بالمقابل، وجدتُ أدوات للكتابة ودفاتر صغيرة على غلافها رموز صينيّة وفي داخلها أسرار، أشياء دوّنتها منذ منتصف السبعينيات. لم يعرف أحد بوجود هذه الدفاتر، لا الفتاة ذات المعطف الأزرق، ولا أيّ من رفاقي في الحزب. كنت أبقيتها في جيوبي منذ تلك الحقبة، في كلّ أنواع الثياب: في القمصان الرياضيّة الجلديّة، وفي السترات والمعاطف. «أظنّ أنّني فقدتُ طاقتي على التحمّل»، كتبتُ في منتصف صفحة بيضاء. وعلى صفحة أخـرى: «لقد فـات الأوان»؛ ولكنّي لا أذكـر ما كنت أقصد بذلك. في قعر الحقيبة وجدتُ غطاءً لم يفدني بشيء، لأنّه لم يعد ممكناً النوم على سطح «هولغر دانسكي» كما كنت أفعل في الماضي. من الآن فصاعداً، يجب حجز قمرة عندما نسافر ليلاً. وفي كلّ الأحوال، الطقس شديد البرودة في هذا الوقت من السنة، ولا يمكن النوم في الهواء الطلق: وضعتُ هذا الغطاء في حقيبتي لاإراديّاً.

مهما يكُن، أخرجتُ الغطاء. وبما أنّ ثيابي المشبعة بالماء أصبحت كومةً يتصاعد منها الغبار تحت قدميّ، لففته حول جسمي. وجدتُ صعوبةً في التنفّس، ولا شك في أنّني سأصاب بذات الرئة، وفي رأسي دويّ، ولا أشعر أنّني بحالٍ جيّدة ابداً. ركلتُ ثيابي بقدمي؛ وشعرتُ بغضبٍ شديد لا جدوى منه، مع أنّ أمّي لم تفعل لي شيئاً.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle **تأمّلتني بانتباه، ورأسها مائل جانباً. كنت واقفاً في وسط الغرفة، والماء يسيل من شعري، وأنا مقمّطٌ**

بغطائي. كان بإمكانها أن تناولني منشفة، ولكنّها لم تفعل شيئاً. حتّى أنّها رسمت ابتسامة ساخرة ربّما، - أو ابتسامة عاديّة - وأعتقد أنّ ما تهيّأ لي هو حقيقة. دخلت الغرفة. وفتحتْ الخزانة وعادتْ وذراعاها محمّلان بثياب أعرف أنّها لوالدي. لم أرَ تلك الثياب منذ سنوات، منذ مراهقتي، في آونةٍ كان أبي فيها شابّاً ويملأُها تماماً. هنالك كنزة صوفيّة رماديّة داكنة مزركشة بالأحمر، وقطنيّة لا يمكن تحديد لونها، وبنطال مشبّك لا بدّ من أنّه كان كاكيّاً أو أسمر فاتحاً مثل البزّات البريطانيّة تحت شمس المستعمرات، وأصبح الآن باهت اللون بسبب الغسل المتعاقب. ولكنّ الألوان ليست المشكلة. المشكلة هي أنّني، بعد أن أرتديت هذه الثياب بخَرَق، محرجاً، لأنّ أمّي لم تعد تدير لي ظهرها، لاحظت أنّها تناسبني تماماً، كأنّها صُنعت لي. مع أنّ ذلك ليس هو الحال. إنّها مخصّصة لوالدي، ابتيعت له منذ عشرين عاماً أو أكثر. ومع أنّي كنت فرحاً لشعوري بالدفء في ثياب جافّة ودافئة على جسدي، كان شعوراً غريباً أن أجد نفسي في ثياب تناسبني إلى هذا الحدّ مع أنّها لآخر.

- هذا ما ظننت، قالت أمّي. إنّه قياسك بالضبط.

لم آكل شيئاً طوال النهار؛ فقد فوّتُّ فطور السفينة، وخبزه الصغير بالزبدة الدانمركية، وحليبه الكثيف وقهوته، و لم أُدخِل في جوفي حتّى «كويك لانش» أو شوكولا بالحليب من عند «فريا»، والثياب الدافئة خدّرتني وأنعستني و جعلتني أهذي كما لو أنّني ثمِل.

- هلّا نأكل شيئاً؟ قلت. ألديكِ ما نأكله؟

- بالطبع لديّ.

- فلنأكل إذاً.

نظرت إليّ، ثمّ توجّهتْ إلى الثلّاجة. أحضرتُ صحوناً وأكواباً من الخزانة، كما كنتُ أفعل وأنا صغير وخدوم، وهي هناك، ثمّ مسّدتُ الشرشف بيديّ ووضعت لوازم المائدة. وهي كانت تقلي بيضاً، وسمعتها تدندن أغنية هادئة لـ«إلفيس»

Are you lonesome tonight?

(هل أنت وحيدة الليلة)؟ وتقلي لحم خنزير، وتحضّر خبزاً محمّصا في جهاز التحميص المعدنيّ الذي يحتلّ طاولة العمل منذ الأزل، وأدارتْ جهاز التهوئة القوي إلى حدّ لا يمكن لنا معه الكلام. وهذا ما يناسبني تماماً.

جلسنا لتناول الطعام، وأشعرني الجلوس بالراحة. أغمضتُ عينيّ ثمّ فتحتهما من جديد. أشعرني تحريك أجفاني بالتعب، وكأنّني أطوي قطع كرتون. رفعت كوبي ورشفتُ جرعةً كبيرة من القهوة. لم أشرب شيئاً لذيذاً إلى هذا الحدّ منذ زمن.

كانت تنظر إلى يديّ.

- ماذا حدث لك؟ سألت.

وضعتُ كوبي وخفضت بصري نحو يدي اليمنى. مفاصلي حمراء ومتورّمة قليلاً. شددتُ قبضتي ثمّ أرخيتها، فآلمني ذلك. وشرحتُ لها ما حدث.

- يا إلهي، «أرفيد»! منذ متى تتسلّى بهذا النوع من الأمور؟

- لستُ أتسلّى بأيّ شيء على الإطلاق. أراد قتلي. ما إنْ لمحني عند البار، حتى قرّر أنّ يقضي عليّ.

كنّا قد أنهينا صحنينا.

- أتريدين مهضماً؟ قلت. كلفدوس؟

رسمتُ ابتسامةً عابثة، لأنّ ذلك ليس جدّياً، إذ ما زالت الساعة الواحدة من بعد الظهر.

- بكلّ سرور. ولكن لنتناوله على الشرفة، إذاً.

وفاجأني جوابها.

- في هذا الفصل؟ ألن نشعر بالبرد؟

- ليس علينا إلّا التدثّر بالبطّانيات؟

حسناً. ليس علينا إلّا التدثّر بالبطانيات. نهضتُ عن كرسيّي، وأمسكت الزجاجة بروح حماسية، ثمّ أخذت كأسين من المطبخ، من الخزانة التي خلفي، وخرجت إلى الشرفة. وضعت الكأسين على طاولة التخييم، وسكبت فيهما جرعتين لا بأس بهما، وعدت إلى غرفة الجلوس، وهي ذهبت لتحضِر البطّانيتين. أخذتُ واحدة ونفضتُها قليلاً، ثمّ جلسنا، كلّ منّا على كرسيّ، متدثّرَين جيّداً، لنشرب الكلفدوس. كانت قد لبست قفّازيها الصوفيّين. وكاد البرد يجعل البخار يتصاعدُ من فمينا.

أشعَلَتْ لفافة تبغ، وشممتُ رائحة صوفٍ يحترق. ولكنّها بقيت صامتة ولم تمدّ يدها إلى كأسها، ولم أشأ أن أشرب من دونها. بأصابعي المتخدّرة، أخرجت العلبة الزرقاء من جيبي. لففتُ سيجارة ودخّنت بصمت. وبعد قليل انحنيت إلى الأمام لأنظر إلى المرج الواسع الذي يمتدّ خلف أرضنا، حتّى مزرعة أبعد قليلاً. في الماضي كان مرتعاً للخيول، والعجول أحياناً؛ في الزمن الغابر، كنت أطيّر هناك طائرات ورقيّة، ولكن اليوم لم يعد هنالك سوى الأشواك، والعشب مرتفع إلى حدّ أنّه لا يمكن المجازفة والدخول خلاله إلّا بالنسبة إلى أيّلٍ طويل الساقين.. وكان هنالك أرانب برّية وقنافذ وطيور قطا وصغارها، وقد كبروا الآن بلا ريب، وكمٌّ كبير من القوارض، وبواشق في السماء، وسقاوات تظهر فجأة من العدم، وصقور تبدو وكأنّها معلّقة في الفضاء وتهبط فجأة كالقذائف، وفي المساء كان هنالك طيور بوم قابعة في السنديانة، صامتة وتقتل فرائسها بالنظر. وفي الليل المظلم كان سمّور يركض بين الأشجار حتّى يصل إلى سقفنا، ونسمعه بوضوح. وكان لكلّ الحيوانات ما يكفل لها الغذاء.

ألقيتُ عقب لفافتي في العشب، ثمّ رفعت كأسي قائلاً: «نخبك» وشربت جرعةً، في حين أنّها لم تمدّ يدها إلى كأسها بعد. عندذاك قلّدتني: - آه، نعم، نخبك يا «أرفيد»!

ابتلعَتْ جرعة كبيرة، وانتابتها نوبة سعال.

- أوه، كم هو قويّ! ولكن كم هو لذيذ! وكم هو لذيذ القول بأنّه عليّ الوصول إلى هذه السنّ لأذوق هذا!

ثمّ بقينا بلا حركة. لم تقل شيئاً لوقتٍ طويل. تنفّستْ بانتظام، مصدرةً صوتاً أجشّاً؛ وإذا ما أرهفنا السمع، نلاحظ أنّها تركّز بشدّة لتتمكّن من التنفّس. كانت تملأ رئتيها بالهواء، ثمّ تفرغهما، وأنفاسها تهدهدني. كنّا نصف ممدّدين على كرسيينا القابلين للتعديل، متدثّرين جيّداً ببطانيتينا؛ ولا يظهر منّا سوى الرأس، واليد اليمنى جاهزة لإمساك كأس. صرت أتخيّل أنّنا في مصحّ «غليتري»، في «هاكادال»، في النرويج، على الشرفة، مع إطلالة على الوادي. أو في مكانٍ ما في سويسرا، في جبال الألب. ولكنّ أمّي لم تكن تعاني من السلّ، ولا أنا، إذا أمكن القول إنّني أعاني من شيء ما. مع أنّي كنت أشعر أنّي مصاب بعلّة من العلل.

- أتشعرين أنّك مرتاحة؟

- نعم، قالت.

- أنا أيضاَ.

- أتذكر أخاك الصغير؟ سألتْ فجأة.

أخي الصغير، فكّرت. ولماذا لا أذكر أخي الصغير؟ ولماذا تطرح عليّ هذا السؤال؟ خفت؛ هل حدث شيء لأخي الصغير؟ لا بدّ من أنّه في صحّة ممتازة؛ هو في النرويج، ينهي تدريبه ليصبح سفّاف صفائح زنك؛ ولم يكن مثلنا نحن، إخوته. لم يشأ الذهاب إلى الثانويّة، لأنّه يكره المـدرسة؛ كـان مصـاباً بـعسر القـراءة والفهـم، ولا يقرأ كتاباً مطلقاً، ولكني كنت أحبّه كثيراً. هو أخي الصغير، الأخير، وليس الذي يليني والذي مات.

ثمّ فهمت ماذا أرادت أن تقول. كان هنالك كلب في المرج، يسير وقوائمه مستوية خلال الأعشاب المرتفعة. تقدّم وهو يقفز قفزات صغيرة، خمسين سنتيمتراً تقريباً؛ هو كلب ألزاسيّ ويبدو أنّه يتبع أثر حيوان يركض تحت النجيلات و الأشواك. رأيت مرّة ثعلباً يقفز هكذا، وقلت في نفسي إنّ ذلك أمرٌ غير مألوف. ولكن يبدو أنّي كنت مخطئاً.

- تقصدين الكلب؟

- بالضبط.

كلّ عام عند وصولنا، كان كلب ألزاسي يدعى «تيدي» ينتظر أخي الصغير خلف السياج. «تيدي» يعرف تماماً متى نأتي، لديه حاسّة سادسة يملكها الكلاب وحسب، ومنذ الصباح يصير مهتاجاً؛ راغباً في الخروج، ويبقى ملصقاً خطمه بالسياج، حتّى اللحظة التي نصل فيها إلى الشاليه، في سيّارة الأجرة أو في سيّارتنا الخاصّة.

عندما نفتح الأبواب، يثب «تيدي» عبر السّياج، ويرتمي على أخي الصغير ويوقعه. ويتمرّغ أخي الصغير و«تيدي» أرضاً، ثمّ ينهض ويسرع إلى الشاليه ليغيّر ثيابه. ثمّ يعاود الظهور منتعلاً حذاءً رياضيّاً ومرتدياً سروالاً قصيراً، وينزلان معاً إلى الشاطئ راكضَين. ويكملان بخطوات سباقيّة حتّى «ستراندباي» في الشمال، وهو ما يشكّل مسافة كبيرة. بعد ساعتين، نراهما يعودان بسرعة، سعيدين ومنهكين؛ ويسيران بمحاذاة السيّاج ويرتميان جنباً إلى جنب على العشب، وأنفاسُهما تحدث أصواتاً عالية. ويتكرّر الأمر كلّ يوم تقريباً. كان يعشق هذا الكلب.

- هو أكثركم وسامةً، قالت.

ولا شكّ في أنّها على حقّ. وإن بدا لي ظلماً أن تصنّفنا وَفق هذا المعيار.

- ولكن ليس ممكناً أن يعيش «تيدي» إلى الأبد. وأضافت،. للأسف.

- نعم. للأسف.

قلتُ في نفسي إنّ الأمر صحيح: أخي وسيم. في أحد الأيّام، عند بوابة «كارل جوهانز»، دنت منه امرأة لتصوّرها أختها معه. توقّف أناس للنظر إليهم، وعندما أخبرنا مغامرته، احمرّ وجهه. ولكنّي في الوقت الحاضر أذكر فقط شعوري بجسمه مشدوداً إلى جسمي حين كان صغيراً، وأنا أحمله بين ذراعيّ، أينما أذهب؛ جسمه الصلب، وثقته بي، والكلمات القليلة التي يكرّرها من دون توقّف. كانت تلك الكلمات الوحيدة التي يعرفها في ذلك الوقت، واسمي واحد منها. ولم أشأ أن يُفَرَّق بيننا.

- لن يتعلّم يوماً المشي بشكل صحيح، تقول أمّي. ضعه على الأرض، بالله عليك.

ولكنّي لم أُرِد ذلك، ولا هو أراد.

14

فرغَ كأسانا، فنهضتْ بمشقّة وطوت بطانيّتها؛ كانت متعجّلةً العودةَ إلى غرفتها. أطبقت أجفانها، ثمّ فتحت عينيها من جديد، ونهضتُ لأسدّ عليها الطريق.

- أتشعرين بالانزعاج؟

- نعم.

- هل يمكنني أن أفعل شيئاً من أجلك؟

فرفعت يدها بحركة تعبّر عن الرفض.

- ما يجب فعله، سأفعله بنفسي. ابتعد، قالت دافعة إيّاي.

- ولكن يا أمّي، لماذا لا تدعيني أساعدك؟ سأفعل ذلك بكلّ سرور.

- بالفعل، هذا أقلّ ما يمكن فعله. ولكن هذا غير وارد. فلنقفل الموضوع.

فلنقفلِ الموضوع. كانت عيناي وساقاي تؤلمني. دفعتني وعادت إلى الداخل، ثمّ دخلتْ إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها. وران الصّمتُ كلّيّاً.

تبعتها، وبقيت واقفاً كالأبله أمام الباب المغلق. التفتُّ نحو المرآة، وما رأيته فيها لم يعجبني. لم تعجبني نظرتي، فقد كنت متوتّراً. خرجتُ من جديد لأحضر الكأسين، ووضعتهما على طاولة العمل؛ ثمّ في المجلى. أسلتُ الماء الساخن، وأضفت سائل الجلي وغسلتهما. غسلت كذلك الأكواب والصحون المتبقّية من وجبة الغداء، وغسلت كلّ ما يحتاج إلى الغسل، ورتّبتُ الأواني في

الخزانة ومسحتُ طاولة العمل، ومشمّع المائدة بعناية. ولم يعد هنالك من عمل أقوم به.

ذهبتْ للنوم بسرعة إلى حدّ أنّها نسيت كتابها «حدّ الموسى». هذا أمر غير معتاد، ولكنّها لم تنادِني لأحضره لها.

اقتربتُ من النافذة الزجاجيّة، ثمّ فتحتُ الستائر ونظرت إلى المرج. لم أرَ أيّ حيوان، ولا أيّ عصفور، ولا أي شيء مثير للاهتمام. اخترق نور الشمس المنخفضة الغيوم، وأضاء الأعشاب العالية المصفَرَّة بأشعّته العموديّة مولّداً ظلالاً مترامية. ارتفعت في المزرعة دوّامات من دخان المدفأة. لون مستودع الحصيد كان أبيض طبشوريّاً في النور الساطع. وصل رجلٌ يقود درّاجة ذات محرّك إلى الطريق. كان يلبس خوذة، ولكنّه لا يقود بسرعة، والنور منعكسٌ من المرآة. وفي الهواء الخريفي، يصلني صوت محرّكه بوضوح عبر النافذة، حيث وقفتُ، بين الستائر المُزاحة. توجّهتُ نحو الموقد وأضفت إليه حطبتين لإذكاء النار، ثمّ انتعلت جزمتي، التي كنت قد وضعتها هناك لتجفّ والتي ما زالت رطبة. شددتُ الرباط حول كاحلي، واجتزت الشرفة، ووجدت نفسي على العشب تحت شمس كانون الأوّل/ديسمبر الباردة والمنخفضة.

راقبتُ المرج. الدخان لا زال يتصاعد من المدفأة، ولكنّ الدرّاجة اختفت. التفتُ، ثمّ مشيتُ والسياجَ حتّى الدرب الموصل إلى بيت «هانسن» واندفعتُ داخل كوّة. بعد أن عاودت الظهور من الجانب الآخر، التففت حول الشاليه، الذي لم يكن أكبر من كوخ صغير. وجدته أمام ورشته الصغيرة، منحنياً فوق محرّك خارجيّ ثبّته على حوامل. سمعني؛ وانتصب حاملاً بيده مفتاحاً إنجليزياً، ثم التفت صوبي وهو يبتسم ابتسامة غريبة، لطيفة وخالية من الأسنان.

- إلى أيّ حدّ تشبه والدك!

جعل صوته الهواء يهتزّ.

- أعرف ذلك.

- لا سيّما بهذه الثياب. للحظةٍ ظننتُ... نعم، فهمتَ ما أعني.

فهمتُ، ولكنّ مخزوني من الإجابات قد نفذ منذ زمن طويل. جلس على حافّة الشرفة، ثمّ وضع مفتاحه الإنجليزيّ محدِثاً ذلك الصوت بلا صدى، الذي لا تحدثه إلّا المفاتيح الإنجليزيّة. جفّف يديه بخرقةٍ برتقالية، دسّها في جيبه الخلفي.

- لن أتمكّن أبداً من إصلاح هذه الحثالة، قال.

- ما خطبه؟

- في الحقيقة، لا أعرف. جرّبت كلّ الطرق. إنّه يرفُضُ أن يدور. سأضطرّ إلى التجذيف.

لم يكن «هانسن» رياضيّاً، هو يشبه بالأحرى «آندي كاب»، ولكنّه أكثر إثارة للحنان. كان يضعُ في النهر بانتظام أقفاصاً لصيد الأنقليس ويصطاد أحياناً سمك موسى. كان يستخدم مركباً صغيراً من نوع دوريس، محرّكه مثبّت في الخلف. وهو يمتلكه منذ زمن بعيد. «هانسن» من مؤيّدي البساطة في الأمور: محرّك خارجيّ قديم، ودرّاجة صغيرة ذات محرّك. هي أشياء قديمة، مستعملة، غير معقّدة، اشتراها عند الاقتضاء من زملاء قدماء في السكّة الحديديّة. بالنسبة إليه، شراء الجديد لا معنى له. لم يملك المال يوماً، وأعتقد أنّه لم يبالِ بذلك مطلقاً.

- من الأفضل عدم المبالغة في الجهد الجسديّ، قلتُ.

لم يكن تعليقي عظيماً، ولكنّ أفكاري نفدت، وعاد الصمت يسود. ثمّ التفت «هانسن» إليّ.

- قل لي، يا «أرفيد»؛ أصحيح ما أُخبرتُ به؟ أنّك ستطلّق؟

- نعم. هذا صحيح.

- إذاً. تقبّل تعازيّ.

- بالله عليك! لا أعتقد أنّ الطلاق مميت.

- يحدث ذلك لبعض الناس، ومثل هذه الحالات معروف. سأحضر زجاجتيْ بيرة، لنشرب نخب الحزن.

نهض محدثاً أنيناً، ثمّ اجتاز الشرفة أمام المدخل، التي تمّ إصلاحها ودخل إلى الشاليه. كانت الخرقة البرتقاليّة تومض على ظهره بحدّة، كأنّها عَلَمٌ للإشارة، كالتي يستخدمها العمّال لنقل المتفجّرات. أو لمتابعة الفكرة: لينين في مقطورته في قطار السكّة الحديدية، متّجهاً نحو بلده الأم، محطّة «فينلاند»، في «بيتروغراد». بدا «هانسن» وكأنه يصرخ: انتبهوا، انتبهوا! مع أنّه ليس كبيراً في السنّ إلى حدّ أن يكون قد عاش تلك الحقبة، وهو عائد الآن

حاملاً في كلّ يد زجاجة بيرة، من النوع الخفيف والزهيد الثمن؛ ناولني واحدة، باردة البخار.

- عاش الشعب! صرختُ. ثمّ: انتبه، هناك!

ورشَفنا جرعةً كبيرة .

- آه، إنّه شعور جيّد، قال «هانسن».

كنتُ جالساً على حافّة الشرفة، والهواء يخترق جسدي ويداي باردتان. الأشجار من حولنا أضحت عارية. أشجار البندق والسنديان والدرّ عارية، وأشجار الصفصاف والبتولا عارية، والخوخات التي أجهل عمرها، والأجناس الأخرى كذلك، كلّها عرّتها الريح من أوراقها. كانت تهبّ من الشمال، من «سكاغن» والنرويج الثلجيّة البرودة والصوّانيّة، حيث يدخل أبي الغابةَ عبر شُعابٍ يعرفها، لأنّه يريد أن يشغل جسمه بشيء ما.

أشار إليّ «هانسن» أن أقف، بحركة ودودة.

- تعالَ، سندخل إلى «كريستال بالاس». هكذا سيمكننا خلع السترة إذا شئنا.

وبالفعل، أمكننا ذلك. كانت المدفأة الكهربائيّة تتوهّج خلف المشربيّة، وترسل موجات من الحرارة داخل الغرفة. جلسنا كلّ واحد في كرسيّ بلاستيكي أبيض، ممسكَين زجاجتينا الخضراوين في يدينا. رفعتُ زجاجتي وشربت جرعةً كبيرة؛ وبدت لي هذه الجرعة من البيرة ألذّ من أيّ شيء تجرّعته منذ زمن، باستثناء الكلفدوس. يمكنني أن أشرع في الشرب، أن أشرب كثيراً، كلّ يوم، لأشعر كما أشعر الآن. أن أغمض عينيّ وأدع الكحول يسري في جسدي. وأغمضت عينيّ. كان «كريستال بالاس» هادئاً، والحرارة مرتفعة، ولا نسمع إلّا فوران البيرة، وبضع نوارس فوق الأشجار.

- أمّك، قال «هانسن».

- نعم؟

أبقيت عينيّ مغمضتين.

- إنّها مريضة.

- أعرف. لذلك أنا هنا.

حلّ الصمت. سكتَ «هانسن»، وأكملتُ أنا: - لذلك أتيت. لماذا تظنّ أنّي آتي إلى هنا في هذه الآونة من السنة؟ لسنا في الصّيف. لستُ هنا لأتشمّس على الشاطئ.

- كلّا، صحيح، إنّنا لسنا في الصّيف.

فتحتُ عينيّ، فرأيت على الحائط صورةً مؤطّرة للسفينة الشراعيّة ذات السواري الثلاث «كريستيان راديش»، أشرعتها مفردة، مبحرة في المياه الزرقاء لخليج «جاسكونيا»، أو ربّما في بحر الشمال، متّجهة نحو «نيو كاستل». أهدتها أمّي «هانسن» بمناسبة عيد ميلاده الخمسين. قرب الصورة، هنالك رفّ يضم روايات عدّة لـ«شتاينبك»، بينها طبعة جميلة بجزأين لـ«شرق عدن». أو «شرق الجنّة»، كما يُسمّى باللغة الدانمركيّة. وهنالك أيضاً «ثلاثة رفاق» لـ«إريك ماريا ريمارك». قرأته وأنا لمّا أبلغ العشرين من عمري، مثل «السماء لا تحابي أحداً». يتحدّث هذا الأخير عن سائق سيّارة سباق والمرأة التي يحبّها؛ كانت مصابة بالسلّ وتمكث في جبال الألب السويسرية، في مصحّ يزورها فيه. اسم المصحّ «بيلّا فيستا». في معظم روايات «ريمارك»، هنالك مصابةٌ بالسلّ، إلى حدّ أنّ الأمر يغدو مملّاً.

نهضتُ، وزجاجة البيرة في يدي، واقتربت من الرفّ. تناولتُ «ثلاثة رفاق» ونظرت إلى غلاف طبعته الدانمركيّة، وعليه رسمٌ ملوّن لـ«كارل، شبح الطريق»، أو Karl, das chausseegespenst, كما كان اسمه في كتيّب الألمانيّة خاصّتي، في المدرسة. هو اسم سيّارة السباق التي يملكها الرفاق الثلاثة الذين تتكلّم عنهم الرواية. كما في «الفرسان الثلاثة»، حيث أن الفرسان ليسوا ثلاثة، بل أربعة. الرابع هو «دارتانيان».

- كيف تشعر؟ سأل «هانسن».

- كانت متعبة. ذهبت لتنام.

- هذا مفهوم. هل يزعجك أن أفعل مثلها؟

- أن تفعل ماذا؟

- أن أذهب لأنام.

- أنت مريضٌ أيضاً؟

- لا، أبداً. أمّا متعبٌ، فبلى. لم أعد في سنّك.

- بالطبع، اذهب للنوم إذا شئت.

خطوتُ خطوةً نحو الباب، وتساءلت: هل يريدني أن أذهب؟

- إذاً سأذهب، قال «هانسن». الحمد لله أنّ ذلك لا يزعجك.

نهض، ثمّ أفرغ البيرة في جوفه دفعةً واحدة.

- ليس عليك إلّا البقاء هنا، في الدفء. أنت مرحّب بك دائماً هنا، قال وهو متوجّه نحو غرفة نوم «كريستال بالاس»، وخرقته الثوريّة في جيبه الخلفيّ.

أنا مرحّب بي دائماً. كنت هناك، وزجاجتي في يدي. تساءلت إن كنت سأذهب أو أبقى قليلاً لأقرا بضع صفحات من «ثلاثة رفاق». ولكنّ الهواء لا يتجدَّد، والحرارة مرتفعة جدّاً، وهذا الكتاب لم يعنِ لي شيئاً. شعرتُ بأنّني خُدِعت.

غادرتُ «كريستال بالاس» حاملاً زجاجتي. يمكنني كذلك العودة إلى النرويج، فكّرتُ. لا أحد يرغب بي هنا.

قطعت الشرفة الصغيرة التي جهّزها «هانسن» بنفسه، ثمّ مررتُ أمام الحوامل المثبّت عليها المحرّك الخارجيّ. وأنا ألتفت، رأيتُ طيرَ تُدرُج واقفاً لا يتحرّك في الظلّ المخطّط لشجيرةٍ عارية؛ وريشات ذيله الطويلة تشير باتجاه الطريق؛ كان بنيّاً وأحمر وأخضر ويُظهر هدوءاً بدا لي مهدِّداً. فقط عينه اللامعة تتحرّك، بشكلٍ لا يكاد يُرى، وسط بقعةٍ حمراء، وتبِعَ بنظرته كلّ خطوةٍ من خطواتي. لقد أخافني.

- اللعنة، قلت بصوتٍ عالٍ. إنّها إشارة.

وأنا أجتاز السياج، شعرتُ بعينه تخترق ظهري، حارقة.

15

كان يوم سبت، قبل منتصف الليل بقليل. وأنا أجتاز شارع «تروندهاينسفاين» نزولاً باتّجاه وسط المدينة، بعد أن احتفلنا بعيد ميلاد أمّي الخمسين. قرّرت أن أمشي حتّى ساحة «كارل برنرز»، مع أنّ بإمكاني الوصول إليها بالمترو في أقلّ من ربع ساعة. ولكنْ كان عليّ أن أمحو هذه الحفلة من جسدي.

ساحة «كارل برنرز» بعيدة والظلام مخيّمٌ، ولكنّ المصابيح تضيء الطرقات؛ بعضها أصفر وبعضها برتقاليّ، وبعضها الآخر يرسل نوراً أزرقَ وبارداً.

كثيراً ما قطعتُ هذا الطريق على الأقدام، ولكنّي كنتُ أجتازه باتّجاه أوسلو، عندما كنت لا أزال أعيش مع والديّ؛ أحبّ المشي على الجهة اليمنى، باتّجاه مسير السيّارات. ولو مشيتُ في الاتجاه المعاكس، لشعرتُ أنّ كلّ سائقي السيّارات يتفحّصونني؛ ويمكن أن ينزلوا زجاج نوافذهم ليشيروا إليّ بالاصابع، كأنّني الإنسان الوحيد في العالم الذي يمشي في الاتجاه الخاطئ، مجازفاً بحياتي.

ولكنّي لم أعد أعيش مع أهلي؛ غادرتُ منزل العائلة منذ ثلاث سنوات. والآن أمشي باتجاه وسط المدينة في ليلةٍ خريفيّة؛ بعد عيد ميلاد أمّي الخمسين، عائداً إلى إحدى الضواحي القديمة لأوسلو. مشيتُ بمحاذاة مدينة «أفرول»، واندفعت داخل ممرّ المشاة تحت مستديرة «سنسن»، واجتزت حيّ «تورشوف»، حيث توجد مدرسة «روزنهوف»، الرماديّة، المظلمة، على طرف طريقٍ جانبيّ، إلى يميني. كنت طالباً في هذه المدرسة لمدّة سنتين، حيث يشبه المبنى سجناً من سجون القرن الثامن عشر، ويذكّرني بسجن «الباستيل»، ولا أحمل ذكريات طيّبة عن السنتين اللتين أمضيتهما فيه. ثمّ

تركت مدرستي وشبابي خلفي، وبدأت أهبط المنحدر الطويل باتجاه ساحة «كارل برنرز».

عندما وصلتُ أخيراً، قلتُ في نفسي إنّها ساحة جميلة. أردّد ذلك في نفسي دائماً. إنّها تشبه شمساً، طرقاتها تشعّ في كلّ الاتجاهات، كإحدى ساحات العواصم الكبرى بين الحربين العالميّتين: برلين، ربّما برلين، «إيريش كستنر» في «إميل والبوليس السرّي»، أو «زيوريخ»، أو «بال»، أو «بودابست». تشكّل فيها خطوط الحافلات والقطارات شبكةً مرسومةً بعناية من أقواسٍ فولاذيةٍ بين البلاطات. وفي السماء، بعيداً من السير، بعيداً من دواليب الترامات والحافلات، كانت هناك شبكاتٌ مشدودةٌ من الأسلاك على أبراج بين المباني، من الجهتين، كسقف يمكن للمرء المشي تحته دون أن يتبلّل؛ هكذا كنت أشعر.

الساحة عالم بأكمله. نحو الغرب، تشكّل «كريستيان ميشلسن غايت» جادَّة ملوكيّة بزيزفوناتها المتراصفة بشكلٍ منتظم، أو بأشجارها العارية والرماديّة السامقة نحو السماء المعتمة، مثل هذه الليلة. نحو الشرق، يصعد شارع «غرينسفاين» منحنياً، حتّى محطّة المترو حيث يختفي. على المباني المطلّة على الساحة، هنالك إعلانات مضيئة: في «غرنسفاين»، وفي «فينماركغاتا» وأيضاً في الجهة المقابلة، قرب محطة الوقود. وفي «تروندهايمسفاين»، قرب المكتبة، هنالك سينما «رينغن»، بمدخلها الذي تعلوه مصابيح من «النيون» حمراء. ولكن بعد الفيلم، كنّا نخرج في «ترومسوغاتا»، قرب مقهى «برغرسن»، ونحن شبه عميان.

وأنا أجتاز الساحة، شعرت أنّني بحالٍ أفضل. لم يعد هناك طنين في رأسي. كان الوقت متأخّراً، والليل قد حلّ، والظلمة مخيّمة، وريح الشمال تحمل زوابع من الثلج، وسيّارات قليلة تسير باتجاه وسط المدينة، حتى أنّ بإمكاني المشي في وسط الطريق، على بلاط الشارع وسكك الترام، من دون انزعاج. الساحة لي، ومفترق طرق العاصمة لي. الساحة الحمراء، هكذا كانت تُدعى قبل الحرب، لأنّها فريدةٌ في هذا الجزء من المدينة، إلى الشرق من النهر. وظلّت تسمّى هكذا في السبعينيات، إذْ يُقال إنّ الإشارات الضوئية فيها لا تصير خضراء أبداً.

في بيت الدرج خاصّتي، استقبلتني رائحة سائل جلي منعشة. في الطابق الأوّل أدرتُ المفتاح في الباب ودخلتُ شقّتي. تركتُ الباب ينغلق خلفي، من دون أن أحدث ضجّة. لم يُسمع سوى الصوت الخفيف لفصّال الباب.

عرفت في الحال أنّها هنا، وأنبأتني بحضورها قشعريرة في معدتي. ولأمنع هذا الإحساس من التلاشي، ولأحافظ عليه أطول وقتٍ ممكن، خلعت حذائي وذهبت إلى المطبخ مباشرةً من دون أن ألقي كلمة «مرحبا!» صوب باب غرفة الجلوس المشقوق، حيث تُلمح كنبة النوم خلف رفوف الكتب.

كنتُ قد أعطيتها المفاتيح. يمكنها الذهاب والقدوم كما تشاء، ويمكنها المكوث لإنجاز فروضها عندما تشاء. يمكنها أن تأتي في الصّباح المبكّر بالمترو وتتناول الفطور معي. يمكنها أن ترتاح من عائلتها وتبكي بغزارة، ويمكنها أن تتوقّف في أثناء طريقها إلى المدرسة، لأنّ عليها دائماً النزول في «أوكرن» و الإسراع إلى خلف المخبأ لتتقيّأ، وفي «هاسل»، تؤجّل ذلك. وعندما تمضي الليلة عندي، وأرافقها إلى المترو وأحياناً حتّى المدرسة، كانت تتقيّأ خلف صفّ أعمدة مكتبة «دايشمان». في إحدى المرّات، انتظرتها قرب المترو، قرب المبنى الذي تعيش فيه، ورأيت والدتها تصفعها لأنّها ارتدت المِعطف الذي منعتها من ارتدائه؛ لبست معطف أخيها الأزرق لتلاقيني. كنّا نريد الذهاب لمشاهدة «فلوت»، الذي تمثّل فيه «جين فوندا» و«دونالد سوثرلاند»، ويُستأنف عرضه في سينما «فروغنر». أنا شاهدته من قبل، أمّا هي فلم تشاهده.

من دون إحداث صوت، وضعتُ مفاتيحي على طاولة العمل. وبلا صوت كذلك، فتحتُ الثلّاجة. سكبتُ كوباً من عصير الليمون، ثمّ جلستُ إلى الطاولة حيث وُضع الكتاب الذي كنت أقرأه في ذلك الوقت، «البؤساء» لـ«فيكتور هوغو». أنهيتُ القسم الأوّل و جزءاً كبيراً من الثاني.

شربتُ العصير وأنا أفتح صفحات الكتاب لأجد المقاطع التي قرأتها في الصّباح نفسه، في سريري؛ كان يوم سبت وبقيتُ تحت البطّانيّة حتّى الحادية عشرة والنصف. هذه ليست عادتي، ولكن بدا لي أنّ عليّ أن ألتهم أكبر عدد ممكن من الصفحات قبل أن أبدأ نهاري، قبل اللحظة الحاسمة التي عليّ فيها ركوب المترو والذهاب إلى «غرورودالن»، البعيدة مسافة ستّ محطّات، للاحتفال بعيد أمّي الخمسين.

خلعتُ ثيابي في المطبخ، وضعتها على كرسيّ وذهبت إلى الحمّام البالغ الصغر. اغتسلتُ من الرأس إلى أخمص القدمين لأتخلّص من آثار تلك السهرة، ثمّ نظّفت أسناني و تسلّلت حافي القدمين إلى الصالون. توجّهت نحو كنبة النوم متلمّساً طريقي في الظلام، متجاوزاً الرفوف والطاولة المزحمة بالكتب. صورة «ماو» على الحائط ولكنّي لا أراها في الظلام. اندسستُ بحذرٍ تحت البطانيّة. لم تصمّم كنبة النوم لتسع شخصين، ولكنّا لا نحتاج إلى مساحةً كبيرة، وقلتُ في نفسي إنّها ستظلّ من دون شكّ نائمةً بين ذراعيّ وتستيقظ

في وقتٍ متأخّرٍ من الليل متسائلة أيّ ساعةٍ عدتُ إلى البيت. ولكنّ جسمها كان دافئاً جدّاً، وكان جسمي بارداً جدّاً إلى حدّ أنّ ذلك أيقظها مباشرةً. فالتفتت إليّ.

- هذا أنت؟

- بالطبع هذا أنا.

- حقّاً؟

- توقّفي، أنت تثيرين غيرتي.

- حقّاً؟

- بالطبع.

- نِعمَ الأمر.

- ليس هناك إلّا أنتِ وأنا، قلتُ. أنتِ وأنا فقط.

- آه نعم، صحيح. أنتَ وأنا، أنا وأنت والحزب الذي سأصير عضوة فيه أنا كذلك.

- نعم. إلّا أنّك ما زلتِ صغيرة السنّ قليلاً.

- ربّما. لكنّي لا أشعر بأنّني صغيرة.

- أعرف. بمعنى ما لستِ كذلك.

ولكنّها صغيرة. أصغر منّي بكثير. مع أنّني صغير في السنّ كذلك. استدرتُ نصفيّاً وفركتُ يديّ لأدفّئهما.

- أتشعرين؟ قلتُ وأنا ألمسها بحركةٍ خاصّة.

لم تُقاومني.

- أوه، كم هذا ممتع، قالت بصوتٍ خافت.

هذه الحركة هي شيءٌ نتشاركه وحدنا. إنه أمرٌ يجهله الآخرون، ونحن الوحيدان اللذان نعرفه. كنّا يافعيَن جدّاً في تلك الآونة، ولا نعرف الكثير عن الحياة.

- ليس لدينا الوقت الآن، قالت. أوه، كم هذا ممتع. إلى أين وصلّت؟

- صرتُ في مرحلةٍ متقدّمة. تقدّمتُ منذ المرّة الأخيرة التي أتيتِ فيها.

- آه، كم أنا سعيدة.

كنّا نائمين على ظهريْنا، كتفاً إلى كتف، يداً بيد، وننظر إلى السقف، السقف غير المرئي لأنّ الليل دامس، وكنبة النوم لا تكاد تسعنا، نحن الاثنين؛ هي محشورة إلى الحائط وأنا تتدلّى ساقي الشمال من الحافّة. شرعتُ أكمل لها رواية القصّة من النقطة التي وصلنا إليها في المرّة السابقة، لأنّني لم أكن قد قرأت بقيّتها؛ طلبت إليّ أن أسرع في إكمال الرواية، فمن الأفضل بكثيرٍ أن تسمعني أروي من أن تقرأ بنفسها؛ فعندما أروي ترى صوراً لا تبدو في وضح النّهار. سارعتُ في الرواية. والآن نحن مستلقيَان جنباً إلى جنب من جديد، وأحدّثها عن «جان فالجان»، الذي أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقّة لأنّه سرق رغيفاً. ولكنّه استغلّ حدوث حريق ليهرب، وغيّر هُويّته واسمه، وارتفع مقامه ليصبح رئيس البلديّة. وعليه أن يهرب من جديد لأنّ التّحرّي «جافير»، مفتّش الشرطة الحقود والغيور، عرفه.

كان ذلك في العام 1832، وفي ذلك المساء رويت لها كيف جال «جان فالجان» في سراديب باريس ومجاريرها، حاملاً «ماريوس» الغائب عن الوعي على ظهره. «ماريوس» الطالب الثوريّ، حبيب «كوزيت»، ابنته بالتبنّي، الغالية. وفي الطرقات، فوق رأسيهما، تدوّي الثورة، كان «ربع الدولة» هو الذي يحارب، والشعب هو الذي ينتفض، الشعب، والشعب مثلنا، يشبهنا. أو بالأحرى، نحن نريد أن نشبهه. الشعب يشيّد متاريس في الطرقات الضيّقة والأزقّة؛ كان ذلك قبل الجادّات التي أُقيمت فيما بعد، واسعةً إلى حدّ أنّه يصعب إغلاقها بالمتاريس. لأنّ هذا ما تصلح له المتاريس. في المقابل، يمكن للجيش التقدّم فيها بطوابير كاملة لقمع أيّ محاولة عصيان. فهذا ما تصلح له الجادّات.

لم تنم، كالأطفال الذين تُحكى لهم قصّة. بقيَتْ مستيقظةً تماماً، وعيناها الزرقاوان مفتوحتان على وسعهما في الظلمة، يداها دافئتان وفمها متعطّش، قالت: - لا شكّ في أنّ حمل «ماريوس» على الظهر كان ثقيلاً. كان «جان فالجان» قويّاً.

- نعم، بالتأكيد أنّه كان ثقيلاً. أنا ما كان بإمكاني القيام بذلك أبداً.

- يجب ألاّ تقول ذلك. أنت قويّ أيضاً.

- هل تظنّين ذلك؟

- ليس الأمر ظنّاً. أنا أعرف ذلك.

شعرت بالسعادة.

كنت متعباً بعد أن أنهيت مقطع اليوم، أو بالأحرى بعد انقضاء الليل. والتفتت إليّ.

- ألا يمكننا أن نأكل شيئاً الآن؟

- أريد أن أنام، إن كان هذا لا يزعجك. هذه السهرة أنهكتني.

- ألا تريد أنْ تحدّثني عنها؟ كيف كانت؟ هل أُعجبت والدتك بهديتك؟

- كلّا.

لم أشترِ هديّة. حضّرتُ خطاباً، ولكن في وقت إلقائه كنت ثملاً جدّاً.

- حسناً. لا بأس. ولكن أنا يجب أن آكل. الغريب أن الاستماع إليك يجعلني أجوع.

- كلي إذاً.

- وأنت؟ نَمْ إذاً، قالت وهي تداعب خدّي.

ثمّ تجاوزتني لتترك الكنبة. وقبل أن تقف، شقراء هيفاء وشابّة جدّاً، صرتُ في عالمٍ آخر.

16

في ذلك الصباح، تباطأتُ في السّرير قارئاً «فيكتور هوغو». في النهاية، عندما لم يعد بإمكاني التأخُّر، قرّرتُ أن أنهض. اغتسلت، ثمّ ذهبتُ إلى المطبخ، مبلّلاً وعاري القدمين. وتوقّفتُ أمام الطاولة حيث وضعتُ مخطوطة الخطاب. كتبتُ خطاباً بدل شراء هديّة؛ تلك هي الفكرة التي خطرت لي، أنْ أمدّ لها يدي. وليست تلك صورةً وهميّة فحسب، كنت سأفعل ذلك حقّاً. كنت سأتكلّم عن «ريو غراندي»، وأشرح أنّه يفصل بين عالمين، وبين حضارتين. وأقول كم هو كبير، وكم هو صعب اجتيازه، وكم أنّ المرور من ضفّة إلى أخرى أمرٌ معقّد، من الولايات المتّحدة إلى المكسيك، إلّا بالنسبة إلى قاطع طرق مستعدّ لفعل أيّ شيء وهارب من العدالة. وهكذا ليس غريباً أن يكون ذلك صعباً بالنسبة إلينا كذلك؛ فنحن مخيّمان كلٌّ على ضفّة، منذ زمن بعيد، ولا يمكن لأحدنا حتّى سماع الآخر وهو يصرخ، طالما أنّ المسافة بيننا كبيرة.

كنتُ سأقول: اسمه ال«ريو غراندي»، أليس كذلك؟ «ريو غراندي» يعني أنّه شاسعٌ وهائل. ثمّ كنتُ سأنبئها بالخبر الطيّب: أتعرفين يا أمّي، لقد جفّ النهر. ثم أقول لها ضاحكا: إنّها مفاجأة كبيرة، لم يستوعبها الخبراء بعد، لم يعد إلّا مستنقعاً صغيراً يمكن اجتيازه بسهولة، ففي الخريف لم تنهمر قطرة ماء واحدة، ولا في الربيع ولا في الصّيف. وأقول أخيرا: ليس هناك من شيء لا يمكن إصلاحه؛ سيترك كلّ منّا ضفّته ونلتقي في منتصف الطريق. ربّما تتبلّل أقدامنا قليلاً، ولكن لا بأس. هذا ما كنتُ سأقوله؛ وهذا ما كتبته على ورقتيّ الصغيرتيْ الحجم.

أخرجتُ ثيابي كلّها من الخزانة وبسطتها على الأرض. ليس عندي الكثير من الثياب، ولكن لا يمكنني ارتداء السترة القديمة التي ألبسها عادةً. اخترتُ سترةً داكنة من التويد أهدتها لي أمّي في أحد الأيّام لأكون مرتدياً ثياباً لائقة، بمناسبة دفن أحد إخوة أبي الكثيرين، وهو عمّي الذي بقي في شقّة

«فاليرينغا» بعد أن هربنا إلى «غرورودالن». كانت جدران الشقّة مشبعة برائحة رجلٍ وحيد، وتفوح فيها دائماً رائحة الطعام نفسه، أسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام، ورائحة القهوة نفسها، والتشميع نفسه، وسائل الجلي نفسه. هنالك قمصان وسراويل داخليّة لشخص واحد مرتّبة في الدرج الأوسط من الصُوان. أمّا في الدرج الأعلى، فهنالك ألواح شوكولا قديمة أصبحت بيضاء وفاسدة، وفي الأسفل جوارب مطويّة بعناية، مشتراة من مستودع «جيش الخلاص». عاش عمّي هناك حتّى وُجد ميتاً على كنبة غرفة جلوسه المزدحمة وغير المضاءة جيّداً، خلف الستائر المصفرّة التي لا تكاد تسمح بمرور قليل من أشعّة الشمس. ولكنّ ذلك حدث منذ عامين، ولم ألبس السترة منذ ذلك الوقت.

علّقت السترة على باب الحمّام. وطويتُ الورقتين الصغيرتين، ودسستهما في الجيب الداخليّ، ثمّ نزلت بالجوارب لأحضر بريدي. كان هنالك رزمة بنّية أرسلها نادي الكتب الذي أشارك فيه: «لمن تُقرع الأجراس»، لـ«همنغواي»، الجزء الأوّل. وهنالك أيضاً صحيفتاي والحوالة المعبّأة سلفاً لدفع الإيجار، الذي لا يزال مائة وسبعين كورونا.

كان يوم سبت. استقلّيت المترو عند ساحة «كارل برنرز»؛ لم يكن هنالك سوى بضع محطّات، «هاسل»، «أوكرن»، «ريسلوكا»، نصعد بعدها. نمرّ أمام برج «سيمنس» الأحمر؛ ونرى في الأسفل من الجهة اليمنى طريقَ «أوستري آكر»، وخطّ السكّة الحديديّة ومحطّة فرز «آلنابرو»، حيث تجري ببطء حافلات بضاعة متوازية على السكّة الحديديّة اللامعة، أو تبقى بلا حراكٍ بشكلٍ غريب في صفوف انتظار طويلة، وحيدةً ومهملة.

في الغرب، كانت الشمس لا تزال معلّقةً فوق التلال، ولكنّ قاع الوادي غارق في الظلّ. تلك أسوأ مرحلة من السنة، كلّ شيء مظلم ورطب؛ فوق محطّة الفرز، تعكس الغيوم نور المصابيح الخافت، ويمكن للمرء أن يضيع بين خطوط السكّة الحديديّة.

كنتُ أسمع دائماً قطارات البضاعة، خلال السنوات التي أمضيتها في «فيتفت»؛ ويصلني من النافذة المفتوحة صوت العجلات الفولاذيّة على السكك الفولاذيّة، والأزيز الطويل والغريب للمكابح. ثمّ تتطابق الحوافل، واحدة على الأخرى، محدثةً اصطداماً معدنيّاً. حينذاك كنتُ أقول في نفسي: يداً بيد، وكتفاً إلى كتف؛ أصواتٌ مؤاسية في الظلمة الصامتة.

قبل أن أصل إلى «فيتفت»، نهضت من مقعدي لأقترب من الباب. كان أمامي رجلٌ أعرفه بالشكل، وأحيّيه منذ زمن بعيد. هو والد أحد زملاء أخي في

المدرسة. أخي الذي يليني، وليس الأخير. حيّاني بحركةٍ من رأسه وفعلتُ مثله.

- مرحباً.

- مرحباً.

- لقد غيّرت مكان سكنك، على ما أظنّ؟

أكّدتُ ذلك.

- ولكنّك تنزل هنا، أليس كذلك؟

أكّدتُ مرّة أخرى، ثمّ توقّف القطار وانفتحت الأبواب. ولم أتحرّك. نزل، بينما بقيتُ متمسّكاً بالعمود الحديديّ. وانغلقت الأبواب محدثةً ضجّة. توقّف على الرصيف. التفت وألقى نظرةً مندهشةً عبر النافذة. وفجأة رفع يده، وبدأ يضرب على الباب صارخاً كلمات غير مسموعة. كان تعبير عن الاستياء بادياً على وجهه. هو غاضب لسببٍ ما. هذا صحيح: إنّه يستشيط غضباً.

ألصقتُ فمي بالنافذة.

- اذهب إلى الجحيم أيّها الأحمق. لفظتُ صامتاً محرّكاً شفتيّ.

وقلت في نفسي إنّه لم يعد ينقص إلّا لغة الإشارة. ولأعطيه حقّه، قمت ببضع حركات تعبّر عمّا في داخلي.

بقي الرجل متشبّثاً بالباب وانطلق القطار. اضطرّ إلى الإفلات، وعدتُ إلى الجلوس. وبقيت ملتصقاً بمقعدي حتّى «غرورود»، بعد أربع محطّات، وصدغي يطنّ ونَفَسي عالقٌ في قصبتي الهوائيّة. نزلت من القطار في «غرورود»، وصعدت السلالم وتوقّفت فوق، قرب كشك الصحف. متأمّلاً السكّة الحديديّة المتوجّهة نحو الغرب، لففت سيجارة ودخّنتها حتّى حرقت أصابعي. ثمّ نزلت إلى الرصيف المقابل لأنتظر القطار التالي، الذي يجب أن يصل بعد خمس دقائق. وهذا ما كان. وصعدتُ إليه.

بقيت واقفاً، ويداي على العمود الحديديّ، وساقايَ متباعدتان، كما لو أنّ الحافلة سفينةٌ تعطي ذبذبات، وهي سائرة يميناً ويساراً، غائصةً في الحفر مثل مراكب بحر الشمال في الطقس الرديء. وفي هذه المرّة، نزلتُ في «فيتفت».

...

سلكتُ الدرج المفضي إلى خلف المركز التجاريّ والبولنغ، حيث يتسكّع البلهاء أنفسهم؛ إنّهم هناك منذ سنوات، غارقين في نقاشات غامضة ومدخّنين لفافات لا تحتوي تبغاً فحسب. بعضهم ما زالوا يرتدون معاطف أفغانيّة قديمة يشدّونها حول أجسامهم في الهواء البارد والرطب.

في النهاية لم أكن متأكّداً من أنّ إلقاء خطاب هو فكرة جيّدة. سيكون هنالك أناس آخرون غيرنا نحن الخمسة، وهذا أمرٌ مخجلٌ جدّاً، وحميميّ جدّاً. ليس لأمّي وأبي أصدقاء. ولا أذكر في أيّ لحظة من طفولتي ومراهقتي أن زارنا أحدٌ غير العائلة؛ عمّاتي وأعمامي مثلاً، أو جدّي، الذي كان مبشّراً بروتستانتيّاً أيّام الأحد، ويعمل في معمل أحذية في سائر الأوقات، وانهار في العام نفسه والأسبوع نفسه الذي مات فيه الملك «هاكون» السابع. ولا أذكر كذلك أنّ والديّ أخبرانا أنّهما خارجان وسيعودان متأخّرَين لأنّهما ذاهبان للقاء أصدقاء في المدينة. في مقهى أو في سينما، أو عند هؤلاء الأصدقاء، في «لامبرتستر» أو «بولر» أو «أوبسال»، حيث أمكنهما التعرّف إلى الآخرين، نظراً إلى محيطهما والمؤسسة التي يعمل والدي فيها. لم يفعلا ذلك مطلقاً؛ لم يصادقا أحداً، لا في تلك الأماكن، ولا في أماكن أخرى. الناس النادرون الذين كانوا يأتون لزيارتنا، هم إخوة أبي وزوجاتهم أو عمّتي التي تعيش في «نيس»، وزوجُها. وفي عيد ميلاد من اثنين، تأتي عمّتي التي في «كوبنهاغن» وزوجَها؛ لم يكن لديها أطفال، وكانت تمثّل دور البرجوازيّة، وكان زوجها مستورد سيّارات ومالكاً بطِراً لآلة تصوير، فيلمها ثمانيٌّ كبير، يستعملها لكلّ الأمور. وهنالك أيضاً جدّي وجدّتي ذوا الأيدي الخشنة، القادمان من البلد نفسه، ولكن من مدينةٍ أكثر تزمّتاً؛ ويبدوان باهتين، بشعريهما الرماديّين وثيابهما الرّماديّة، وهما ينتظران على الرصيف قدوم والدي لإحضارهما في سيّارة تاكسي استأجرها على نحو استثنائي. كنتُ أرافقه في بعض الأحيان، ويبدو جدّاي صغيرين قرب حقائبهما الضخمة.

نزلتُ الطريقَ المنحدر، ومررت أمام حجرة الهاتف الحمراء الجميلة، في المكان الذي كنّا نخاطر فيه بحياتنا ونحن نتزلّج، ورؤوسنا غارقة حتّى العينين في قلنسواتنا الزرقاء ذات الشرابات، في أثناء تلك الطفولة التي تبخّرت منذ زمن بعيد. استدرتُ عند زاوية «راديرفاين»، في شارع «شيفروي»، ومشيتُ وصفَّ بيوت الجوار، ثمّ في الممرّ، واجتزتُ باب بيت أهلي. ما زال ورق جدران المدخل هو نفسه والمرآة لا تزال هناك، وكذلك رفّ القبّعات الذي لا يفيد إلّا لوضع صناديق مليئة بكلّ أنواع الأشياء القديمة: قفّازات غير متجانسة وأوشحة مُهمَلة. صفقت الباب خلفي، ولكنّ الصوت ضاع في الضوضاء التي انقضّت عليّ ما إن صرت في المدخل.

إلى الشمال، في المطبخ، هنالك أقرباء من بلدين مختلفين، آتين من مدن وقرى في النرويج والدانمرك، متكوّمين بين الطاولة وموقد الطبخ؛ بعضهم جلس حتّى على طاولة العمل، على جانبَيْ المجلى. وهنالك عدد كبير من الجيران في غرفة الجلوس، وأناس لا أعرفهم جاثمون على الدرج كحمائم في برج الحمام. كلّهم كان في أيديهم أكواب ولفافات تبغ، والمنزل ضجّ بالضحكات والأصوات الحادّة. بدا البيت الصغير القديم وكأنّه تمدّد في كلّ الاتّجاهات.

ناولتني عمّتي التي تعيش في «كوبنهاغن» كأساً للترحيب بي. ما زالت تملك مظهر سيّدة المجتمع المتعب قليلاً؛ وما زالت مغرية، بثوبها الساتان المشدود على جسمها، مع أنّها تجاوزت الأربعين من العمر وتعاقر الخمرة. لم أحبّها يوماً، فقد كانت تجعلنا نبدو فلّاحين.

الكأس كانت تحتوي شامبانيا؛ تساءلتُ أين وجدوا المال لدفع ثمنه، ولكنّي شربتها بجرعة واحدة وأخذت واحدة أخرى عن الصينيّة الموضوعة على طاولة المأدبة. وعندما حان وقت الجلوس لتناول الطعام، في أماكننا المعيّنة بواسطة قطع كرتون، كنت قد تجرّعتُ كأساً ثالثة.

نهض أحد جيراننا ليلقي كلمة ترحيبيّة. كان يصرّ دائماً على تسميتي «آرفارز»، ولا أعرف لماذا. يقولها من دون خبث وبحرارة، ونحن نكنّ لبعضنا المودّة، وإذا كان يحبّ أن يسمّيني «آرفارز»، فلن يثير ذلك استيائي. هو سائق شاحنات و يهوى خيول السباق؛ وكان لديه بعض منها قبل أن ينتقل إلى حيّنا. تكلّم نيابة عن أمّي وأبي ليرحّب بنا في عيد الميلاد الخمسين لتلك التي يحبّونها كلّهم، تلك التي تنتمي إلى الحيّ ولكنّها ليست تماماً كالآخرين؛ وذلك هو سبب تقديرهم لها. لأنّ ما تقوله مختلفٌ عمّا يسمعونه عادةً، لا شكّ في أنّ ذلك سببه أنّها دانمركيّة وتقرأ الكثير من الكتب. وذلك لحسن الحظ، قال جارنا الظريف، لأنّ الأحاديث التي تطول على بئر السلّم بعد العشاء تغدو مملّة أحياناً، إذ تتناول المواضيع نفسها دائماً. وفي ذلك الحين، من الأفضل أن تكون أمّي هناك بابتسامتها الغامضة وضحكتها الوقورة وسجائرها الـ«كارلتون». بالإضافة إلى ذلك، هي تحسن تقديم النصائح الجيّدة في ما يتعلّق بآلة التقطير التي يركبّها في مطبخه، وأحياناً في مغسل الثياب، داخل الدلو الكبير الذي في القبو حيث يُقطّر مرّة إلى ثلاث مرّات في السنة. وهو يتساءل من أين أتت بهذه المعارف، إن كانت هذه أموراً يتعلّمها المرء، وهو يقرأ كتباً ضخمة بلغة أجنبيّة.

في تلك اللحظة، انفجر كلّ من على الطاولة بالضحك، وأنا منهم. أمّا أمّي، فلم يحمرّ وجهها حتّى. اكتفت بالبقاء جالسة على كرسيّها، وعلى شفتيها

ابتسامة ويداها مضمومتان، قرب زوجها، أبي، الذي ينظر بهيئة محرجة إلى الحائط المقابل.

هذا ما قاله الجار الذي يدعوني «آرفارز»، والذي أحبّه كثيراً. لم أسمعه يوماً يتكلّم هكذا، لا من قبل ولا من بعد؛ كان مضحكاً وعاطفيّاً؛ وتكلّف جهداً ونال تقديراً كبيراً. اجتاحت المائدة أمواج من الضحكات عندما أنهى كلامه بنكتة جريئة، مع أنّنا سمعناها آلاف المرّات من قبل. ثمّ رفع كأسه نخبَ أمّي. قلّده الجميع، وكنتُ من دون شكّ أكثرهم استعجالاً للشرب.

لم يلقِ أحد آخر خطاباً. على كلّ حال، لم يكن أحد ينتظر خطاباً. كما أنّ الأنخاب تُفضي عادةً إلى صمتٍ محرَج. وهكذا، عندما انتزعت نفسي من مكاني بين الطاولة والحائط، التفت الآخرون إليّ ملقين نظرة متفاجئة وابتسامة مرتابة. لا بدّ أنّهم خشوا ما سيحدث بعد ذلك. يعرفون جميعاً أنّي تركت المدرسة التي على تقاطع «دالننغاتا» و«غوتيبورغاتا» قرب ساحة «كارل برنرز»، بينما رغبت أمّي أن أكمل دراستي، وهي التي دفعتني لأتسجّل هناك؛ وهي كانت لترغب في أن تدرس هناك لو أنّ ذلك أتيح لها. صار ذلك موضوعاً للحديث في البلدين، وفي كلّ بيوت الجوار المصفوفة كلّها، وفي كلّ آبار السلالم وكلّ صالونات الحيّ: كنت شيوعيّاً، ماويّاً، وهي ظاهرة لا يعرفونها إلّا من خلال التلفاز؛ أردت أن أنتمي إلى الطبقة العاملة. كنت في أعينهم منتمياً إليها. ولكنّهم أرادوا ألّا أعود جزءاً منها، وأنْ أكمل دراستي ليفتخروا بي. كانوا يريدون صالحي فحسب. كانوا يحبّونني وكنت أبادلهم الحبّ.

في اللحظة التي فتحتُ فيها فمي، أدركتُ أنّني ثمل. لم أتناول أيّ طعام طيلة النهار، لفقدان الشهيّة، أو لأنّي لم أفكّر في ذلك، وقد شربت ثلاث كؤوس من الشمبانيا وكأس نبيذ. عندما وقفت، شعرت بريحٍ تعصف في رأسي. اجتاح مدٌّ دماغي، فقمت بخطوة جانبية، وارتطمت بكرسي فلّاح في ثياب مدنيّة؛ فاحت منه رائحة الإسطبل والطحين. لا بدّ من أنّه عمّ من أعمامي، كنت أعرفه بالشكل ولا اعتراض لديّ على رائحته، بل على العكس. هي رائحة الطفولة. ليس طفولتي أنا، بل الطفولة بشكل عام. وبالإضافة إلى كوني ثملاً، فقد تركت مخطوطتي في جيب سترتي، المعلّقة على باب المدخل إلى جانب السترات الأخرى، لأنّ الحرارة مرتفعة و الجميع بالقمصان التحتيّة. لم أفكّر حتّى بالذهاب لإحضارها؛ كنت عالقاً بين الطاولة والحائط. لو ذهبت سأبدو أبله، وأزعج عدداً كبيراً من الناس، وعلى كلّ حال سبق أن رننت كأسي.

كان عليّ الكلام عن «ريو غراندي». أذكر هذا، ولكنّي لم أعد أذكر ما سأقوله عنه، ولا لماذا يحظى هذا النهر بهذه الأهميّة. قرّرت أن أدع الموضوع

جانباً؛ تدافعت الحروف في فمي، وقلت في نفسي إنّني لن أتمكّن أبداً من ترتيبها. كانت أمّي تنظر إليّ بهدوء وصبر، بهيئة تكاد تكون حالمة. وأنا لم أكن أراها بوضوح. أمّا أبي، فحدّق في الحائط المقابل، ولم يكن الوحيد الذي فعل ذلك.

تشبّثتُ سرّاً بكرسيّ جاري، وشعرتُ بأنّني في حالة سيئة. لم أقل شيئاً بعد، ولكن عليّ أخذ استراحة. بحثت عن كأسي على الطاولة، ولكنّي لم أجدها، وكانت فارغةً على كلّ حال. لاحظ العمّ الفلّاح حركتي الخرقاء؛ فأمسك أقرب زجاجة وملأ كأسي بسخاء ووضعها في يدي. نظرت إليه، فهزّ رأسه مبتسماً ابتسامة خفيفة. إنّ عمّي هذا إنسان طيّب، هو الألطف بين أعمامي، ولا شكّ في ذلك. شربت جرعة كبيرة ووضعت كأسي. فتحت فمي وبقيتُ جامداً للحظة، ثمّ أغلقته من جديد. كان الصمت ثقيلاً؛ لم يتحرّك كوب واحد، ولا سكّين ولا شوكة. جاهدت لأتمكّن من التركيز، وسُكْري ظاهر للعيان، ثمّ خفضت بصري نحو صحني، وأنا أفرك عينيّ كما في صغري؛ انتهى النهار، تصبحون إلى خير وهيّا إلى النوم.

- ربّما كنت تريد أن تقول شيئاً، يا «أرفيد»؟

صوت أميّ ناعم ومندهش. عرفت تماماً ما هي التعابير المرسومة على وجهها.

- لا أظنّ، قلت. ليس عندي أيّ ذكرى عنكِ. ولا واحدة، قلت.

وقالت هي:

- ربما كان هذا أفضل.

عندما رفعت رأسي، لمحت أخي الأكبر على طرف الطاولة يحدّق إليّ غاضباً. من الأفضل لي أنْ أذهب، ولكنّي لا أظنّ أنّه يمكنني ذلك. شربت جرعة، ونجحت في الجلوس، متّكئاً على الفلّاح. مددت يدي إليه، فأمسكها وشدّ عليها بقوّة، على طريقة أهل القرى.

- أنا آسف، قلت بصوتٍ منخفض. أظنّ أنّ الأمور لم تجرِ على ما يرام.

- نعم، ولكنّها ستكون أفضل بالتأكيد في المرّة المقبلة.

التفتّ ونظرت إليه. لم أذكر أين رأيته في المرّة الأخيرة، ولا حتّى إن كنت قد رأيته.

- هل أنت عمّي؟ سألت.

- كلّا. ولكن لا بأس.

لم أغادر مباشرةً، ولكنّ باقي السهرة مُحِيَ من ذاكرتي. لا أعرف إن كنت قد كلّمت أناسا أو كلّموني. لا أظنّ ذلك، نظراً لما حدث. عندما فهمت أخيراً أنّ وقت ذهابي قد حان، كانت ساعة المطبخ تشير إلى ما بعد الحادية عشرة. أذكر هذا.

في المدخل، أمكنني أخيراً العثور على سترتي التويد ذات الأوراق المطويّة بعناية في جيبها الداخليّ. ثمّ فتحت الباب ووجدت نفسي خارجاً. وأنا أنزل الممرّ في الهواء البارد والقارص، قرّرت أن أقطع كلّ المسافة حتّى ساحة «كارل برنرز» سيراً على الأقدام.

17

هواء البحر البارد يلفح وجهي، والغيوم طافية. كدت أتجمّد من البرد، وأنا متدثّر بسترة أبي الصوفيّة. أدرت ظهري للسياج ولكوخ «هانسن»، وفكّرتُ بـ«إنغر». كنا نتداعب خلف أشجار الصفصاف؛ أذكر طعم شفتيها، فقد كان لهما طعم غريب، ولذيذ، ولكنّي لم أعرف ماذا أفعل. كنت في الثالثة عشرة من عمري، وكانت في الرابعة عشرة؛ كنّا نقرأ كتباً لـ«نيك كارتر»؛ ونحن مستلقيان في علّية المستودع: دخّن «نيك» لفافة تبغ، ونظر عبر النافذة. ثمّ التفت وسحق لفافته في منفضة ذات زرّ، عندما يُكبس، تدور ويختفي العقب. اتّجه «نيك» نحو الكنبة، وضمّ الفتاة الشقراء بين ذراعيه، وحملها إلى الغرفة وألقاها على السّرير.

- ألا تودّ أن تفعل مثله؟ سألت «إنغر».

- بلى، أجبت.

ولكنّي لم أعرف عمّ تتكلّم.

كان ذهابي احتمالاً وارداً أيضاً، لكنّ المعدّية المقبلة لن تذهب قبل الغد. وكانت أمّي نائمة، ولا أرغب في البقاء جالساً من دون حراك منتظراً أن تستيقظ. نظرت إلى الصنوبرة، إلى رأسها المنحني، وأغصانها التي تحفّ بالسقيفة. شربت ما تبقّى من بيرتي، ورميتُ الزجاجة بين العلّيقات قرب السياج. عرفت ما سأفعله وقررت الشروع فيه مباشرة؛ وعندما أنتهي، ستستيقظ وتفتح الستائر، ثمّ تلقي نظرة إلى الخارج ملصقةً وجهها بالنافذة، وتشعر بأنّها مسترخية ومرتاحة كما لم تحسّ بذلك منذ زمن بعيد. ولن تعرف أنّ لي ضلعاً في الأمر. سترى، وهي تنظر عبر النافذة، أنّ تغييراً قد حدث أثناء نومها. وعندها ستفهم: أنني فعلت ما لم يستطع والدي فعله .

أحدث باب كوخ المعدّات صريراً عندما فتحته، وهبط النور على القرمة الموضوعة على التراب المرصوص، والمغروز فيها فأس. هي فأس لتقطيع الخشب أُهديت والدي في عيد ميلاده الخامس والسبعين. هو لا يزال قويّاً بالنسبة إلى عمره، ولكنّي أقوى منه؛ كان ذلك منذ وقت طويل، وهو يعرف ذلك.

هنالك فأس أخرى موضوعة في إحدى الزوايا، مقبضها أقصر ونصلها صدئ. كنّا نستعملها في الماضي لقطع الخشب، ولكنّ حدّ نصلها محزّز ومقبضها متشقّق. لم يشحذها أحد، ولم يعتنِ بها أحد منذ زمن طويل. مع ذلك أردت استخدام هذه الفأس. لبستُ قفّازَيْ العمل، وحملت الفأس ومعزقةً ومعولاً وخرجت. أخذت أيضاً حبلاً طويلاً من القنّب كان معلّقاً بكلّاب، ثمّ اقتربتُ من الصنوبرة. لم أقم بهذا النوع من الأعمال في حياتي. لم اقتلع شجرةً يوماً، ولكنّي في أحد الأيّام، قبل الشتاء، رأيت «هانسن» يُسقِط شجرةً بدت له مهدِّدة. تمسّكت بالغصن الأوّل، ذلك الذي يمتدّ فوق السقيفة، وتسلّقته من دون أن أُفلِت طرف الحبل. مرَّرت الحبل حول الجذع فوق منتصفه بقليل، ثمّ شددته صانعاً عقدةً تعلّمتها في الكشّاف منذ خمسة وعشرين عاماً. لا أذكر سوى القليل من تلك المرحلة، لكنّني لم أنسَ الحركات التي تعلّمتها.

وأنا جالس على غصن، تركتُ الحبل يسقط من فوق ذراعي، فتكوّم على الأرض. نزعت قفّازيَّ و دسستهما تحت سترتي الصوفيّة، ثمّ لففت سيجارة، وأشعلتها بقدّاحتي الزرقاء. تنشّقت الدخان ببطء، وأنا أسند ظهري إلى الجذع. عندما بدأ عقب السيجارة يُحرق يدي، سحقته على الخشب. ثمّ رميته بعد أن تأكّدت أنّه انطفأ. وبقيت جالساً لبرهة.

نظرت إلى المرجة أمام شاليه «هانسن»، ولم يكن هنالك أحد. ذهب التُدرُج، والمحرّك الأبيض لا يزال مثبّتاً على الحوامل. تركت نظري يسرح فوق السطوح وحتّى البحر، الذي تزيّن تحت ريح الشمال، بخطوط من الزبد. البحر متغضِّن كقطعة قماش أو ورقة؛ ولونه البنفسجيّ العدائيّ يوحي أنّه بارد إلى حدّ أنه يصيب بالشلل. هو أبيض ناصع في البعيد؛ فالشمس مشرقة هناك، ولكنّها اختفت هنا. السماء رماديّة ومنخفضة. بدأت الريح تهب، مجلّدةً ظهري ونافخةً أغصان الصنوبرة. لا أعرف ما الذي حدث؛ ربّما غبت عن الوعي لبرهة. عندما عدت إلى رشدي، كان وجهي مبلّلاً، ويداي تشدّان الحبل ومفاصلي بيضاء. جفّفتُ وجهي و نزلت إلى الأرض بحذرممسكاً الحبل بيد ومتمسّكاً بالأغصان بالأخرى: نزولٌ وعر، كتسلّق الشواهق. عندما وصلت إلى الأسفل، فقدتُ وعيي من جديد، وارتطم جبيني بالشجرة. ولكنّي استيقظت مباشرةً.

تنشّقت الهواء حتّى أعماق رئتيّ، مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. ثمّ تحقّقتُ من حالة يدي اليمنى. كانت تؤلمني عندما أفتح قبضتي وأغلقها، ولكنه ألمٌ يمكن تحمّله. أمسكت المعول وبدأت أحفر خندقاً حول الشجرة. رأسي يدور ولكنّي أعرف ما أريد. حفرتُ دائرة ثانية، ثمّ ثالثة لأعمّق أكثر، ثمّ رابعة لأوسّع الخندق. وأنا أحفر الدائرة الخامسة اصطدمت بالجذور. تابعتُ الحفرَ لأكبّر الخندق، وكشفت ضربات المعول عن جذور أخرى، لونها أبيض أو أحمر لامع.

جلست على حافّة الحفرة لأرتاح قليلاً. نزعتُ قفّازيّ، ولففت سيجارة جديدة دخّنتها حتّى العقب، مغمّضَ العينين. نادراً ما بدا لي طعم سيجارة لذيذاً إلى هذا الحدّ، ما جعلني أبتسم.

استويتُ وتناولتُ الفأس وأمسكتها جيّداً. أدرتها في الهواء فوق رأسي كما في نادٍ للغولف، ثمّ تركتها ترتمي عموديّاً على أحد الجذور، الذي انقطع مباشرةً. خفت أن يوقظ الصوت والدتي، فهي، بلا شك متعبة جدّاً وفي حالةٍ سيئة. غاصت الفأس في الأرض الرمليّة، وأرجّح أنّ شقوقاً جديدة قد أصابت نصلها. استمررتُ وأنا أدور حول الجذع؛ بعض الجذور اقتُلع بسرعة، وبعضها الآخر احتاج إلى جهدٍ كبير. كان معظمها صلباً و مليئاً بالنسغ، ويرفض الاستسلام، ولكن ليس وارداً أن يقاومني. أنا بلا رحمة، أضرب وأضرب، يميناً وشمالاً، وفي النهاية كلّ شيء تقطّع.

بدأ ظهري يؤلمني. انتصبتُ، ثمّ لممتُ الحبل. مشيت خمس عشرة خطوةً بالضبط باتجاه كوخ المعدّات. ثبّتُّ قدميّ غارزاً عقبيّ في الأرض، وانحنيتُ إلى الخلف فانشدّ الحبل. شددتُ بكلّ قواي، وسمعتُ طقطقة وشعرتُ بالشجرة تلتوي، ولكنّها عادت إلى موقعها الأساسيّ بعد قليل. وحصل الأمر نفسه في كلّ محاولةٍ من محاولاتي. فكّرت أنني لن أنجح في ذلك أبداً. عندما ستستيقظ، تفتح الستائر لتلقي نظرة خارجاً، لن ترى أيّ تغيير، لن يكون قد حدث شيء، ستكون الأمور كحالها دائماً.

أفلتّ الحبل، ثمّ اقتربت من الشجرة، وبدأت أحفر بانحراف حول الجذع. وشيئاً فشيئاً، أمكنني الكشف عن الجذر الرئيسيّ، الغائص في الأرض عموديّاً كسلسلة مرساة. لم يكن هنالك حلول عديدة: تنفّست بعمق ثمّ بدأتُ أحفر لأجد أفضل زاوية للهجوم، أوّلاً بالمعول ثمّ بالمعزقة. وعندما وجدت الأمر كافياً، تركت المعزقة وأمسكت الفأس. باعدت بين ساقيّ لأتّخذ أفضل وضعيّة ممكنة، ثمّ ضربت بكلّ قواي. سمعت صوتاً مدوّياً، واجتاح ألم عنيف ساعديّ؛ تهيّأ لي أنّي مشلول حتّى الكوعين، فأوقعت الفأس.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

- اللعنة، لم يعد بإمكاني التحمّل! صرخت.

عندما خفّ الألم قليلاً، ركعت على ركبتيّ وأغلقت عينيّ لأستعيد رشدي. مسّدت صدري وهززت رأسي، ثمّ وقفت منتصباً لأقوم بمحاولة أخرى، إذا أمكنني اتّباع طريقة أكثر ذكاءً. حفرت حول الجذع من جديد بالمعول، ثمّ بالمعزقة. بعدها احتجت إلى أكثر من عشرين ضربة بالفأس لأتغلّب على الجذر. وعندها انقطع محدثاً صريراً معدنيّاً مخيفاً، وكأنّ سلكاً قد تهشّم في أعماق الأرض. عدتُ إلى كوخ المعدّات، وأمسكتُ طرف الحبل، واتّخذت الوضعية المناسبة من جديد. ثمّ شددت بأقصى قوّة وبأسرع ما أمكنني. تهاوت الشجرة بضربةٍ واحدة؛ ترنّحت الصنوبرة العملاقة محدثةً دويّاً هائلاً، ولا أعرف كيف أتيح لي ما يكفي من الوقت لأرتمي جانباً. تدحرجت مرّات عدّة وتجنّبتها بصعوبة. نجوت! قلت في نفسي، وظهري على العشب، تحت السماء الرمادية الكثيرة الرياح. ولكن لا يهمّ؛ فقد نجحت. صرت أضحك وحيداً. الحياة أمامي، وليس هناك من شيء لا يمكن إصلاحه.

بقيتُ متمدّداً حتّى شعرت بالبرد يخترق سترتي الصوفيّة. وأرهفت سمعي لأعرف إن كانت أمّي قد استيقظت. لا حركة في المطبخ، ولا بدّ من أنّها تناولت حبّة منوّمة لتنام بهذا العمق. انتصبت جزئيّاً، وأنا أتساءل من دون قناعة إن كان يتوجب البدء بقطع الأغصان مباشرةً. أو إن كان يمكن تأجيل ذلك. تظاهرت بالتفكير، في حال كان أحدهم يراقبني. وفي النهاية قررت أنّ بالإمكان تأجيل العمليّة.

وقفتُ ونفضتُ سترتي الصوفيّة وأسفل بنطالي. ثمّ فككت الحبل ولممت الأدوات وحملتها إلى الكوخ، ووضّبتها قرب الحائط. لففت الحبل حول معصمي، وعقدته لأبقيه ملفوفاً ثمّ علّقته على المشجب. وأغلقت الباب و اجتزت المرجة حتّى المستودع القديم.

بعد وقت قليل، سيحلّ الليل، وستتسلّل الظلمة الخريفيّة قادمة من البحر، وسيغطّي السواد الأفق مثل غطاء عملاق يمتدّ حتّى الساحل، وحتّى شواطئ الجنوب والشمال، وحتّى الحقول والأراضي البور، وعلى كلّ طريق و كلّ درب. وسيصبح ثقيلاً إلى حدّ أنّني سأتمكن بصعوبة من الوقوف في الريف المكشوف.

ولكن ما زال لديّ بضع ساعات. فتحت باب المستودع وولجت في الرائحة المألوفة للجبس المعرّض للرطوبة منذ زمن. أردت أن أرى إذا كانت درّاجتي القديمة لا تزال هناك. كانت هناك، مسندةً على الحائط. درّاجة «سفيتون»، وهي ماركة نرويجيّة، ولونها أزرق معدنيّ مع خطوط بيضاء.

العجلتان منفّستان، ولكنّي أخرجت منفاخاً من مخبئه في إحدى الزوايا، وحاولت أن أنفخهما بحركات جعلتْها قلّة الممارسة عديمة المهارة. ليستا مثقوبتين، ولكنّ الدرّاجة بقيت مهملةً طويلاً إلى درجة أن كلّ الهواء تسرّب منهما. أخرجت الدرّاجة إلى المرجة، ودفعتها واستويتُ على المقعد. لم أعد متعوّداً على ركوبها، والسلسلة الصدئة تحدث ضجّة في «الكارتر». لا أذكر متى ركبت دراجة للمرة الأخيرة، ولكنّي انطلقتُ، باذلاً أقصى جهدي.

18

اقتربتُ من المدينة عبر شارع «سكاغن»، فرحاً بنفسي وبالصنوبرة المطروحة على الأرض بكلّ عظمتها، لأنّها شجرة رهيبة، على الرَّغم من كونها دانمركيّة. كنت راكباً الدرّاجة بحريّة أمام محطّة وقود «د.ك» التي نتزوّد منها بالوقود عندما نأتي في الصيف، ونقصدها لشراء البيرة عندما تكون الأماكن الأخرى كلّها مغلقة. ركنتُ الدرّاجة أكثر من مرّة معكوسةً أمام مضخّات الوقود، وأنا ثملٌ قليلاً، لأملأ الزجاجات.

مررت أمام متجر «ستوركوب» إلى اليمين، ومررتُ بمحاذاة جدار واطئ إلى الشمال، وخلف الجدار لمحت الواجهة المكلّسة لكنيسة «فلادستراند»، الناصعة البياض تحت أشعّة الشمس الأخيرة. أكملت طريقي بمحاذاة المقبرة، التي تمتدّ أشجارها المعمّرة حتّى المتنزّه الصغير المحاذي لها. توقّفت قبل البوّابة بقليل، وأسندتُ درّاجتي إلى الحائط حيث رُكنت درّاجة نسائيّة، ثمّ أخرجت علبة التبغ من جيبي. استندت إلى الباب، ولففتُ سيجارةً دخّنتها ممسكاً إيّاها بين السبابة والإبهام. كما قد يفعل «آلبرت فيني»، العامل في مصنع الدرّاجات، لو أمكنه ملاقاتي من وراء السنين. رفعت رأسي وألقيت نظرة باتجاه مؤسّسة شؤون الجنائز. هنالك حجارة مستطيلة، ملساء وناعمة، مصفوفة أمام المدخل. جثمَتْ على الحجارة يماماتٌ برونزيّة نظرت إليّ بطريقة رزينة ومسيحيّة أزعجتني. درتُ في الاتجاه الآخر، باتجاه المستشفى ودار العجزة المجهّزة بالوسائل الطبيّة قرب ملتقى الطرق. على إحدى شرفاتها، أمضت جدّتي آخر سنوات حياتها في مقعد من الأسل، قبل أن تُدفن في المقبرة التي أُدير لها ظهري. في المرّات النادرة التي ذهبتُ فيها لزيارتها مع إحدى ابنتيّ أو الاثنتين، سلّمها العاملون ملاحظةً صغيرة «أرفيد قادم لزيارتك اليوم». ولكنّ ذلك غاب عن ذهنها؛ وضعت الورقة على الغطاء المحاك بالصنّارة، الذي تبقيه دائماً على ركبتيها، ولم تعرفْني.

لا أعرف ما الذي أصاب جسمي؛ هل لسيجارتي مفعولٌ مخدِّر، أم هي أشعّة الشمس التي تطفو بهدوء من فوق السطوح، وتدفئ وجهي. يبقى أنّني لم أجد نفسي في حالٍ أفضل من هذه منذ أسابيع. ولأنني في أحسن حال، وأشعر بأني متحمّس وثملٌ قليلاً، راودتني فكرة أن أقوم بنزهة خلف أشجار المقبرة، وأنْ أمشيَ قليلاً على حصى الممرّات طالما لم ينقضِ النهار؛ فكثيراً ما تمشّيت هناك.

لكنّ الأمر مختلف والأشجار عارية؛ النور أكثر سطوعاً منه في الصيف، حيث تعوّدت على التسكّع هناك، والنظر مداه بعيد على الرَّغم من اقتراب المساء. الممرّات محاطة بصفوف طويلة من الشُجَيْرات المشذّبة بعناية، وتحيط بكلّ قبرٍ من القبور أسيجة صغيرة مستطيلة. أمام بعض القبور، هناك سلسلة إكليليّة الشكل تمنع الدخول؛ وأمام بعضها الآخر، باب صغير من الحديد المطرَّق المدهون بالأبيض يُفتح في السياج. وأكثر من نصف حجارة القبور تعلوها يمامات، وكان هناك عصفوران خجولان؛ عندما اقتربتُ فردا أجنحتهما وطارا.

كنتُ أعرف إلى أين أنا ذاهب، ولمّا كنت لا أرغب في الذهاب مباشرةً، درت إلى اليمين و أكملت سيري راسماً دائرة. أو بالأحرى مربّعاً، لأكونَ أكثر دقّة. وصلتُ إلى القبر عبر ممرّ آخر غير الذي أسلكه عادةً، ووجدت نفسي في مواجهة الأسماء المكتوبة على اللوح الحجريّ المنتصب أمامي. في آخر الأمر، كان إيجاده أسهل عبر هذا الطريق.

كانت راكعةً على الحصى أمام شاهد القبر حيث كُتبت الأسماء الثلاثة، تنزع الأغصان الميّتة والأزهار الذابلة في المزهريّات التي وضعَتْها. انتهى موسم الأزهار منذ زمن، ولكنْ لم يأتِ أحدٌ منذ أسابيع للعناية بالقبر.

- هذا أنت؟ سألَتْ من دون أن تلتفت.

- نعم.

صمتَتْ، وشعرتُ أنّ عليّ أنْ أقولَ شيئاً.

- كنتُ أعتقد أنّكِ ما زلتِ نائمة.

- أنت ترى بعينيك أنّ الحال ليست كذلك.

- بالفعل، أرى ذلك.

تنفّستُ بعمقٍ، فما زلتُ أشعر بالراحة.

- أتريدين أن أساعدَك؟

التفتت نصفيّاً ونظرت إليّ، فلاحظت أنّها قد بكت.

- ماذا حدث؟ جبينكَ؟

- اصطدمتُ بشجرة.

- الآن، منذ قليل؟

- نعم.

- كنتَ ثملاً؟

- كلّا. يلزمني أكثر من كأس من الكلفدوس والبيرة لأثمل.

- بيرة؟

- نعم، عند «هانسن».

- عجباً. وعمّ تحدّثتما؟

- تحدّثنا عن «لينين».

- عن «لينين»؟

- نعم.

هزّت رأسها، ثمّ أشارت باتجاه المكان الذي أتيتُ منه. كان وجهها منتفخاً وكانت عيناها متورّمتين.

- هلّا ذهبتَ لإحضار دلو، من هناك؟ قرب المستودع؟

التفتُّ، فرأيتُ دلاءً متراكمة قرب بناءٍ قرميديّ صغير سقفه مستدقّ. بدا لي البناء جميلاً، بهيئته البالية والمنمّقة. وعليه صنبور ماء و تحته حوض إسمنتي صغير.

- بالطبع.

كان مزاجي رائقاً. قطعتُ الأمتار القليلة حتّى المستودع، وأخذتُ دلواً صغيراً من أعلى الكومة وعدتُ إلى جنب أمي. ناولتها الدلو، فباشرت في

وضع النباتات الميّتة التي كوّمتْها فيه. بعد بضع دقائق غرّزت ما تبقّى من الأوساخ بعنف، ثمّ استقامت ونزعت قفّازيها. مرّرتْ يداً في شعرها، وبقيت جالسة من دون أن تقول شيئاً. كنتُ محرجاً، وفكرت أن أخبرها بالأمر.

- نجحتُ في اقتلاع الصنوبرة.

أدركتُ بعد ثانيةٍ أنّ الوقت غير مناسب.

- حقّاً

- حقّاً.

- إنّه أمر جيّد. ولكنْ، في النهاية، يمكنك فعل ذلك لوالدك؛ فهو لم يعد قويّاً بما فيه الكفاية. وقد فعل الكثير من أجلك.

- أبي؟ ماذا فعل من أجلي؟

- الآن أنت الأقوى. أبوك عجوز الآن، هل تفهم ذلك؟

- نعم، أفهم ذلك.

- هل أنتَ متأكّد؟

- بالطبع أفهم ذلك، ولكنّي لم أنتهِ. أوقعتُها وحسب، حتى الآن. يجب أن أقطّع الأغصان أيضاً. سيحتاج ذلك إلى وقتٍ طويل.

- مفهوم.

ولكنّها ليست مهتمّة بالشجرة. نظرتُ إلى حذائي.

- أتفكّر في أخيك أحياناً؟ سألَتْ.

- نعم، نعم. بالطبع أفكّر فيه.

- أنا أفكّر فيه كلّ يوم.

مات منذ ستّ سنوات، وما أمكنني أن أقول ما قالته. ولكنّي مع ذلك أفكّر فيه في الكثير من الأوقات، أفكّر في يوم موته، وفي كلّ مرّة أشعر بالذنب. تغلغل هذا الشعور فيّ إلى حدّ أنّه صار يشكّل جزءاً من شخصيّتي.

- أمّا أنا، فلا تفكّرين فيّ كلّ يوم، قلت.

- كلّا. لماذا أفعل ذلك؟

- حقّاً، لماذا؟ أنا كذلك، لا أفكّر فيكِ كلّ يوم.

ولكنّ ذلك لم يكن صحيحا، وصحّحتُ كلامي مباشرة: - بلى.

- ليس هذا ضروريّاً. قالت، وقد أدارت ظهرها.

- بلى.

التفتت ونظرتْ إليّ شزراً. وقفت بصعوبة، مسندةً يديها على الحصى. كانت ستجيبني بردٍّ لاذعٍ، ثمّ عدلت عن ذلك.

- سيحلّ الليل بعد قليل، قالت. هلّا نأخذ درّاجتينا لنعود معاً إلى الشاليه؟

- كنت أفكّر في القيام بجولة في المدينة.

- في هذه الحال، أرجو أن يكون لديك مصباح.

- بالطبع.

لديّ مصباح بالفعل، ولكن ليس لديّ دينامو. اختفى منذ زمن بعيد، ولا بدّ من أنّه رُكّب على درّاجة أخرى، أو رُمي في المهملات. من يعرف؟

اتّجهنا نحو البوّابة فقد حان وقت إغلاق المقبرة. اقترب منّا رجل يرتدي بدلة العمل وحيّانا بإيماءة خفيفة، فردّت أمّي عليه التحيّة. ثمّ وجدنا أنفسنا في الشارع، قرب درّاجتينا.

- حسناً، قالت.

ركبتْ على المقعد مديرةً لي ظهرها، وفعلتُ مثلها. ذهبنا في اتجاهين متعاكسين. عندما وصلتُ إلى التقاطع، تحوّلتُ إلى الشمال أمام دار العجزة، وبعدها بقليل شعرتُ بألم عنيف في صدري، فشتمت.

رغبتُ في رمي درّاجتي القديمة على الإسفلت، ونزع المقعد، وكسر المقود، وسحق القضبان محوّلاً إيّاها إلى معكرونة. أو أن أعود أدراجي، وأنطلق في سباق مطاردة، وألحق بها قبل أن تصل إلى محطّة الوقود، وأهجوها بخطبةٍ مسهبة، ستخلق أخيراً حاجزاً بيننا. ولكنّي لم أفعل هذا ولا ذاك. أكملت طريقي حتّى وسط المدينة؛ قطعتُ «غاملتورف»، ومررتُ أمام

المحكمة والسجن الذي احتُجِزْتُ فيه ليلةً بسبب السكْر، ثمّ أسرعت إلى «نيتورف» ودلفتُ إلى «دانماركسغادي»، الشارع اللامتناهي.

19

كان الوقتُ ليلاً في ساحة «كارل برنرز». وكنت نائماً، أحلم، ثمّ استيقظتُ ونسيت حلمي. وجهي متجمّد في ظلمة غرفة الجلوس الصغيرة وأشعر بجسمها على جسمي؛ تشتعل نار في المكان الذي يدقّ فيه قلبي، ويحترق بيت في مكان ما من المدينة، غير بعيد عن عمارتنا. أطلق رجل صرخات رعب مكلّماً رجلاً آخر أتعب رئتيه من الصراخ ليردّ عليه؛ كانا يركضان حتّى انقطاع أنفاسهما، بينما تسرع سيّارات الإطفاء في الظلام مطلقةً صفّارات الإنذار، وهي تجتاز إشارة التوقّف الحمراء في الشوارع الخالية. وصلتني الأصوات بعنفٍ عبر النافذة، التي بقيتْ مفتوحةً على الرَّغم من البرد، وعَكَسَ الزجاج نور المصابيح الدوّارة الأزرق؛ كانت النار تشتعل في ذراعيّ المحيطيْن بكتفيها، وفي ذراعيها المحيطيْن بجذعي، وفكّرت أنّ الحريق حدث من تلك الحرارة التي تنبعث من جلدينا: غريبٌ ألاّ يحدث حريق، قلت في نفسي.

أتذكّر أنّني غادرت الأريكة لأقترب من النافذة. كنتُ عارياً، وكنّا في كانون الأوّل/ديسمبر والطقس بارد؛ والثلج يغطي الرصيف والشُجَيْرات في أسفل المبنى. لا شك في أنّه الفجر، وسيبزغ النهار، ولكنّ الضوء البرتقاليَّ الذي أراه في البعيد جعل العتمة أشدَّ كثافة.

- ماذا يحدث؟ سَأَلَتْ.

- هنالك بيت يحترق قريباً من هنا، قرب متحف «مونش».

- أوه لا، ليس متحف «مونش»! صاحت.

لأنّنا كنّا نذهب إليه يوم أحد من اثنين، حين يفتح أبوابه.

- كلّا، ذلك يحدث في مكانٍ أبعد. متحف «مونشِ» ليسِ في خطرٍ.

نهضت لتنضم إليّ. وقفنا أمام النافذة، هي وأنا، كتفاً إلى كتف؛ أنا عارٍ وهي متدثّرة ببطانيتها. في «فينماركغاتا»، رسمت المصابيح على الثلج دوائرَ لونُها برتقالي متوهّج، وفي الشقق المقابلة أضاءت النوافذ، واحدةً بعد الأخرى.

- ألست برداناً؟ سألت.

- بلى، أعتقد ذلك.

أدركتُ ذلك فجأة: أنا متجمّد من البرد، كتماثيل الجليد العارية واللامعة، والتي لا شكَّ في أنّها تتجمّد في متنزّه «فروغنر» في كانون الأول/ديسمبر وكانون الثاني/يناير. فتحت بطانيتها، وشدّتني إليها. وتدثّرنا بحرارة جسدينا.

عادت إلى الأريكة بخطوات صغيرة، وهي تشدّ البطانية حولها.

- أرجوك، لا توقظني. قالت وهي تعود إلى النوم. أحتاج للنوم لأكون جميلة.

وعدتها بذلك، وأنا أقول في نفسي: إنّها لا يمكن أن تكون أجمل ممّا هي عليه. أغلقتُ النافذة، ثمّ لبست بنطالي القارس وقميصي المثلّج، وذهبت حافي القدمين إلى المطبخ، وحذائي وجورباي في يدي. وأنا أغلق الباب خلفي، سمعتها تصرخ: - أترك الباب مفتوحاً، لو سمحت.

فتحته قليلاً، وعدلتُ عن إشعال النور. رفعتُ غطاء موقد الطبخ القديم الدائم الاشتعال الذي حصلت عليه عندما تركت «فيتفت». فركتُ يديّ مطوّلاً فوق الموقد، ثمّ وضعتُ بعض الماء في الغلاية. صار الماء ينشّ تحتها، ويتفجّر على الصفيحة المعدنيّة المحمرّة، والحرارة تتصاعد محدثةً هديراً قويّاً عبر الأنبوب. أعجبني الصوت؛ كان صوتاً مألوفاً، صوتاً كنت أسمعه كلّ يوم، وأنا أقف على منضدة، ويداي ممدودتان فوق الجهاز، عندما يكون أبي قد ذهب إلى المصنع منذ نصف ساعة، ونحن وحدنا، أمّي وأنا. الآخرون كلهم نائمون، والظلام مخيّم في الخارج، وفي غرفة الجلوس، ووحده مصباح المطبخ مضاء. عندما تضع أمّي مزيج الحليب والشوكولا لتسخّنه، تُسمع فرقعات تحت القِدر. لم يكن هنالك أحد غيرنا، هي وأنا، لأنّ أخويّ ينامان لأطول وقت ممكن، أخي الصغير وأخي الكبير، ولا يعرفان أنّي مستيقظ، وأنّني أترقّب صوت الباب، ووقْع خطوات والدي على بلاط الممشى. ويجهلان أني أنتظر تحت البطانية وأنا أعدّ خطواته، طيلة الوقت الذي يلزمه ليتسلّق المنحدر، ويمرّ أمام كشك الهاتف والمركز التجاري، ويصل إلى «تروندهايمسفاين»، حيث يستقل حافلةً صفراء وخضراء توصله إلى وسط المدينة. حينذاك أنهض، وأرتدي ثيابي في

الظلام حتّى لا يلاحظ الآخران شيئاً إذا ما استيقظا للذهاب إلى الحمّام. ثمّ أنزل الدرج من دون أن أُحدِث صوتاً، وأجتازُ الرواق حيث خالي الذي في الدانمرك معلّق على الحائط في إطار فضّي. اسمه «جسبر»، ويلبس بزّة دانمركيّة وقبّعة بحّار ذات شُرّابة، وقد مات بعد وقت قصير من اتّخاذه وضعيّةً لأخذ هذه الصورة، في الثالثة والثلاثين من عمره، مثل المسيح.

عندما أصل إلى المطبخ، أتوقّف على العتبة. كانت تقف أمام الموقد، مديرةً ظهرها للباب.

- هذا أنت؟

- نعم.

وهي تعرف كلّ مرّة أنّ من أتى هو أنا. مع أنّني أكون حافي القدمين، ولا أُصدرُ أيّ صوت. مثل هنديّ في الأدغال، غامضٍ وسرّي. ثمّ تضيف: - لستَ قادراً على النوم؟

- لا

لا ريب في أنّها تبتسم، أنا متأكّد من ذلك. ثمّ تلتفت، ولا أراها تبتسم أو تكاد تبتسم، ولكنّها ليست متوتّرة، لأنّها تعرف أنّه أنا. وتنقل المنضدة من تحت طاولة العمل وتضعها أمام الموقد، وتركع لجلب الحليب من قعر خزانة المؤن، التي يحميها من الفئران باب مسيّج. أصعد المنضدة وأنتصب، وأمدّ يديّ فوق الموقد المفتوح لأشعر بذبذبات الحرارة تجتاح ذراعيّ وصدري وذقني وفمي، والقِدرُ ينشّ على الصفيحة. لم أكن قد بدأت الذهاب إلى المدرسة، ولهذا يمكنني البقاء هناك قدرَ ما أشاء.

جلستُ أمام الطاولة وقهوتي الساخنة في قدح أصفر. فكّرت في المبنى الذي يحترق، وفي الناس الذين يسكنونه، الذين استيقظوا في منتصف الليل في الهواء المشتعل؛ وركضوا باتجاه الباب، وأولادُهم تحت أذرعهم، ونزلوا الأدراج مسرعين، وخرجوا إلى الشارع في اللحظة الأخيرة. نحن في كانون الأوّل/ديسمبر، والبرد كان في استقبالهم. ولكنّ أناساً ذوي خبرة يفعلون أصلاً كلّ ما يمكن فعله، ولم أرغب في الخروج لأنضمّ إلى المتسكّعين. على كلّ حال، عليّ الذهاب بعد قليل، فالساعة تقارب السادسة. أغلقتُ الموقد، ثمّ حضّرتُ ساندويتشات، غلّفتها بورق رقيق ودسستها في حقيبتي. كانت حقيبة جلديّة، مثل تلك التي يستعملها والدي، فيها جعبة رئيسية أضع فيها طعامي و صحيفتيّ «أربايدلبلاديت» و«كلاسيكامبن» - اللتين أطويهما بشكل

يخفي أسميهما - وجيبان صغيران في الأمام، حيث أدسّ دفتراً صغيراً وقلماً وآخر قرارات الحزب. وأخذت أيضاً الكتاب الذي أقرأه.

مررتُ من جديد أمام غرفة الجلوس لأنظر إليها، وهي نائمة في الضوء اللطيف الرمادي الآتي من النافذة. لم أتحرّك ولم أقلْ شيئاً، لأنني لا أريد إيقاظها؛ عليها أن تنهض بعد قليل للذهاب إلى مدرستها. شعرتُ بقلق، كما أشعر في كثيرٍ من الأحيان حين أسهر وتكون نائمة؛ فهي تبدو يافعة جدّاً. إنّها طفلة. طفلة صغيرة جدّاً. تنهّدتْ في الظلام قائلة: أوه «أرفيد»؛ وهي نائمة تقريباً، طائفة في مكان ما بين هنا ومكان آخر. لم يُفلت منها يوماً اسمٌ آخر، هو ذكرى لعناق منسيّ؛ لم تقل يوماً «غونار»، أو «إسبن»، أو «تومي»، «تومي» بالذات؛ بل دائماً «أرفيد». لا أحد سوى «أرفيد»، لأنّ من يدعى «أرفيد» هو الأوّل، ويمسك العالم بتوازن بين يديه. وعندما أعي ذلك، يكون صعبَ الاحتمال أحياناً. ولم تكن تشعر أنّها صغيرة، لم تبدُ لي صغيرة لأنّها تعرف أموراً أجهلها. ومع ذلك فهي صغيرة، وهذا يربكني قليلاً.

بقيت حرارتها في جسدي. وطلع الصباح شاحباً في ساحة «كارل برنرز». عبرتُ خطوط السكّة الحديديّة، واجتزت الساحة تحت أسلاك الترام، ولم تكن الإعلانات المضيئة مشعلة، وبدا لي ذلك أمراً حسناً؛ وأنا سائرٌ على غير هدى على الرصيف. كان عليّ أن أنكمش للإبقاء على الحرارة المحفوظة تحت سترتي، وأن استقلّ المترو والأفكار تجري من دون أن يشتّتها شيء، و في الوقت نفسه، أنت جزء من الجمع الذي يتوجّه ليستقلّه في هذا الصباح البارد من كانون الأول/ديسمبر. أعجبني أن أنتمي إلى الـ«نحن»، أن أكون أكبر من أناي، أن أشعر بأنني محاط كما لم أكن محاطاً يوماً؛ و لا يهمّ إذا لم يعرف العابرون إلى جانبي بهذا الشعور. كان الأمر هكذا، بمعزل عمّا يشعرون أو يفكّرون. نحن «ربع الدولة»، المتّجهين نحو محطّة المترو، نحو أماكن عملنا. ينزعج رفاقي في الحزب عندما أتكلّم عن «ربع الدولة» بدل استعمال تعبير الطبقة العاملة؛ إنّها مفارقة تاريخيّة وتعبير ينتمي إلى زمن آخر، كما يؤكّد أولئك الذين يعرفون كلمات بليغة؛ ويقولون: لا نعرف حتّى ما هو «ربع الدولة»، ولا معنى لهذه الكلمة. و لكن لم تكن لي نيّة التخلّي عن هذا التعبير؛ بدا لي صحيحاً، وإن كانوا لا يفهمون شيئاً عنه. لم يقرأ أحد منهم «فيكتور هوغو»، فهم لا يقرأون إلّا ما يقع تحت أيديهم، ويجهلون أنّنا سننجح هذه المرّة نجاحاً باهراً في حين فشلت ثورات 1830، و1848 و1871. ولكن كانت في جعبتي آخر قرارات الحزب. عرفت بأنني، من دون شك، لن أستطيع تطبيقها مطلقاً؛ على كلّ حال، لن أتمكّن من فعل الكثير، فأنا خجول جدّاً، ووحيد جدّاً. كنتُ أديراً ظهري إلى الحائط ولا أحبّ الوحدة. ولكنْ هنا، في الظلام، بينما أنا متّجه إلى المترو، لم يكن هذا مهمّاً. كلّ المحيطين بي أذكى منّي، رجالاً ونساء. فأنا

جاهل جدّاً. ومع ذلك، لم أرغب إلّا في أن أمشيَ في الصباح المبكّر باتجاه المترو وأكونَ واحداً منهم.

وجب المرور عبر رصيف التحميل واجتياز الباب الخفيف ذي المصراعين، كان الخارج بارداً والداخل حارّاً، والعربات مركونة على طول الحائط. خيّم الصمت في قاعة الآلات وكان الهواء منعشاً على غير العادة: ليس هنالك من انفجارات متقطّعة على الخوَذ العازلة للصوت، ولا غبار يعمي أعيننا، ولا رائحة مطّاط محروق، ولا أزيز السلاسل، ولا وخز ولا عَرَق دبِق. لبس القدامى المخلِصون للوظيفة بدلات العمل، وكانوا يثرثرون حول أمور مختلفة قرب آلة القهوة، بينما كانت «إيلي» جالسةً في أعلى لوح التحميل بقميصها الأزرق الفاتح، وساقاها متدلّيتان، ويبدو عليها النعاس والشرود. في تلك الحقبة، لم يكن أحد غيرها يدعى «إيلي». كنت أجد ساقيها جميلتين. هي أكبر منّي بعشر سنوات على الأقل، ويبدو عليها ذلك، ولكن لا يمكنني إبعاد نظري عنها. توجّهت إليّ من فوق رؤوس العجزة بابتسامة ترافقها غمزة، وأعدت إليها الغمزة. ثمّ نزلَتْ من جديد إلى القبو حيث الخزانة التي خُصّصت لي أخيراً؛ والتي خلَت بعد تقاعد أحدهم. أن يكونَ للمرء خزانتُه الخاصّة، أمرٌ يُعلي مكانَته، ويجعله مرفوع الرأس.

بعد ساعتين، اقترب رئيس العمال. كان الهواء مشبعاً بالغبار، وكلّ الآلات تدور، بينها تلك التي أستلمها، والتي عليّ تركها بانتظام لأركض خلف العربة و أُحضر ألواح تحميل، وإلّا توقّفت السلسلة. كان ذلك الفريق رقم واحد وكلّ شيء يجري على ما يرام على الرَّغم من غياب رفيقين. خلعت خوذتي العازلة للصوت، وألصقت أذني على فم رئيس العمّال، الذي أخبرني أنّ ربّ العمل يريد رؤيتي، حالاً. نظر إليّ، ثمّ أدار ظهره. ألقيتُ نظرة على السلسلة، على المسطّحة التي وقفنا عليها كلّنا، «إيلي» و«رايدون» و«رايدار» وأنا، ثمّ أشرتُ إلى حسن، رئيس فريقنا. وضعتُ سبّابتي على صدري، ثمّ أشرتُ باصبعي إلى الباب المفضي إلى المكاتب. ملأتُ محمّلي بالدفاتر ذات الصفحات الست عشرة من ورق «فولوم» النشّاف والغنيّ بالسلليلوز، من دون أن أكدّسها كثيراً. ثمّ اقترب حسن. رفع يده اليمنى وأبعد أصابعه الخمسة، وعدّها بسبّابته اليسرى واحداً بعد الآخر، أمام عينيّ تماماً حتّى أرى جيّداً. هززت رأسي بالإيجاب وابتسم، ولمّا كان كل شيء يجري على ما يرام، أخذ مكاني. حسن رجلٌ طيّب. تركت المسطّحة، واجتزت قاعة الآلات، ثمّ قطعت الباب العازل للصوت ودخلت جزءاً من المؤسسة فُرشت أرضه بالموكيت وزُرعت فيه نباتات خضراء قرب المصعد.

هو في الطابق الخامس. على الباب اسمه الأوّل فقط «تومي». لا ريب في أنّ ذلك مردّه أنّه يريد تثبيت كونه واحداً من الشباب، واحداً منّا، ليخلق إلفة لست أكيداً أنّي أقدّرها. وأنا، في الحقيقة، لا أقدّرها أبداً. قرعتُ الباب ودخلت.

- مرحباً.

- آه، مرحباً. لحظة.

انتظرت دقائق عدّة. هل يريد أن يقوّض استقراري النفسي؟ أن يحطّ من قدري، ويعاملَني كنكرة؟ شعرت بارتباك. ليس قَلقاً، بل ارتباك. ربّما يعرف أشياء أجهلها ويمكن لها أن تضرّني. على كلّ حال، لقد نجح في ما أراد، إن كانت تلك غايته. ولكن لا يمكن له أن يعرف ذلك. ابتسمت بشكلٍ غير ملحوظ. ثمّ رفع رأسه.

- هل تعرف لماذا شغّلناك؟

- لأنّني ترشّحت للعمل، كما أظنّ.

- لأنّ أباك اتّصل بنا ليطلب إلينا ذلك.

- حقّاً.

- كنّا نحبّ أباك كثيراً. لم يغب مرّة واحدة عن العمل، ولم يمرض يوماً، ولم يتسبّب بأيّ مشكلة مطلقاً. ليس ذنبه أنّه لم يعد بإمكانه العمل لوقت طويل. فهو لم يعد شابّاً.

- أعرف.

- هذا هو السبب الوحيد.

- حسناً.

- هذا كلّ ما هنالك.

توجّهت نحو الباب. التفتُّ إليه، ويدي على المقبض.

- أتعرف ما هو ربع الدولة؟

- ليس عندي أيّ فكرة.

- هذا ما ظننت. قلت راسماً ابتسامة أردتها ساخرة.

ثمّ فهمت أنّه لا يهمّه ربع الدولة مطلقاً، وأنّه لا يبالي بسؤالي. على كلّ حال، كان قد عاد إلى أوراقه، ولم يرَ ابتسامتي. هل أنا قادر على الهجوم على «تومي» هذا وركله بقدمي؟ هل أنا قادر على ترك هذه المؤسسة رافع الرأس؟ كنت أعرف جيّداً أنّ الإجابة هي لا. وعندما دخلت المصعد، كنت أشعر بصعوبة في التنفس.

20

لستُ أفهم. بدت لي اللحظة التي نزلتُ فيها من «هولغر دانسكي» بعيدة جدّاً. مع أن ذلك حدث في الصباح الباكر، في اليوم نفسه. كان على النهار أن ينتهي. نحن في تشرين الثاني/نوفمبر، في المساء، والمفترض أن يحلّ الليل، ولكن في الغرب بقيت الشمس معلّقة فوق السطوح؛ ترسل نوراً شاحباً وترفض أن تغرب.

مررت أمام «بالادستيترت»، في الطرف الشمالي من المدينة. امتدّت ظلال السينما القديمة في الشارع راسمة خطوطاً رهيفة على الواجهات المقابلة. ولكنّها ليست طويلة كفاية، وليست مظلمة إلى حدّ تطفئ به هذا النور المِلحاح والعموديّ.

أمام الكشك الذي لا يزال مفتوحاً، تراصفت الصحف على أماكن العرض الموضوعة على الرصيف، حاملة كلّها العنوان الكبير نفسه على الصفحة الأولى، «انهار الجدار»، وشعرتُ بأنفاسي تتقطّع، إذ لست على علم بشيء، وبدأت أبكي. وأنا راكب الدرّاجة عبر المدينة، شعرتُ بدموعي وهي تنهمر، انهمرت عند ملتقى طرق صيدليّة «الأسد»، وانهمرت أمام صيدليّة «الإوزّة»؛ لقد فاتني الوقت وفعل فعلته من ورائي و لم ألتفتْ، هذا عارٌ، وتابعتُ القيادة في «سوندرغادي»، الذي يمتدّ حتّى الطرف الجنوبي من المدينة، حتّى المكان الذي كنت أشرب فيه البيرة فيما مضى. كان ذلك قرب الطاحون، قرب كشك المثلّجات، المغلق ككلّ الأمكنة الأخرى؛ غير البعيد من المتنزّه المحيط بقُصَيْر «بانغسبو» الريفيّ، بنمريه المذهّبين اللّذين يظنّهما الجميع أسدين، والموضوعين على قاعدتين أمام المدخل. صار القُصَيْر الريفيّ متحفاً الآن، وفُتح لاستقبال الجمهور منذ زمن طويل، وكثيراً ما زرته مصطحباً ابنتيّ.

كنّا نستمتع فيه كثيراً، ونحن نتجوّل في المبنى الرئيسيّ، الذي له شكل اللام، نجد أنواعاً مختلفةً من الأشياء القديمة الآتية من المدينة ومن المنطقة، نرى أثاثاً قديماً عمره مائة عام أو أكثر، ونرى ثياب عمل وثياباً للاحتفال مزخرفة بالدانتيلّا وواقيات للصّدر، وعلى الحائط هنالك عددٌ كبير من الصور السبيدجيّة القديمة. عند الخروج، نشتري قضباناً من المثلّجات، ونتوقّف على الجسر فوق الخنادق لنطعم البطّ الخبزَ البائت الذي أحضرناه في كيس مطّاطي. كنّا نفتّت الخبز ونرمي القطع واحدةً بعد الأخرى، فتسارع البطّات إلى القدوم من كلّ النواحي؛ مشكّلةً إعصارات مائيّة، وضاربةً بجناحيها مثيرة الضوضاء. وفي بعض الأحيان تظهر أسماك الشبّوط على السطح؛ ونرى ظهورها الحمراء باديةً، تسبق البطّات، و تخطف قطع الخبز، ثمّ تعود إلى الغوص في ماءٍ بلون الشاي.

حوّلت طريقي نحو المتنزّه مجفّفاً وجهي، الذي ثلّجته الريح. كان دَبِقاً عند اللمس، ولكنّ الدموع لم تعد تنهمر من عينيّ، وفكّرت في كلّ الصور التي رأيتها لبرلين؛ وبالتحديد تلك التي تمثّل جنديّاً خوذتُه لامعة، يبدو وكأنّه يطير فوق الجدار من الشرق إلى الغرب ببزّته المكويّة حديثاً، متقلّداً بندقيّته، وأستونها متّجه إلى الأسفل، ومقبضها إلى الأعلى. بقي معلّقاً فوق الأسلاك الشائكة لحوالى ثلاثين عاماً؛ هل حطّ أخيراً يا ترى؟

بقيتُ واقفاً للحظة، ودرّاجتي بين ساقيّ، ناظراً إلى البيت الكبير الأبيض والجسر الأبيض. مدّت أشجار الدردار والكستناء والزان أغصانها العارية نحو السماء، وكان كلّ شيء نظيفاً وواضحاً ومن دون أزهار، ورجل يتجوّل في الممرّات يحمل أكياساً من نبتة الجوتة معدّةً لتغطية الأجمات والنباتات التي تخشى الجليد.

ركبت الدراجة من جديد وعدت أدراجي. عدتُ إلى طريق المقهى الذي كنت أذهب إليه عندما لم يكن الجدار قد انقضّ بعد، ولكنّي لم أستطع إيجاده. وأنا أدفع درّاجتي على طول المبنى، عرفت مستودع إرساليّة الهند بأسقاطه من الأثاث المستعمل، والثياب القديمة والكتب المستعملة. على يمين واجهته الواسعة، رأيت باباً لا بدّ من أنّه باب المقهى. ولكن ليس هنالك من لافتةٍ تعلن أنّه مغلق، أو أنّه انتقل إلى عنوانٍ آخر. لقد اختفى بكلّ بساطة. فوق مدخله، هنالك الرمز الأول «ف.و.ن.ا» بأحرفٍ من النيون الأزرق. ألقيت نظرة عبر النافذة، مخبّئاً عينيّ بيدي. كان هنالك أجهزة تلفاز وأجهزة تسجيل متراصّة في الداخل.

أطلقتُ شتيمة، وتملّكتني الرغبة في شرب البيرة؛ هنالك صدع يجتاز حياتي، هاوية لا يمكن أن يردمها، إلا كوب بيرة.

مرّ رجل أمامي. لا بدّ من أنّه سمعني أشتم، لأنّه اقترب بحذر مبالغ فيه من البيت المجاور، الذي لا شكّ أنّ فيه مسكناً. على كلّ حال، تبوّأ أصيصاً أبيض لإحدى النوافذ فيه إبرة الراعي حمراء اللون. وبالفعل أخرج مفتاحاً من جيبه، ثمّ استدرك. نظر إليّ وعاد أدراجه، فقد فهم ما أردت. فهم أنني لست دانمركيّاً، لأنّ درّاجتي زرقاء بينما الدرّاجات الدانماركيّة كلّها سوداء.

- أظنّ أنّك لم تأتِ منذ مدّة. هو مغلقٌ منذ سنتين، قال بلغة سويديّة تقريبيّة.

وتساءلتُ لماذا يفترض الدانمركيّون أنّ النرويجيّين هم سويديّون بالمطلق، ويعتقدون أنّهم مضطرون إلى مخاطبتهم بهذه الرطانة. فاسكندينافيا مكوّنة من ثلاثة بلدان.

- لقد انتقلوا. أكمل كلامه و هو يشير إلى وسط المدينة. إنّهم قرب «المكتبة الزهريّة» الآن.

وكأنّ كلّ الناس يعرفون «المكتبة الزّهريّة». ولكنّي أعرفها. ذهبت إليها مرّات كثيرة وأنا مراهقاً، بل حتى قبل ذلك؛ وقفت طويلاً أمام الواجهة أنظر إلى الكتب الحديثة، وفتّشت في صندوق البيع بالتصفية، وكنت أجد دائماً شيئاً يعجبني ويمكنني شراؤه.

- شكراً، قلت. إذاً سأذهب لأسكر في المقهى القريب من «المكتبة الزّهريّة»

- ولكنّك لست سويديّاً! أنت نرويجيّ!

- أحسنت! أنا أهنئك! وبما أنّ الأمر هكذا، سأسكر باعتدال.

- أرجو ذلك.

- شكراً من جديد. قلت وأنا أُعاود صعودي على مقعد الدّراجة.

- فلترافقك السلامة.

توقّفت أمام المكتبة أوّلاً. كان الوقت متأخّراً، والمكان مغلقاً، والباب الحديديّ الجرّار مُنزَلاً، ولكنّ النور لا يزال معانداً في السماء وأضواء الواجهة مُنارة. لقد صدر كتاب لـ«كلاوس ريفبجرغ» حديثاً، وهو ينشر كتاباً في السنة، تقريباً. وهنالك أيضاً الأعمال الشعريّة الكاملة لـ«بول لاكور»، وطبعة جيب لـ«عمليّة نهب» لـ«توم كريستنسن»، وهي قصّة الصحافيّ السكّير «أولي

جاسترو». عندما قرأت هذا الكتاب لأوّل مرّة، أخافني إلى حدّ أنّني عاهدت نفسي والإله الذي لم أؤمن به أنّني لن أشرب الكحول مطلقاً. ثمّ ركنتُ درّاجتي في المرآب ودخلت المقهى.

كان المحلّ البنيّ مظلماً. و لم أرَ في البداية، عبر الدخان، سوى طاولة الشرب المضاءة. ثمّ رأيت رجالاً مستندين إلى البار حيث الزجاجات من كلّ الأنواع، وأخيراً رأيتُ رجالاً ونساءً جالسين على الطاولات إلى اليمين وإلى اليسار. كلّهم يشربون البيرة ويدخّنون لفافات التبغ، لا شكّ في أنّها «برينس»، ويتكلّمون عن مواضيع يعرفونها جيداً، ولا أعرف عنها شيئاً. هنا يمكنهم معرفة آخر الأخبار، وتبادل الأفكار حول كيفيّة تطوّر الأمور، وحول آخر التطوّرات في المجالات التي يجدر الحديث عنها: مدى ضرورة كاسحة الجليد في عصر لم يعد البحر يتجلّد فيه مطلقاً، والبناء البحريّ، وحجم مستودعات الغاز لدى «ألفا ديزل». ويتكلّمون بالتأكيد عن الجدار الذي، لدهشتي البالغة، انهار وتطايرت منه الكتل الإسمنتية في جميع الاتجاهات، شرقاً وغرباً. وفي الزوايا يتصاعد صوت بدا لي مصمّاً للآذان، ويكاد يكون مؤلماً، بعد صمت الطرقات. التفت الجميع إليّ. تقدّمت نحو طاولة الشراب، بخطوات متردّدة متثاقلة، ونجحت في إيجاد مكان شاغر بين الشاربين. كانوا ينظرون إليّ كلّهم، وأكواعهم على البار.

طلبتُ بيرةً.

- بيرة مضغوطة، إن كان لديكم.

اضطررت إلى التحديد لأنّي لم أرَ حولي إلّا زجاجات، «كارلسبرغ» و«تيبورغ»، ولم أرغب البيرة في زجاجة. فهي دائماً فاترة وليس فيها ما يكفي لإرواء الظمأ.

وكان لديهم منها. أمسك الساقي كوباً، وشغّل المقبض وأسال البيرة؛ كان هنالك الكثير من الرغوة، فأزال الفائض بمِسوَط، ثمّ ملأ الكوب حتّى الجُمام، ووضعه أمامي على قطعة من الورق المقوّى مكتوب عليها «كارلسبيرغ» بالأبيض والأخضر، ومرسوم في وسطها تاجٌ أحمر.

عاد الرجال إلى الثرثرة، والنساء المعدودات كذلك. بهدوء في البداية، ثمّ أقوى فأقوى، حتّى استعادوا الطبقة الصوتيّة نفسها التي سمعتها حين وصولي؛ ربّما بحذرٍ أشدّ وتحفّظٍ أكبر، كأنّني عينٌ لمدير الموارد البشريّة في المنشآت البحريّة، حيث يعملون كلّهم من دون شكّ.

رشفتُ جرعةً كبيرة. وبدت البيرة لي لذيذة على نحوٍ استثنائي، فشربت كوباً ثانياً، ثمّ وضعت كوبي على كرتونة «كارلسبيرغ» مصدراً تنهيدةً مسموعة جيّداً. أخرجت علبتي الـ«بيترو3» و لففت سيجارة أشعلتها بقدّاحتي الزرقاء.

- أنت نرويجيّ!

- نعم، هذا صحيح.

قلتُ في نفسي إنّه يوم تاريخي: للمرّة الأولى ألتقي بدانمركيّين لا يخلطون بين الدول الإسكندينافية.

- إذاً، أعذرني على السؤال، ولكن ماذا تفعل هنا؟

- أشرب بيرة.

- أرى هذا. ولكن هنالك الكثير من الأماكن في المدينة يمكن شرب البيرة فيها. إذاً، لماذا هنا؟ أنت لا تعرف أحداً هنا، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- إذاً، لماذا هنا؟

- هنا مدينتي.

قلتُ في نفسي إنّ هذا الرجل يغوى كلمة «إذاً». وانتابتني حالة من الجرأة، فأدرتُ كرسيّي حتّى صار المقصف وراء ظهري، وتركتُ نظري يهيم. أنا منبع. ليس ذلك صحيحاً، ولكنْ هنا، لا أحد يعرف.

- أحقّاً؟ مدينتك؟

- لقد نشأتُ هنا على كلّ حال.

- إذاً، لماذا لا تتكلّم اللغة الدانمركيّة؟

- بالفعل، أنا لا أتكلّم هذه اللغة. ولكن لو قمتَ بجهدٍ بسيط لفهمتني جيّداً.

- معظم الدانمركيين يخلطون بين النرويجيين والسويديين. وإذاً؟ هم لا يميّزون الفرق.

- بالضبط. وهذا يزعجني.

تماماً كما بدأت الـ«إذاً» تزعجني. شربت جرعة كبيرة أخرى من البيرة، ووجدت أنّ كوبي قد فرغ، فرفعته باتجاه الساقي .

- واحداً آخر، لو سمحت.

- بالطبع أسمح.

وقدّم إليّ كوباً آخر، وأكواباً أخرى بعده. وبعد الكوب الرابع سكِرت إلى حدٍّ ما. شعرت بأنّني لست بخير. وصرت أسمع طنيناً في أذنيّ. كنت أمسك كوبي الخامس في يدي، رفعته إلى فمي، وقلتُ في نفسي إنّ من الأفضل لي أن أذهب؛ فسينتهي أمري إذا شربتُ جرعةً أخرى. وشربتُ واحدةً أخرى، وفي الزاوية الأكثر عتمةً نهض رجلٌ ليتّجه نحوي، مترنّحاً قليلاً. ظهر كشبحٍ في نور المقصِف، ورأيت وجهه، كان هنالك ورمٌ دمويّ كبير على وجنته اليسرى. لم أصدّق عينيّ. إنّه رجل السفينة، وهو متوجّه إليّ. لم أعرف ما أفعله، وشعرت بالخوف، وبأنّني في خطر، خطر الموت. شددت قبضتي على كوبي، وصار الرجل قريباً جدّاً منّي. توقّف على بعد متر، وبقي جامداً وصامتاً، مكتفياً بأن يطرف عينيْه؛ صار يغمض جفنيه، ويفتحهما وينظر في وجهي مباشرةً؛ هنالك يأس في صوته إلى حدّ أنّني كدت أبكي.

- ولكن لماذا ضربتني؟

أخذت نفساً عميقاً وتراجعت عن فكرة الدفاع عن نفسي.

- أنا آسف، حقّاً. ظننت أنّك تتبعني. وتريد إيذائي. ظننت أنّك تريد رميي عن سطح المركب.

لا بدّ أنّني كنت شديد السكْر.

- كيف ذلك؟ أرميك عن سطح المركب؟

بدا غير مصدّق وأشفقت عليه. ولكن ليس بسبب ورمه.

- أنا آسف. كان ذلك غباءً منّي، ولكنّي مقتنعٌ بذلك حقّاً. شربتُ كثيراً، افهمني، لقد خفتُ.

- خفت؟ منّي؟ ولكنّي «موجينز».

- ماذا؟

- «موجينز». اسمي «موجينز».

- «موجينز»؟

- أنا «موجينز» صديقك. لا يضرب المرء أصدقاءه. ليس ذلك أمراً جيّداً.

- نحن أصدقاء؟

كان أكثر سكْراً ممّا ظننت. أكثر سكْراً منّي.

- بالطّبع نحن أصدقاء. ألا تذكر شيئاً؟ عرفتك ما إن رأيتك على السفينة. قال الرجل المدعوّ «موجينز».

كان صوته يرتجف، وأعتقدت أنّ فيه نبرة توتّر.

لا أفهم. عرفني على السفينة، على بار الـ«هولغر دانسكي». كيف أمكن له أن يعرفني؟ إنّه «موجينز»، فكّرت، اسمه «موجينز». إنّه «موجينز»، يا إلهي. لا أعرف إلّا «موجينز» واحداً، وهو فعلاً صديقي، وهو من يقف أمامي. الأمر أوضح من النهار ويمكن رؤيته مباشرةً؛ لقد كبر في السنّ بكلّ بساطة، كما كبرتُ في السنّ أنا كذلك، وقد أخطأت خطأً فادحاً على بار الـ«هولغر دانسكي» عندما قلت في نفسي إنّ الرجل في الطرف الآخر من المكان لا يمكن له أن يعرف شيئاً عن حياتي. لأنّ «موجينز» كان صديقي. كنّا أصدقاء لسنوات عدة. في كلّ صيف، عندما أصل على متن سفينةٍ تدعى ال«فيستولا»، أو «برينس أولاف»، أو «سكيبر كليمنت»، أو «أكرشوس»، أو «كورت آدلر»، أو «بيتر فيسيل»، كان ينتظرني قرب المحطّة الأخيرة، ويشير إليّ بيده محدّقاً إلى درابزين السفينة، حيث أنحني بتهوّر لأشير إليه بيدي كذلك. كثيراً ما تساءلتُ كيف يعرف وقت قدومي. ولكن عندما نقترب من الساحل كان دائماً هناك، قرب المحطّة الخضراء. والآن، في هذا المقهى القريب من «المكتبة الزّهريّة»، فهمتُ أنّه كان ينتظر على الرصيف قبل أسبوع من وصولي على الأقلّ متمنّياً كلّ يوم أن أكون على متن السفينة الضخمة، وأنّي سأراه و أرفع يدي لأحيّيه.

حاولت أن أقف منتصباً، من دون ترنح. مددتُ إليه يدي اليمنى.

- مرحباً يا «موجينز». لقد مضى وقت طويل. أنا سعيد برؤيتك من جديد.

أمسكَ يدي وشدّها بقوّة.

- أحقّاَ؛ هذا ما تظنّ؟

وبيده اليسرى لكمني على وجهي، وهو لا يزال ممسكاً بي بيده الأخرى، وبقيتُ معلّقاً بذراعه؛ ضربني من جديد، ثمّ أفلتني وهويت تحت أقدام الشاربين. أوه، كم تألّمت. أغمضت عينيّ. وأنا ممدّد على ظهري، حاولت أن أستعيد رشدي. كان خدّي يحرقني، ولم أشعر في حياتي بألم مماثل. لم يساعدني أحد من الشاربين على النهوض، فوقفت مستنداً على كوعيّ ورأيت «موجينز» يبتعد بخطوات غير واثقة باتجاه الجهة الأكثر عتمة في المقهى. ماتت صداقتنا، وتفاجأت بأن أجد نفسي تتحسّر عليها، وتتحسّر على الماضي الذي اختفى والمستقبل المستحيل. ولكنّ صيفيّاتنا كانت قد اضمحلّت. ليس فقط لأنّني نسيتها بعد مرور خمسة وعشرين عاماً: بل على نحو خاص لأنّه، بعد اليوم، لم يعد لتذكّرها أيّ معنى.

21

عيد الميلاد على الأبواب وأنا أمام السلسلة منذ ستّة أشهر. حاولت، بلا جدوى، تطبيق كلّ قرارات الحزب. ترشّحت لمنصب المفوّض النقابي وحصلتُ على أربعة أصوات: صوتَيْ صديقيْن قديميْن لوالدي لم يتجرّآ ألّا ينتخباني، وصوت «إيلي» وصوت عامل التنظيفات الذي رفع يده في الوقت غير المناسب لأنّه أصمّ. كان الناس يسمّونني «ستالين الصغير»، مع أنّني لا أتحدّث عن «ستالين» أبداً؛ بل أكره «ستالين». فقد أفسد كلّ شيء.

لكنّ عملي يسير على ما يرام؛ كان الأمر غريباً. لم أكن أقلّ نجاحاً من الآخرين، بل إنّي الأسرع في الفريق رقم واحد، والأدقّ؛ وأستسهل كلّ ما أعمله، وأشعر بلذّة في العمل. أستمتع بإيقاع السلسلة وبرائحة غرفة الصهر القويّة، وأستمتع باجتياز الباب الخفيف ذي المصراعين، بالعربة الكهربائيّة، التي عليها لوح محمّل بالمجلّات المغلّفة بالبلاستيك، وبالدوران في مساحة ليست أكبر من طابع بريديّ لأصل إلى مؤخّرة الشاحنة، وأستمتع بالتقدّم على رصيف التحميل الذي يهتزّ تحت ثقل الآلة، ووضع حملي في المكان المناسب، تماماً قبل أن أعود لأحضر غيره.

لا شكّ في أن زملائي في مدرسة «دالننغاتا» يجدون ذلك بطوليّاً. ولكنْ في أعينهم، لا بدّ من أنّه أمرٌ مملّ، ومضنٍ، أن يقوم المرء بالحركات نفسها مراراً وتكراراً، كالعمل الذي أقوم به يوماً بعد يوم في مستقبلٍ لا أرى نهايته. أنا لا يزعجني ذلك. وأنا أوّل من أدهشه الأمر: العمل يسمح لي أن أفكّر في أمور متعدّدة تبدو لي مهمّة، أو أن أستغرق في أحلام اليقظة عندما يصبح الصوت عالياً جدّاً. ليست مهمّاتي معقّدة؛ وينبغي فقط أن يجد جسمي الإيقاع المناسب، وأن يتحرّك بطريقة محدّدة ويتناغم وأجسامَ الآخرين. وجسمي يحبّ الركض في المحترف بحثاً عن ميكانيكي أو أخذ الرافعة للنزول إلى المطبعة، في الطابق الأسفل، أو بكلّ بساطة البقاء أمام السلسلة قرب

«إيلي» عندما تسير كلّ الأمور على ما يرام. وأستغلّ دقائق الاستراحة القليلة لأقرأ صفحة من كتابي «أسطورة وي تاوتسو» لـ«سفن ليندكفيست». عندما يقول: «هل التحرّر الاجتماعي والاقتصادي ممكن من دون عنف؟ كلّا. هل هو ممكن بالعنف؟ كلّا».

هذا أمر يبعث على التفكير، وهذا ما أفعله. و لكنّ الأيّام تمرّ ولا يحدث شيء بالطريقة التي تخيّلتها. هنالك، سياسيّاً، هوّة بيني وبين الآخرين؛ في كلّ مرّة أحاول فيها طرْقَ موضوع الاتجاهين النقابيّين - الأحمر الثوريّ، والأزرق المحافظ - يربّتون على ظهري ويبتعدون هازّين رؤوسهم. ثمّ يجلسون على لوح تحميل لتدخين سيجارة إذا ما كان وقت استراحة، أو يصعدون طابقين حتّى المطعم، ويلعبون الورقَ إذا كان وقت الغداء. بقي والدي سنوات في هذه المؤسّسة، والكلّ يقدّرونه، و يُقال لي باستمرار إنّني أشبهه كثيراً. ولكنّي لم أرد أن أكونَ مثله، لم اشأ أن أحبّ العمل كما أحبّه هو. لم أشعر بأنّني مثله في يوم من الأيّام. أردت أن أكون مختلفاً. أردت أن أتميّز، أن أكون رجلاً جديداً. ولكنّي عاجز عن ذلك. أدركت فجأة أن ليس بإمكاني وضع «أرفيد» الذي كنته حتّى اليوم خلفي، وأن أدير له ظهري كما حاولت أن أفعل، وحملُه بجهد جبّار لأضعه في «أرفيد» آخر لا أعرفه بعد. أن أترك بكامل إرادتي «أرفيد» يهلّل له الناس الذين يحيّونه، «أرفيد» يشيرون إليه بأيديهم، وينادونه بكلمات لطيفة عندما يرونه مارّاً على بلاط الممشى، «أرفيد» تعطيه أمّه مائة كورون عندما يكون مفلساً؛ أن أترك هذا الـ«أرفيد» لأنضمّ إلى ربع الدولة الذي لم يعد موجوداً، الذي هو مفارقة تاريخيّة، وظاهرة من حقبة أخرى. على كلّ حال، هذا ما صرته، ظاهرة من حقبة أخرى. أو أنّ هنالك عيباً في شخصيّتي، وصدعاً في الأساسات، لا ينفكّ يكبر.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle عملتُ لساعات ثمانٍ مرّتين متتاليتين من جديد. كنت ضمن الفريق المسائيّ، ولكني عملت ساعاتٍ إضافيّة. بدأ هذا يستهلكني، وأصبح ذهني مشتّتاً وأشعر بأنّني مُستغَلّ. استقلّيتُ المترو لأعود إلى البيت، وبقيت المقطورة واقفة في «هاسل»، لأنّ رجلاً تهاوى في منتصفها. كان يحرّك ذراعيه وساقيه عشوائيّاً. لا شكّ في أنّها نوبة صرع، ولم أرَ ذلك من قبل. صار رأسه يصطدم بالأرض، ومعظم الركّاب لم يُبدوا أيّ ردّ فعل لشدّة تعبهم، لم يعرفوا ماذا يفعلون، ورفضوا أن يُستخرجوا من عالم الأحلام الغارقين فيه. كانوا محرجين وصامتين، ولم يتحرّكوا، حتّى اضطررت إلى مواجهة عنف الأمر الواقع، والطلب أن يُمسَك به كي لا يجرح نفسه بالباب أو بالعمود المعدنيّ. واضطررت إلى الركض عبر المقطورة لأبلّغ السائق، لأنّني شيوعيّ أو كشّاف، واحد من الاثنين. ثمّ انتظمت الأمور؛ تركتُ المقطورة في المحطّة الزرقاء، وصعدت الأدراج لأجد

نفسي خارجاً. كان طاحون هواء يدور في رأسي؛ نحن في الصباح و الهواء صافٍ إلى حدٍّ لست متعوّداً عليه. آذى النور الثابت وغير الطبيعيّ عينيّ، فصرتُ أطرف أجفاني باستمرار؛ وصرتُ أضع نظّارات شمسيّة في كلّ الظروف. كان عندي جرحٌ في الحنجرة يأبى الشفاء، في منطقة حسّاسة. إنه التهابٌ في مجرى التنفّس.

انغلقت أبواب المحطّة خلفي. وفجأة لمحت «إيلي»؛ كانت صاعدة من ساحة «كارل برنرز» عبر «غرنسيفاين»، وهي ترتدي معطفاً فاتح اللون، وتتقلّد حقيبة زرقاء، وتمسك سيجارة في يدها. كدنا نتصادم. توقّفتْ، وتوقفتُ مثلها؛ لا تفصلنا سوى أمتار عدّة. أثارتني رؤيتها بثياب غير ثياب العمل. وبدت لي غريبةً وذات أنوثة إشكاليّة. وشعرت بوجهي يحمرّ.

- مرحباً يا «أرفيد». هل أنت في استراحة؟

اختلطت رائحة عطرها بالهواء الشتويّ، وبقيت عالقةً فيه. كانت قويّة جدّاً، ولكنّ لها مفعولاً على المعدة؛ أفترض أنّ هذه هي الغاية من ابتكار العطر.

- أنا عائد إلى البيت لأنام، لقد عملت لثماني ساعات مرّتين متتاليتين، مساء البارحة والليلة.

رغبتُ أن أخبرها عن الرجل الذي تهاوى في المقطورة، ولكن في النهاية لم أمتلك القوة الكافية لذلك.

- لا ريب في أنّك تشعر وكأنّ رأسك طبلٌ.

أجبتُ بنعم، ثمّ أضفتُ:

- ولكن ألا تستقلّين المترو عادةً في ساحة «كارل برنرز»؟

- أنا في خضمّ الانتقال إلى مسكن آخر، لذلك أنا متأخّرة. أمّا الأحمق الذي كنت أعيش معه، فأفضّل عدم الكلام عنه. وجدتُ شقّة قرب متحف «مونش»، مقابل حديقة النباتات مباشرة. كان عليّ أن استقل المترو في «توين». يجب أن تأتي لرؤيتي، فقد صرنا جيراناً. سيسعدني ذلك.

كانت تبتسم لي.

- نعم، بالطبع، إنّها فكرة جيّدة.

لست متأكّداً من أنّني أرغب بزيارتها، ولكنّها أعطتني عنوانها.

- لن أتمكّن من تذكّره.

- انتظر.

بحثت في حقيبتها الزرقاء، وأمكنها بعد جهد العثور على مغلّف فارغ و قلم حبر؛ هي في الأربعين من عمرها، وأنا بُعَيْدَ العشرين.

- استدر وانحنِ إلى الأمام.

كانت لا تزال تبتسم وانصعتُ لها. أخذت وقتها لتكتب عنوانها على المغلّف؛ فصارت رائحة عطرها أكثر وضوحاً، ويداها اللتان على ظهري تزيدان الألم الذي في عنقي، مع أنّ لمستها كانت ناعمةً. كدت أذرف الدموع بغزارة، ولكنّي لم أفعل. دسّت «إيلي» المغلّف في جيب سترتي، بالحركة البطيئة نفسها، وهي لا تزال خلف ظهري، منحنيةً فوقي. وضمّتني بين ذراعيها، وشعرتُ بشفتيها على أذني، ورائحة عطرها والاحتكاك بجسمها من خلال هذا المعطف الفاتح غير المعتاد. وتلاطمت أفكار لا يمكن التعبير عنها وغير عقلانيّة في رأسي.

عندما وصلتُ إلى بيتي، تناولتُ زجاجة عصير ليمون من الثلّاجة. وشربتُ كوباً كبيراً وأنا واقف أمام طاولة المطبخ. ثمّ ذهبت إلى غرفة الجلوس، وأخرجتُ الأغطية من مسند الكنبة وانسللت تحت البطانيّة. تأمّلت السقف، وأنا ممدّد على ظهري، محاولاً ترتيب الأفكار العديدة التي تحتشد في رأسي.

نمتُ حتّى وقتٍ متأخّر من بعد الظهر، وكنت لا أزال نائماً عندما عادت من مدرستها. أدارت المفتاح في القفل وخلعت معطفها على المدخل. ولمّا كانت سترتي معلّقة هناك، عرفَتْ أنّني هنا. ولكنّها ذهبت إلى المطبخ مباشرةً، كامرأة اكتسبت عاداتها بعد سنوات طويلة أمضتها في الشقّة نفسها. وضعتْ ماءً للتسخين، وسمعتُ نقاط الماء تنشّ على الصفيحة المعدنيّة. هي تشرب الشاي دائماً عندما تأتي، ولم تعد تتقيّأ في الصباح، وتكتفي بالعودة إلى بيتها مرّة أو اثنتين في الأسبوع. ولكن ربّما صار بيتها هنا. أخرجت الكتب من حقيبتها. ووضعتها على الطاولة ثمّ شرعت في كتابة فروضها. أمضت هناك ما يقارب الساعة. في هذا الوقت، كنت مسترخياً في غرفة الجلوس، مترقّباً وراجياً. ثمّ أتت لتنسلّ قربي. بعد ذلك، لبثنا جالسَين على الكنبة، متدثّرَين بالبطانية، كما نفعل في كثيرٍ من الأحيان. الوقت لا يزال بعد الظهر، ونحن في كانون الأوّل/ديسمر والليل يحلّ باكراً، ولكنَّ الظلمة لم تخيّم تماماً. أشعلتُ

سيجارة؛ التمعت الجذوة ورسم الدخان الرماديّ نفثات لولبيّة لا تكاد تُرى فوق رأسَينا، ثمّ حملتها تيّارات الهواء فطارت من النافذة. في الخارج، كانت السيّارات تسير في الاتجاهين؛ وانعكست أضواء مصابيحها على زجاج النافذة مضيئةً الكنبة، وماحيةً صورة «ماو». وعند تقاطع الطرق، انتقلت أضواء الإشارة من الأخضر إلى الأصفر، ثمّ إلى الأحمر اللامتناهي، وهكذا دواليك. كنّا ساخنين وغارقَين في العرق، ولا ريب في أنّ جلدنا يلمع. كنت دائماً أقول في نفسي أنّه لو رآنا الناس هكذا، لرأوا شيئاً لن يختبروه مطلقاً، أمراً سيبقى ناقصاً في حيواتهم. وسيكون ذلك شوكةً في خواصرهم، وقذىً في أعينهم.

ناولتها السيجارة، ولكنّها لم تأخذها. التفتُّ نحوها. كانت تنظر إلى البطّانية.

- آلو.

- آلو.

- هل يزعجُكِ أمرٌ ما؟

- كلّا.

- هل أنتِ متأكّدة؟

- كنتَ مختلفاً هذه المرّة.

- ماذا تعنين بمختلف؟

- لا أعرف. مختلف وحسب.

- لم يكن ذلك جيّداً، لم يعجبك؟

- بلى.

- كان جيّداً، مع ذلك.

- نعم. قالت عاضّةً على شفتيها.

كانت تبكي بهدوء وهي تنظر إلى البطانية. ربّما هي تبكي منذ فككنا عناقنا، ولم أنتبه. احتضنتها.

- ليس هنالك إلّا أنتِ وأنا، قلت. ونحن نعمل أشياء يجهلها الآخرون؛ لا شكّ في أنّهم يودّون أن يعرفوا ماذا نفعل، وأنّهم حزينون لأنّهم لا يمكن أن يعيشوا ما نعيشه. فهم لا يستطيعون ذلك. لا يعرفون شيئاً. ليس هنالك من يمكنه عيش هذا سوانا، أنتِ وأنا.

ضممتها بشدّة وبقيت مفلتةً ذراعيها. لم تمسكني من كتفيّ، ولم تضع يديها حيث تضعهما عادةً. واستمرّت في البكاء.

- ليس هذا ما شعرته. شعرتُ أنّ كلّ الناس بإمكانهم رؤيتنا، وأنّنا لم نكن وحدنا، نحن الاثنين.

لم أعرف بماذا أجيبها. أفلتّها. تنشّقت الأنفاس الأخيرة من سيجارتي، ثمّ سحقتها في المنفضة الموضوعة بين رزمات الكتب التي تزدحم بها الطاولة. ولمستُ ظهرها.

- عدتِ إلى بيتكِ البارحة؟

وكنتُ أعرف أنّها عادت.

- نعم.

- كان الأمر شاقّاً؟

- نعم.

- ربّما أنتِ متعبة، بكلّ بساطة. ربّما يجب أن تنامي قليلاً، حتّى لو أنّ الوقت ليس متأخّراً. لديكِ فروض؟

- كتبتها عندما أتيت. كدت أنتهي؛ سأكتب الباقي تحت سقيفة مكتبة «دايشمان» غداً صباحاً. بما أنّ الطقس ليس بارداً.

- كما تشائين. إذاً يمكنك النوم مطمئنّةً.

- أنا متعبة قليلاً.

- سأبقى هنا، قربكِ. ليس عندي اجتماع هذا المساء.

- هذا جيّد، قالت.

وعدنا إلى النوم وأحطتها جيّداً وضممتها بين ذراعيّ منتظراً أن تنام. ثم نهضتُ، وذهبتُ إلى المطبخ، وجلست عارياً أمام الطاولة ولففتُ سيجارة. الجوّ بارد ووجدت صعوبة في قدح عود الكبريت. وتساءلت كيف عَرَفَتْ، أنّني فكّرتُ بأخرى.

22

أيقظني صوتُ سيّارة. لم أعرف لا أين أنا، ولا في أيّ وقت من النهار. لم يعُد لي اسمٌ، وغدوت خارج الزمان والمكان. يمكن لعمري أن يكون اثني عشر عاماً أو ثمانية وستّين عاماً. ثمّ فتحت عينيّ وعرفتُ الفراش الصغير الذي فوق مرقدي، إنّه ذلك الذي أراه منذ سنوات، وتذكّرتُ حياتي وسهرة البارحة بكلّ تفاصيلها. وفي لحظةٍ واحدة، صرتُ في الشاليه، ولكنْ مشوّشَ الذهن. كما لو أنّ شيئاً قد تبخّر أثناء النوم؛ شيئاً أكثر وقاراً، وأكثر إطراءً لي.

توقّفتِ السيّارة، ولكنّ المحرّك استمرّ في الدوران. ثمّ أطفأ أحدهم المحرّك، وخيّم الصمت من جديد. رفعتُ رأسي بحذر، منحنياً على النافذة، واكتشفتُ أنّها سيّارة أجرة. النهار لم يكد يبزغ، والهواء رماديّ، كما لو أنّ توابل رُشَّت عليه، سوداء وبيضاء؛ والسيّارة سوداء. بدت عاديّةً جدّاً، وهي مركونة قرب البيت، ولكنّها «عودي»، من دون شكّ، والإشارة الضوئيّة على سقفها مطفأة. خرج رجلٌ شاب من السيّارة. واتّجه نحو الشاليه. وبعد أن تعدّى أغصان الصنوبرة ودرّاجتي المقلوبة على الجذع، أكمل طريقه إلى الشرفة، واختفى من مرمى بصري. تساءلتُ ماذا يفعل هنا. ودرتُ بشيء من السرعة لأخرج من السرير. رأسي يؤلمني، آه كم يؤلمني؛ أكثرت من البيرة، هذا مؤكّد. ربَّتُّ على خدّي، وشعرتُ بالألم في العظام والغضاريف، وتناولتُ البنطال المعلّق على ظهر كرسيّ. ثمّ لممتُ القطنيّة والكنزة الصوفّية الرماديّة الداكنة المزركشة بالأحمر التي كانت لوالدي، أو التي ما زالت تخصّه، فهو لم يمت بعد. حملتُ ثيابي تحت ذراعي وخرجتُ إلى الرواق الصغير، حيث عُلّقت إحدى لوحات أخي قرب الحمّام. إنها هي تمثّل الشاطئ في ضوءٍ صباحيّ، يكاد يكون برتقاليّاً، ويمكن تعرّف شاطئ «لايسو» في الشرق، و«هيرسهولم» في الأفق بمنارته السامقة نحو السماء. ثمّ اجتزت ركن

المطبخ وأنا أعرج قليلاً، وأكملت طريقي حتّى غرفة الجلوس. وجدتُ أمّي واقفة امام المرآة، مرتديةً ثيابها ومستعدّة. ارتدت سترةً زرقاء عليها زهور بيضاء وبنطالاً كحليّاً، وقد غسلت شعرها، وخصلُه أحاطت برأسها كهالة ضبابيّة. وضعت أحمرَ على شفتيها بيد، وأمسكت حقيبتها الزرقاء باليد الأخرى. كانت تحمل معطفها على ذراعها؛ لونه سكّريّ مائل إلى البياض، وعلى الأرض وُضِعت حقيبة سفر من القماش الأزرق. انتعلت في قدميها سُوَيقية [3] من المطّاط ذات سحّاب. كانت نظرتها غريبة، وهي تُغضّنُ عينيها كما لو أنّها تقوم بجهدٍ لتواجه المرآة.

انتظر السائق على الشرفة. «هانسن» هناك أيضاً. وأمكن تمييز فخذه وكوعه عبر الزجاج الشفّاف؛ كان جزء من وجهه وكأنّه منارٌ بنار المخيّم، بينما بدا الجزء الآخر، السابح في نور السماء المتبّل، مختلفاً تماماً. لا ريب في أنّ السائق لا يتجاوز العشرين عاماً بكثير. كانا هما الإثنان يثرثران مبتسمين، وأيديهما في جيوبهما. ربّما يعرفان بعضهما، السائق و«هانسن»؛ فالمدينة ليست كبيرة. كان «هانسن» متأنّقاً، يلبس سترةً داكنة وبنطالاً فاتحاً، كأنّه ذاهب إلى زيارة مهمّة أو حفل زواج، عيد ميلاد أو يوبيل. لم أره في مثل هذه الثياب من قبل. ما تبقّى من شعره مسرّح إلى الوراء، ويتموّج عند الرقبة، والسترة مشدودة على معدته.

- أنتِ ذاهبة إلى مكانٍ ما؟ سألتُ. كم الساعة؟ أنتِ ذاهبة مع «هانسن»؟

- نحن لم نشأ إيقاظك. كنتَ نائماً بعمقٍ شديد.

- نحن؟ من تعنين بنحن؟ بالطبع كان يجب إيقاظي. ولكن، لا يمكنك أن تذهبي هكذا. يجب أن نتكلّم أوّلاً.

- عندي أمورٌ أقوم بها. ولا أرى لماذا يجب أن نتحدّث عنها. على كلّ حال ليس هنالك من شيء خارق للعادة. ماذا حلّ بخدّك؟

- خدّي؟ لا شيء. إنه لا يؤلمني.

ولكنّني، في الحقيقة، أتألّم. أتألّم كثيراً.

- و«هانسن»؟ تكلّمتِ عن الأمر مع «هانسن»؟ عمّ تكلّمتِ؟ وأنا ماذا سيحلّ بي؟

- نعم، ماذا سيحلّ بك؟

أخذت نفساً عميقاً، وأنا أنظر إلى أمّي.

- ليس معقولاً أن تتركاني وحدي.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle سمعتُ صوتي، وشعرتُ بخجل. بدل أن يخرج من فمي، بدا وكأنّه آتٍ من مكان آخر، من حقبةٍ أخرى، كان صوت طفل، صوتٌ نوّاح، أكثر حدّةً وإصراراً. في العادةً لدي صوت أجشّ، أنا متأكّد من ذلك، ولكنّي الآن غير قادر على التحكّم فيه. تسرّب لوحده. وكأنّ لديّ تيّاراً في المعدة، تيّاراً كهربائياً. عندما أضع يدي على الجلد في هذا المكان، فوق الصرّة بقليل، أشعر بألم هائل.

- قرّرنا الذهاب ليومين فحسب.

- إذاً سآتي.

- عمرك سبعة وثلاثون عاماً يا «أرفيد».

- لا أرى علاقة هذا بذاك.

أنا هنا، شبه عارٍ، وثيابي على ذراعيّ، وركبتاي تكادان تتماسّان.

- انتظريني. سآتي في الحال، قلتُ.

وحين كنت أركض إلى الحمّام البالغ الصغر، لمحت الملاحظة الصغيرة التي تركتها لي على الطاولة. وضعتُ رزمة ثيابي على غطاء المرحاض وغسلت وجهي بالماء. ثمّ بلّلت شعري وسرّحته إلى الخلف بأفضل ما أمكنني متجنّباً النظر إلى نفسي في المرآة. وجدتُ مزيلاً للروائح تركه أبي، يبدو أنّه «أولد سبايس»، قُضيِّبٌ في أنبوب أحمر عليه كتابة بالأبيض. وأنا أمرّره على إبطيّ، قلت في نفسي إنّ رائحته ملائمة للثياب. عثرتُ بعد جهد على حبّتَي «باراسيتامول» ابتلعتهما مع ماء الصنبور؛ أشعرني طعمه المعدنيّ بالغثيان. وأنا أكاد أتقيّأ، غسلت أسناني محاولاً التفكير في شيء آخر.

ارتديت الثياب، ثمّ عدت إلى غرفة الجلوس. أمّي على الشرفة؛ تصافح السائق المبتسم بسذاجة كجروٍ صغير. ثمّ باعدت ذراعيها علامة الإحباط. أمّا «هانسن» فقد رسم ابتسامة صغيرة على إحدى زوايا فمه، وبدا فاتر الهمّة بالقدر نفسه. ولكنْ هذا آخر همّي. لم أُرِد أن أبقى وحيداً.

لبست معطفي فوق ثياب أبي المستعملة. ولأنه لم يعد نظيفاً جدّاً، نفضته من الأمام و شددته في كلّ الاتجاهات لأملّسه بأفضل ما يمكن. ثمّ أغلقت صفّ الأزرار المزدوج، المرسوم على كلّ منها مرساة. لم يتبقَّ إلّا أن أرتدي جزمتي وأربط الشريط. توصّلت إلى ذلك من دون صعوبة تذكر، نظراً للظروف. وتملّكني إلهام مفاجئ، فأسرعت إلى طاولة العمل، حيث تتصدّر المكان قنّينة الكلفدوس. بدت وكأنّها لم تُمَسّ، وكان ذلك مفاجئاً لي. فتحتُ المعطف ودسستها في الجيب الداخليّ الكبير، ثمّ توجّهت إلى الباب لأنضمّ إلى الآخرين.

- هيّا بنا.

أجلساني في الأمام، قرب السائق، الذي بدا لي منزعجاً؛ لا بدّ أنّه يفضّل أن يرى أمّي في المقعد الأمامي. ولكنَّ الأمر سواء بالنسبة إليّ؛ لا يهمّ أين أجلس. انقلبتُ على كرسيّي، متجنّباً النظر إليه وأنا مرهقٌ من التعب. سارت السيّارة إلى الخلف لتعود إلى الطريق، وفجأة رأيت السيّدة «كاسبرسن» تظهر من الجهة المعاكسة على مطيّتها السوداء. كانت ذاهبةً إلى الشاليه الخاص بها. استدارت، ثمّ تبعت سيّارة الأجرة بنظراتها. لا بدّ أنّها عرفتنا، ولكنّها لم تحيّنا. بدت وكأنّها تبكي.

ساد الصمت السيّارة. لا أحد يتكلّم. أغلقت عينيّ. انبثقت أصوات رماديّة وصوفانيّة من الهواء حولنا، ووصلتنا أصواتٌ مبلّلة من الشاطئ. تصاعد من الإسفلت صرير حادّ، مخترقاً معدتي، ونمت وسط كلّ هذه الأصوات. وعندما فتحت عينيّ من جديد، كانت السيّارة متوقّفة، وخفّ الألم في رأسي. إلى شمالي، كانت مصابيح الورشة البحريّة مضاءة، وأضيئت كشّافات نور هيكل المعدّية المزيّنة بالعلامة الرّمزيّة «د.ف.د.س»، وحطّمت نواظير اللّحام الظلال الأخيرة راميةً بعض شعاعات نور على الصفائح المعدنيّة الصدئية اللون. في البعيد، اجتاز زورق آتٍ من أعالي البحار مكسر الأمواج؛ ارتفع مقدّمه، وغاص مؤخره، وكانت فوانيسه مضاءة. لا شك في أنّه مركب صيد، أحد المراكب النادرة التي ما زالت ناشطةً في المرفأ. بزغ النهار، نهارٌ جديد. إلى يميني، سفينة محمّلة بالبضائع. هي أصغر من المعدّيات التي تؤمّن الاتصال بـ«أوسلو» و«غوتيبورغ». على مدخنتها العلامة الرمزيّة «ف/ل»؛ إنّها المعدّية الذاهبة إلى «لايسو». فتحتُ الباب ونزلت.

- نحن ذاهبون إلى «لايسو»؟

لم يُجبني أحد. التفتُّ وألقيت نظرة عبر النافذة. جلست أمّي منحرفةً على المقعد الخلفيّ. كانت عيناها مغمضتين، وشفتاها مزمومتين، وبدا جسمها

متصلّباً كقطعة خشب. وكان «هانسن» ممسكاً ذراعها بيديه الاثنتين، ووصلني صوته بوضوح.

- أتشعرين بسوء؟ أتريدين أن نعود؟ يمكننا الذهاب إلى هناك في يوم آخر. يمكننا الذهاب في أيّ يوم. أنا ليس لديّ أيّ عمل.

- كلّا، ستتحسّن الحال. شعرتُ بتعب مفاجئ وألم بسيط، ولكنْ سينقضي الأمر.

كان صوت أمّي خافتاً، بعيداً، كما لو أنّه خارج من بئر. وأدركتُ فجأة أنّني نسيت لماذا أنا هنا. أثبت هلام دماغي جدارته من جديد؛ كلّ شيء ينزلق عليه، ولا يلتصق به شيء. لم أعد احتمل نفسي. قمتُ بخطوة إلى الأمام وانحنيت. كان الباب مفتوحاً.

- أمّاه، لن آتي. ليس ذلك بمشكلة مطلقاً، أؤكّد لكِ؛ سأعود سيراً على الأقدام. لقد فعلت ذلك من قبل، حتّى أنّي فعلته البارحة، أو لا أعرف متى.

استقامت في جلستها وهي تئن، ثمّ فتحت الباب الخلفيّ، متشبّثة بطرفه.

- بحقّ السماء، توقّف عن تصرفاتك الصبيانيّة. ستأتي معنا.

مددت إليها ذراعي. تمسّكتْ بسترتي، وأمكنها بصعوبة انتزاع نفسها من مقعدها، وإخراج ساقيها من السيّارة والنزول. أمسكت بها بثبات؛ لم أشأ إفلاتها، لن أفلتها لأيّ سبب في العالم. حدّقت إليّ: - حسناً يا «أرفيد»، كلّ شيء على ما يرام. أنا واقفة الآن، وكلّ شيء على ما يرام.

- أمّاه.

وبكيتُ بغزارة. صرت غير قادر على التوقّف؛ ولا يهمّ إذا رآني «هانسن». أفلتُّ ذراع أمّي، واستدرت حول السيّارة راكضاً، وبكيتُ كما لم أبكِ في حياتي، واضعاً جبيني على هيكلها. صرت أطرق على السيّارة، وركضتُ إلى الوراء و بدأتُ أضرب الباب الخلفيّ؛ إذا أعجبهم المشهد، فليستمتعوا به؛ لا أبالي مطلقاً. أسرعتُ حتّى السفينة وانحنيت على هيكلها؛ بدت المياه السوداء في الأسفل مثلّجةً، ولم أتوقّف عن البكاء. ثمّ استدرتُ. كان السائق ينظر إليّ متصنّعاً ابتسامة بلهاء، متخبّطاً في الارتباك حتّى الركبتين، ولا يعرف إلى أيّ اتّجاه ينظر، لأنّه لا يزال يافعاً جدّاً، ولا يدرك ما ينتظره.

- هيّا يا «أرفيد»، لا بأس الآن. هذا يكفي. قالت أمّي.

وكنتُ أبكي، وربّتت على كتفي بارتباك. ثمّ كرّرت حركتها، ولكن بقسوة أكبر.

- هذا يكفي الآن. هل تسمع؟

وأخيراً توقّفتُ عن البكاء. اقترب «هانسن» والإحراج بادٍ عليه، ثمّ صعدنا على متن السفينة. لم يكن في حوزتي بطاقة، ولكن ليس ذلك مهمّاً؛ فلا تكون السفينة ممتلئة أبداً في هذه الساعة الصباحيّة. على الجسر، أخرجت أمّي المحفظة البنيّة الموجودة دائماً في حقيبتها. ثمّ سدّدت الكورونات المتوجّبة عليّ.

23

كان كل منّا يمسك بيد الآخر، ونحن واقفان على درج المدخل. المكان منتجع لقضاء العطل، وقد أقمتُ فيه من قبل، إنّما في الصّيف، حين كانت ظلالنا أقصر ممّا هي عليه الآن. أتينا لنكون وحيدَيْن. كان البرد شديداً حين بدت مديرة المكان عند زاوية المبنى الرئيسي، عائدةً من البحيرة، وفي يدها دلو؛ هنالك أسماك في الدلو، فَرْخ [4] على الأرجح، ولكنّي لم أصطد مذ كنت صغيراً ولا أعرف شيئاً عن الأمر. تفحّصتني، ثمّ نظرت إلى تلك الواقفة إلى جانبي، ولاحظتْ أنّها فتاة يافعة جدّاً فالتفتت إليّ من جديد.

- أنتما منْ حجز؟

- نعم.

- ولكنّي توقّعت قدومكما غداً.

- لا، حجزنا لليوم.

- أنت متأكّد؟

- متأكّد تماماً.

- حسناً، لا شكّ في أنّك على حقّ. على كلّ حال، ليس هذا مهمّاً، فلا أحد يأتي في مثل هذه الأيّام؛ كلّ الشاليهات فارغة، يمكنكما أن تستقرّا حيث ترغبان.

كنتُ أعرف تماماً أيّ شاليه أريد، فعيّنت لها الرقم. فتَحَت الباب، ثمّ وضعت دلوها وتناولت مفتاحاً من لوحة مفاتيح رأيتها على الحائط؛ فيها

صفوف عدة من الشناكل فوق كلّ منها رقم مماثل للمحفور على صفيحة معدنيّة معلّقة على حلقة المفاتيح.

- هنالك خشب للتدفئة خلف الشاليه. يمكنكما أن تأخذا منه الكميّة التي تريدان. إذا احتجتما إلى شيء آخر، فما عليكما إلّا إبلاغي.

- لن نتوانى عن ذلك. ولكنّي أظنّ أنّ الأمور ستكون على ما يرام.

- أنا ذاهبة إلى المتجر غداً صباحاً. إنْ أردتما أن أشتريَ لكما شيئاً فأخبراني.

شكرناها وقلنا لها إنّنا سنمرّ لرؤيتها عند الاقتضاء.

كان الكشك مغلقاً، وقد وُضّبت شرائط الشعارات الإعلانيّة المزخرفة التي زيّنته في فصل الدفء. هنالك جرّار مغطّى بغطاء في الفناء. وفي مكان أبعد، ممرّ موصل إلى الشاليهات المتناثرة بين الأشجار. الشاليه الأحمر في الطرف، على حافّة البحيرة. تستند قواعده مباشرةً على الصخرة؛ عاليةً من جهة البحيرة ومنخفضةً من الجهة المعاكسة، حيث نهاية الممرّ أمام مدخلٍ مطلّ على رواق. رأينا شبابيك مطلّة على الجون [5]، وعلى الصخور المقابلة، حيث تنتصب صنوبرات كبيرة كأعمدة حتّى الضفّة. داخل الجون مخزن بقالة يفتح في الصّيف، حين يكثر المرتادون للمكان، ويمكن الوصول إليه تجذيفاً؛ يتوافد الزبائن من كلّ أطراف البحيرة، وتُرى صفوف بكاملها من المراكب المربوطة بالضفّة، وحافّاتها متماسّة؛ هو مشهد ممتع، قالت لي سيّدة عندما أتيتُ في المرّة الأخيرة. ولكنَّ المخزن مقفلٌ الآن، بالطبع.

قبل بضع ساعات، استقلّينا الحافلة في «آنكرلوكا»، وهي ساحة جميلة قرب بحيرة «آكرسلفا»، محاطة اليوم بمساكن الطلّاب، ولكنْ في تلك الحقبة كان هنالك محطّة عند ملتقى الطرق مقابل كنيسة «سانت جاك». الكنيسة معمّمة بالقرميد الأحمر كمعظم كنائس أوسلو، وجميلة عندما ننظر إليها عبر أشجار الممرّ العارية التي تنحدر نزولاً حتّى الجسر.

جلسنا في مؤخّرة الحافلة، التي سرعان ما انطلقت باتجاه «ستورغاتا». اجتزنا أحياء أوسلو القديمة، «غرونلاند» و«غاملبيان»، ثمّ أكملنا طريقنا جنوباً عبر «مسيفاين» وصعدنا المرتفع حتّى محطّة «لجان». إلّا إذا مررنا عبر «هيريغاردسفاين» أو طريق آخر؛ لست أعرف. بعد ذلك، وصلنا «هوكيتو»، الذي لم تكن المباني الضخمة وبيوت الجوار قد وُجدت فيه بعد؛

شعرنا وكأنّنا في الريف، في الغابة. أثناء الصعود، جعل محرّك الديزيل الحافلة تهتزّ، وبعث ذبذبات عبر أجسامنا، حتّى الفخذين والبطن. الشعور كاد أن يكون مثيراً جنسيّاً.

- بعد، بعد! قالت ممسكةً بطنها.

ابتسمت مستمتعةً وشفتاها منفرجتان وجفناها مشدودان. ثمّ رفعت يديها بضحكةٍ محرجة. وبكلّ هدوء أنشدنا أغنية «الجيش الشعبيّ للتحرير»: يا محاربي الجيش الشعبي،

إطاعة الأوامر واجبة!

وصايانا الثلاث

وأنظمتنا الثمانية

كلّها قوانين بالنسبة إلى أيّ ثوريّ.

ولم يلتفت من بين الركّاب سوى اثنين أو ثلاثة. كانوا يثيرون ضحكنا، وتُضحكنا الأغنية كذلك؛ وكان ذلك لازماً، فنحن جالسان في حافلة تجتاز غابة في بلدٍ يُدعى «النرويج»، حيث صراع الطبقات موضع اهتمام بالتأكيد، حتّى لو لم يكن الأمر جليّاً عند معظم الناس، وليس طارئاً على نحو استثنائي. على كلّ حال، كان إيقاع الأغنية يعجبنا. هو لحن عسكريّ، وكنّا نعزف النغم على ظهور المقاعد التي أمامنا.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle الحافلة لونها أحمر، شبه خمريّ، ونوافذها مشبّكة بخطوط زرقاء، وتسير على مهل حتّى مطعم تقاطع «هوكيتو». محطّة «هوكيتو» على اليمين، وإلى الشمال هنالك لافتة تشير إلى اتّجاه «إينيباك». نحن متّجهون إلى «إينيباك»، وكلّ شيء مماثل لذكرياتي؛ المنعطفات، والمخابئ عند توقّف الحافلة، واللوحات الإعلانيّة الصدئة، والأكشاك المغلقة كلّها في هذا الوقت من السّنة، والبارزة أمام الغابة العارية وعلامات البِلى بادية عليها، والممتلئة حتّى حافّتها بالخواء والمواسم الميّتة، فرفوفها خالية من ألواح الـ«كويك لانش»، ومن ألواح الشوكولا بالحليب صنع «فريا»، ومن التراصف المتعدّد الألوان لعلب التبغ «وينستون»، و«ساوثستايت»، و«بلو ماستر»، و«تيدمانس تيدي»، وهي كلّها بلا فلتر.

تغيّر الطقس، وحلّ مكان المطر والوحل هواءٌ شتويّ، بارد وصافٍ، ولكنّ الجوّ حارّ في الحافلة. لم نكن إلّا عشرة ركّاب، وربّما أقلّ، مع أنّ تلك

الحافلة هي الوحيدة خلال النهار. لا أحد من أجَرَاء «سبيكرفركت»، ولا واحدة من عائلات نقابة الحفّارين يتحضّر لقضاء العطلة على ضفّة بحيرة «ليسرن»، والصيد في الخلجان، والتمدّد على الظهر في المراكب، ولوح المجذاف فالت في الهواء، وصحيفة في اليد. أو لتأمّل السماء بكلّ بساطة لطرد تعب عامٍ بكامله من العمل لأربع وعشرين ساعة متتالية.

يعيش الركّاب الآخرون في المنطقة، ونحن الوحيدان اللذان سنكمل طريقنا حتّى منتجع العطلة. كنّا نرى من النافذة الخلفيّة غباراً متلألئاً يرتفع في الهواء عند مرور الحافلة، أو في مَمْخرها، كما خلف سفينة. شكّلت الحُبَيْبَات ستائر صفراء بقيت معلّقة على أطراف الطريق، تزيحها الريح، وتعاود إنزالها عند كلّ منعطف. ثمّ تحلّق بين الأشجار وتختفي.

- أنتَ سعيد؟ سألَتْ.

- نعم.

- وأنا أيضاً.

في الخريف وفي الشتاء، تتوقّف الحافلة على الطريق العامّ ولا تنزل حتّى المنتجع. كانت تلك مفاجأة لنا، إذ سنضطرّ أن نكمل المشوار سيراً على الأقدام. وهذا ما فعلناه. كان الطريق صلباً كالإسمنت بسبب البرد الطارئ، وبدت حقول القصب و كأنّها مغطّاة بالسكّر المطحون. الطبقة العليا من الأرض الطينيّة متجمّدة، إلى حدّ أنّ جزماتنا صارت ترنّ في كلّ خطوة من خطواتنا، وكأنّها أنغام قيثارة إسبانيّة. سرنا ساعة من الزمن.

خيّم الصّمت في المبنى الرئيسي، وفي فضاء درج المدخل البارد، ورسمت أنفاسُنا مراوحَ من البخار. لقد حلّ الغسق؛ وغلّف البحيرة نور أزرق شفّاف، بينما أحاطت هالة صفراء بالمصباح الجداريّ فوق المدخل. طرقنا الباب، وقرعنا الجرس النحاسي الصغير المثبّت إلى يمينه، ثمّ بدت امرأة تلبس معطفاً رياضيّاً أزرق عند زاوية البيت، حاملةً دلواً بيدها، على الممرّ الصاعد إلى البحيرة.

فتحتُ الباب وتركتُها تدخل، ثمّ وضعتُ حقيبتي على الأرض، وخرجت من جديد لأحضر خشباً. عدتُ محمّلاً بالحطب حتّى الذقن، وعندما دخلتُ رأيتُ أنّ الموقد قد أُشعِلْ. في إحدى الزوايا، هنالك صندوقٌ فيه خشب. تساءلتُ إن كُنتُ سأشعر بالإهانة لأنّها تدبّرت أمرها من دوني. ثمّ قرّرْتُ أنّني لن أفعل.

- ياه، أنتِ تجيدين ذلك، قلتُ.

- كنتُ في الكشّاف، وأقلعتُ عن ذلك منذ عامين. كشّافٌ ليوم، كشّافٌ إلى الأبد!

ثمّ بدأت تغنّي:

أنعِم علينا

بأن نرى هذه النار تشتعل.

اجعلها تدفئنا

وتريحنا

عندما نذهب إلى السرير.

واحمرّت كما يحدث لها في كثيرٍ من الأحيان. ولكني أجدها طريفة، ولديها روح الفكاهة أكثر منّي.

في صباح اليوم التالي، نمنا إلى وقت متأخّر. عندما استيقظتُ كان النهار قد بَزغ للتوّ، وكان هنالك ضباب خفيف فوق البحيرة والمياه مغطّاة بغشاء رقيق من الجليد، وكأنّ أحدهم سكب عليها جرّة من الحليب وتركه يتمدّد. نظرتُ إلى ساعتي، ثمّ لبستُ بنطالي وسترتي الصوفيّة وخرجتُ. أغلقتُ الباب خلفي من دون أن أحدث ضجّة، وصعدتُ حتّى المبنى الرئيسيّ. سنعوز التبغ؛ أدركتُ ذلك، وأنا أستيقظ.

كنت على الممرّ أرتجف من البرد. ولمحتُ سيّارتها الـ«فورد» مركونةً قرب الكشك، خلف الجرّار؛ السيّارة تهتزّ في الهواء البارد، وتُطلق غيمات صغيرة بيضاء من غاز العادِم. والمديرة تكشح الجليد عن النوافذ بمجرفة بلاستيكيّة. انضممتُ إليها.

- كم هو الطقس بارد!

هزّت رأسَها مبتسمةً، ثمّ عادت إلى كشط الجليد. كنتُ أقفز، وقدماي حافيتان في جزمتي. وأخيراً انتهت، ورمت مجرفتها الزرقاء على المقعد الأمامي .

- نسينا أن نحضرَ تبغاً. أيمكنك أن تشتري لنا؟

فتّشتُ في جيبي بأصابعي المتخدّرة، وأخرجتُ علبتي لأريها أيّ نوعٍ أريد، في حال كانت لا تُلمّ بهذه الأمور.

- لا مشكلة.

أعطيتها المال اللازم، وتفحّصتني.

- ألستَ برداناً بهذه الكنزة فقط؟

بلى، أنا بردان. هذه الكنزة هي الأولى التي انتهت من حياكتها تلك التي ما تزال نائمةً في الشاليه، ويمكن رؤية جلدي عبر الثقوب. لستُ أكيداً من ذلك، ولكنّي شعرتُ أنّ المديرة نظرت إليّ مطوّلاً قبل أن تستقلّ سيّارتها. ثمّ غادرتِ الفناء قبل أن تدلف إلى الطريق المفضي إلى الطريق العامّ.

عدتُ أدراجي، وعاودت النزول إلى الشاليه.

عندما صرتُ في الداخل، فركتُ يديّ بقوّة، ودلّكتُ أذنيّ حتّى آلمتاني. فتحتُ المدفأة وحشوتها بالحطب إلى حدّ أنّ داخلها صار يشبه «ستونهنج». دسست في الفجوات صحفاً قديمة مجعّدة. قدحتُ عود كبريت، وأشعلتُ الورق وتركته يحترق بالكامل. أعدتُ الكرّة مرّتين، ثمّ تركتُ باب المدفأة مشقوقاً. وكان ذلك كافياً. الخشب جافّ جدّاً، والنيران تلامس الجانب الداخلي منه. أغلقتُ الباب، وصارت المدفأة تئزّ.

سمعتها تتقلّب في السّرير وشعرتُ بنظراتها في ظهري.

- مرحباً! قالت. عُدْ إلى النوم!

- أنا آتٍ!

خلعت سترتي الصوفيّة وبنطالي وانسللتُ تحت البطانية.

- كم أنت بارد! أوه كم أنت بارد! قالت وهي تمسّدني بقوّة في كلّ مكان.

وحدث ما كان ممكناً له أن يحدث. ثمّ بقينا مستلقيين كالعادة، كتفاً إلى كتف، يداً بيد، واخترقت حرارة جسدها جسدي، وتساءلتُ كيف أمكنني العيش قبل أن أعرفها، كيف كنت أتدبّر أمري لأتدفّأ.

- سنذهب للتنزّه بمركبٍ بعد الأكل؟ اقتَرَحَتْ.

- البحيرة متجمّدة.

- ولكنّ الجليد ليس سميكاً، أليس كذلك؟

- ليس كثيراً. هنالك قشرة رقيقة وحسب.

- سيكون هذا ممتعاً.

ووافقتها الرأي.

- ولكن أوّلاً سنمكث على هذه الحال قليلاً، قلت.

والتصقتُ بها مغمضاً عينيّ.

- طلبت إلى المديرة أن تشتري لنا تبغاً. لم نفكّر في ذلك. لم يبقَ في حوزتنا سوى علبة واحدة، لن تكفينا. أمكنني اللحاق بها قبل قليل من ذهابها.

وفتحتُ عينيّ.

- لا يمكنكِ تخيُّل كيف نظرت إليّ قبل أن تركب السيّارة.

- لا ريب في أنّها وجدتك جميلاً في هذه الكنزة.

- أتظنّين ذلك؟

- بالطّبع. يمكن الرؤية عبر الثقوب.

- أيُزعجكِ أنّها وجدتني جميلاً؟

- كلّا، أبداً. هذا يثبت بكلّ بساطة أنّ لدينا شيئاً مشتركاً، هي وأنا. ما من سوء في هذا الأمر.

أغمضتُ عينيَّ من جديد. أعجبتني إجابتها. إنها الإجابة التي أمِلتُ أن تقولها. استمعتُ إلى هسيس المدفأة؛ ملأتِ الحرارة الشاليه، وانبعث من حطبات السَنْدَر عطرٌ عذب، وتصاعدت من حطبات الحائط المكوّرة رائحةٌ أعرفها منذ الأزل، وطالما أحببتها.

كنّا سنبقى ليوم ونعود في الحافلة بعد الظهر. ليس ذلك كافياً، قلتُ في نفسي، يجب استغلال كلّ ساعة. وعدتُ إلى النوم. نمنا قليلاً نحن الاثنان مستعيدَين وعينا من وقت إلى آخر، وفي النهاية استيقظنا نهائيّاً. ارتدينا ثيابنا،

ونحن لا نزال ناعسين قليلاً، ثمّ تناولنا طعام الفطور ونزلنا إلى البحيرة. أعددنا المركب، ثمّ سحبناه عبر الصخور و دفعناه إلى الماء. كان المجذافان في المستنقع، تحت المركب؛ حمّلناهما، ودسسنا قصبة صيد تحت المقاعد. القصبة لها.

جعل المركب طبقة الجليد الرقيقة تصرّ. اجتزتُ حافّة المركب بحذر، وجلستُ على المقعد الأوسط، مديراً ظهري لمقدّم المركب، ووضعت المجذافين في محورهما. وصعدتْ بدورها إلى المركب. جلستْ جانبيّاً على المقعد الأخير، ودفعتنا لنبتعد عن اليابسة. ثمّ استدارتْ نحوي. وهي تبتسم.

- إذا أردتَ ان تجذّف، فذلك لا يزعجني.

- كنتِ راغبةً في ذلك؟ لم يخطر في بالي أن اسألك.

- لا يهمّ. هكذا سأنظر إليكَ وأنت تبذل جهداً.

لا بدّ أنّها تجذّف جيّداً. أمّا أنا فاختصاصي هو الزورق الخفّاف. أنا هنديّ، والمجذاف لرعاة البقر.

- على كلّ حال، أنا الرجل. قلتُ ضاحكاً.

- هذا صحيح.

كانت مقطّبة عينيها، وتنظر إليّ بطريقة حالمة.

جعلت ضرباتي بالمجذاف القشرة الهشّة تطقطق، راسمةً دوائر مسنّنة على جهتي الجرف الخلفيّ الذي خطّه المركب. يجعلك الصوت تظنّ أنّ الجليد يقاوم، إنّها «فرام» أو «غجوا» وهي تشق طريقها عبر الجليد الساحليّ، ولكنّها ليست هي. تقدّمتُ منْ دون صعوبة تُذكر.

- كم نحن جذلَين! قالت. هذا الصوت جميل، أليس كذلك؟ هل تجد صعوبة في التجذيف؟

- كلّا، أبداً. ليس أكثر من العادة.

كانت تلبس قميصين صوفيّين داخليّين تحت سترتها الصوفيّة الإيسلنديّة، ووشاحاً خبّازيّ اللون حول العنق. وعلى رأسها، اعتمرت قلنسوةً من الجلد شبيهةً بالتي يلبسها صيّادو جزر «لوفوتن»، وفي يديها قفّازان. كانت متدثّرةً جيّداً ووجنتاها حمراوان. أمّا أنا، فطابقتُ ثلاثة قمصان من الفلانيلة

ورثتها عن أبي؛ قمصان بمربّعات حمراء وزرقاء، مريحٌ ارتداؤها. لبست فوقها الكنزة الصوفيّة التي حاكتها لي، ثمّ سترتي. وكنت ألبس قفّازين كذلك. ولكني كنت حاسرَ الرأس من دون قلنسوة؛ القلنسوة ليست رجوليّة. لذلك شعرتُ بالبرد قليلاً في أذنيّ، ولكنه بردٌ يمكن احتماله.

- ما رأيكَ ان نصطاد الآن؟

- حسناً. ولكن يجب أن تلقي أنتِ قصبة الصيد. أنا مشغول بالتجذيف.

- حسناً.

نزَعَتْ قفّازيها وتناولت قصبة الصّيد، وهي آلة خضراء مصنوعة من ألياف الزجاج. ثمّ فكّت مغرفة الصّيد، وأدخلت الخيط بسبّابتها. وبحركة سريعة، تكاد تكون خفيّة، ألقت الطعم. من الواضح أنّها تعرف ماذا تفعل. كسرت المغرفة الطبقة الرقيقة من الجليد بعيداً من المركب وغاصت في الماء محدثةً صوت ارتطام.

كان الزورق البلاستيكيّ ينقصه الاندفاع؛ فلأنّه خفيف جدّاً، لا يصل إلى السرعة التي أريدها، حتّى عندما أجدُ أخيراً التّواتر المناسب. وجدتُ صعوبة في التحكّم في مقدّم المركب، وصرتُ أعرقُ فتكدّرت، ويجب الاعتراف بذلك. رأيتُ أنّ وجهها ملتهب في الهواء البارد. تبِعَتْ نظراتها خيط صنّارتها المضيء، الغاطس في الماء ذي اللون الإسبيدجي. ما زالت طبقات من الضّباب تطوف بين الأشجار، على الضّفاف، محوّلةً إيّاها إلى أشكال أسطوريّة من عصرٍ وثنيّ. سبحت شاليهات الجون الحمراء في ضوء زهريّ شاحب؛ وكنّا نرى الشمس تنبلج خلف الضّباب وقلتُ في نفسي: لماذا أنت متوتّر؟ كلّ شيء على ما يُرام، لا يمكن للأمور أن تكون أحسن ممّا هي عليه الآن، لماذا يزعجك أن تتعرّق قليلاً؟

- يا إلهي كم أعاني مع هذا الزورق، قلتُ.

- أعرف. الزوارق البلاستيكيّة هكذا، ليست ثقيلةً كفاية.

وفي اللحظة التي أنتهت فيها جملتها، أمسكت صيداً.

- ها هو! آه، الحقير! اللعنة! لن نخطئه، هذا!

لم أسمعها من قبل، وهي تشتم على هذا النحو، ولكنْ أعجبني ذلك. هذا صحيح؛ وجدته مثيراً.

تركت السمكة تتخبّط قليلاً قبل أن تبدأ في لفّ الصنّارة. ثمّ سحبتها بخفّة من فوق حافّة المركب.

- إنّه فَرْخ، قالت مستنتجة. وهو كبيرٌ أيضاً.

- أهنئكِ!

لم أضطرّ للقيام بجهد كبير لأهنّئها. وَقَفَتْ، ثمّ انحنت بحركةٍ مفاجئة، كما كان «شابلن» ليفعل، أو «بينوكيو» في الرسوم المتحرّكة، ورأسه معلّق بخيط. وقعت قلنسوتها؛ وَضَعَتْ يدها اليسرى على ثديها الأيمن، ثمّ لوّحت بالقصبة فوق رأسها تاركةً السمكة تتلوّح في الفراغ.

- سمكة صغيرة لإرضائكم، يا صديقي العزيز!

وأخذت أقهقه.

فككنا السمكة معاً. وصار الفرخ يهتزّ على أرض الزورق. «الصغير المسكين»، قالت. أمسكت القضيب المخصّص لهذه الغاية، ووجّهت له ضربة قويّة على الرأس. تحرّك قليلاً بعد، ثمّ توقّف عن الحركة.

انتصبتُ واقفاً. وشعرتُ بالشمس على ظهري. بدأ الضباب يزول، والجليد يذوب. وجهها ذهبيّ، وشعرها ذهبيّ؛ رفعت راسها نحو الشمس وأغمضت عينيها بسبب النور الساطع.

- هل اسمرّيتُ؟ سألت.

وقهقهتُ من جديد.

- أنتِ وأنا، قلت. لا شيء سوى أنتِ وأنا.

- نحن في أحسن حال، أليس كذلك؟ قالت مبتسمة.

أخرجتُ المجذافَين من الماء. كانت البحيرة ساكنة، والشاليه قابعٌ على صخرته في عمق الخليج، والدخان يتصاعد بسلام من المدخنة، وبدا مستحيلاً و لا يمكن تخيّله، أن يفنى كلّ هذا الجمال، ويغرقَ في العدم.

IV

24

عندما وصلنا إلى «لايسو»، نزلنا في فندقٍ قديم على ميناء «فيستيرو»، حيث رَسَت المعدّية. لم يكن الفندق بعيداً من رصيف الميناء، وعلينا الصعود في طريق واحد فحسب. قالت أمّي إنّها على ما يرام، وإنّها ليست عاجزة. من المبنى يمكن رؤية مرفأ الصّيد، حيث تحوم النوارس حول الصواري، وتجتاح السماء بكاملها. تؤلم أعيننا صدورُها، ببياضها الناصع إلى حدّ لا يصدّق، عند كلّ بزوغ للشمس. هنالك نوارس بحريّة وأخرى فضيّة، وهناك مراكب أشرعتُها برتقاليّة وخضراء، وهناك عوّامات حمراء تحمل أعلاماً صغيرة تصفّق في الريح، وشبكات صيد مشرّعة على الرصيف كمراوح.

- لم يعد المكان كما كان. قالت أمّي.

- كما كان في أيّ حقبة؟

- كما كان منذ أربعين عاماً.

- لم تأتي منذ أربعين عاماً؟

- كلاّ.

اجتزنا أبواب الفندق ووضعنا أمتعتنا. لم يكن في حوزتي شيء، ولكنّ أمّي معها حقيبتها الزرقاء ومع «هانسن» حقيبة كذلك. كنت مرتدياً ثياب أبي، وسترتي المبلّلة. من الضّروري أن أجفّفها. أنا متجلّد، وقد أمرض.

في ردهة الاستقبال، أخرجت أمّي محفظتها البنيّة القديمة. لا ريب في أنها تحوي الكثير من المال؛ فهي تنفق كثيراً منه، أكثر من المعتاد، وهذا مثيرٌ للارتباك والقلق. سمعتها تطالب بغرفة لشخصٍ لم يحجز مسبقاً، وهو أنا

بالطبع. ولكنْ في هذه الآونة من السّنة، ليس هنالك من مشكلة في ذلك. كانت لكنتها دانمركيّة خالصة، على غير عادتها.

صعدنا إلى غُرفنا. أرادت أمّي الاستراحة لساعة، وقرّر «هانسن» أن يفعل مثلها. تناولتُ زجاجة الكلفدوس من جيبي الداخليّ ووضعتها على المنضدة. ثمّ بسطتُ سترتي على جهاز التدفئة، كان ملتهباً وجوّ الغرفة حارّاً. جلستُ على السّرير. نظرتُ إلى المرفأ من النافذة، وفكّرت في أمور عليّ التفكير فيها. ولكنّ ذلك لم يساعدني في شيء.

استلقيت على ظهري، وكان السرير وثيراً. أغمضتُ عينيّ، وتوقّف الزمن عن الدوران. عندما نظرتُ إلى ساعتي، وجدتُ أنّ ساعة قد انقضت. لبستُ سترتي والبخار يتصاعد منها و نزلتُ لأنضمّ إلى الآخَرَين لتناول الغداء. وجدتهما قاعِدَين. كان عليّ بلا ريب أن أندهش لرؤية «هانسن» على طرف الطاولة، مكان والدي. ولكنّي لم أعلّق على الأمر. وعندما أدركتُ ذلك، شعرتُ بالذنب.

جلسنا قرب نافذة، وكنت جائعاً. وبعد قليل، انحنت أمّي من فوق الطاولة لتلقي نظرةً إلى الخارج. فعلت هذا مرّتين، وفي المرّة الثالثة نهضتْ. ثمّ تناولت معطفها.

- حسناً، هيّا بنا.

نهض «هانسن» بدوره، ولم أسأل إلى أين نذهب. لم أُنهِ وجبتي، ولكنّي تركت صحني نصف ممتلئ وتبعتهما. ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ كانت سيّارة أجرة تنتظرنا، ومحرّكها يعمل. ركبنا فيها كما في المرّة السابقة، أنا قرب السائق والاثنان الآخران على المقعد الخلفي. لا أعرف لماذا نجلس هكذا، وإن كان هذا أمراً قد اتّفقا عليه صباحاً.

سرنا باتجاه الجنوب، باتجاه «بيروم»، إحدى قرى الجزيرة الثلاث. امتدّت إلى جانبَي الطريق حقول مسيّجة بالأسلاك الكهربائيّة، وجدران حجريّة واطئة، أو أشجار صغيرة، شُجَيْرات بالأحرى. هناك أيضاً بعض الأشجار الأكبر حجماً؛ بحسب المزرعة. الحقول قاحلة ومقفرة في هذا الوقت من السّنة. اقتربنا من «بيروم» بسرعة هائلة، وبدا برج القرية وكأنّه آتٍ للقائنا؛ ليس عالياً جدّاً، ولكنّه شامخٌ بما فيه الكفاية ليُرى من كلّ مكان في هذا المشهد الأفقيّ المترامي. وكأنّه أحد أبراج حصن ذي كوّات للرماية. لا أعرف ماذا كانت وجهة استعماله، وما هي الآن. ربّما شيِّدَ هنا لتجميل المنظر، بكلّ بساطة. وذلك غير معتاد في قرية مسيحيّة: أن ينتصب بناء مختالاً، وبطريقة لا تناسب إلّا

الكنائس. ويبدو أنّ كنيسة «بيروم» هي الأقدم في البلاد. مررنا من دون أن ننظر إليها، وأكملنا مسيرنا نحو الجنوب.

ثمّ التففنا نحو الشّرق، عبر طريقٍ يفضي بنا إلى الساحل. لم يبدُ لي ذلك منطقيّاً، ولكنّ السائق يعرف من دون شكّ ما يفعله. على كلّ حال، ليست تلك مشكلتي؛ يمكن له المرور من حيث يشاء. كان طريقاً من التراب المرصوص؛ أرضه جافّة على الرَّغم من الهواء الرّطب، والسيّارة تُثير غيوماً من الغبار. توقّفنا بعد أن سرنا بضعة كيلومترات. امتدّ البِرَاح على مدى النظر، وكان هنالك بيتٌ من القرميد الأصفر، غائرٌ قليلاً عن مستوى الطريق.

كان كبيراً، وسقفه مائلٌ جدّاً بالنسبة إلى المنطقة، وفيه نافذة كأنّها كلبٌ جالس في منتصف السقيفة. ليس قديماً جدّاً، ولكنّه ليس حديثاً كذلك؛ فهو يشبه البيوت التي شُيِّدَت بعد الحرب. إنّه أكبر سنّاً منّي. وكان هنالك خرفان خلف البيت. للبهائم متّسعٌ من المكان، بل حيّزٌ كبير، ولكنّ القطيع متلاصقٌ قرب مستودع حصيد صغير، لا يكادُ يُرى خلف المبنى الرئيسيّ. لا بدّ من أنّ علفاً نُثِرَ فيه، لأنّ العشب يندر وجوده في هذا الوقت من السّنة.

نزلت أمّي، ولم يتحرّك «هانسن»، ولا أنا. خطت أميّ بضع خطوات باتّجاه البيت، ثمّ توقّفت. عادت إلى السيّارة، وانحنت داخلها لتأخذ حقيبتها عن المقعد الخلفيّ. أخرجت مغلّفاً ثمّ صفقت الباب. هزّت المغلّف مبديةً بضع صور بالأسود والأبيض، أربع صور. وهي مستندةٌ إلى باب السيّارة، أمسكتها بشكل مروحة، كما في لعبة البوكر.

- ماذا نفعل هنا؟ سألتُ.

- هنا وُلِد أخوك، قال «هانسن». في البيت هناك.

انحنيتُ إلى الأمام لأرى الصور. إنّه فعلاً البيت نفسه، وبدت أمّي في اثنتين من الصّور. كانت جالسةً على العشب، وتحت قدميها كلبٌ؛ كلب راعٍ من دون شكّ، على جبينه ما يشبه الآس الديناري. ولكنّي لا أعرف الكثير عن الكلاب. على كلّ حال، كان ينظر إليها. كانا صديقين؛ وتكفي إشارة بسيطة منها، ليفعل أيّ شي من أجلها.

كانت شابّة ويغطّي ثوبٌ طويل فضفاض جسمها. كانت جميلةً جدّاً. في الصّورة الثانية، بدت جالسةً على درج مدخل البيت قرب امرأة تكبرها سنّاً، ولكنها ليست في عمرِ والدتها، ربّما تكبرها بعشر سنوات. الصورتان الباقيتان لا تُظهران سوى البيت، من زاويتين مختلفتين. لقد صوّرهما أحدهم ليتذكّر شكل البيت تماماً.

أعادت الصور إلى المغلّف، ثمّ فتحت باب السيّارة، ووضعته على المقعد الخلفيّ. نظرتْ إلى «هانسن»، فهزّ رأسه مبتسماً. عندها تنشّقتِ الهواء مصدرةً صوتاً أبحّ، ثمّ أطلقتِ الهواء وأغلقتِ الباب. وتوجّهت نحو البيت، بخطوات غير واثقة قليلاً، كما تهيّأ لي.

توقّفت أمام الباب، وبقيت هناك لدقيقة قبل أن تقرّر قرعَه. انتظرتْ قليلاً، ولكنّ أحداً لم يفتح. استدارت نحونا مبعدةً بين ذراعيها قليلاً، فهزّ «هانسن» رأسه مبتسماً، كما فعل منذ قليل. قرعت من جديد، بقوّة أكبر هذه المرّة، وانتظرت. وجاء أحدهم ليفتح أخيراً. كانت امرأة كبيرة في السنّ، أكبر من والدتي؛ لا شك في أنّها تناهز السبعين. بقيتا للحظةٍ واقفتين وجهاً لوجه. ثمّ تخاطبتا، ولكنّي لم أسمع ما قالتاه؛ فالمسافة كبيرة جدّاً.

- ونحن، هل نبقى في السيّارة؟ سألتُ.

- سنبقى هنا الوقت اللازم، قال «هانسن».

- حسناً.

بينما هما واقفتان على درج المدخل، ضرب شعاع شمسٍ عابر واقية الريح. ثمّ اختفى. كان السائق ينظر إلى البيت؛ وقد أنزل زجاج النافذة، و هو يدخّن سيجارة، «برينس» ذات مرشح، وأدرتُ وجهي لتجنّب الدّخان المزعج.

- أنا عرفتك، قالت أمّي. اسمك «إينغريد». وأنتِ، هل عرفتِني؟

تفحّصت السيّدة العجوز أمّي، ومِرفقُها الأيمن مسنَدٌ على إطار الباب، وقبضتها مشدودة قليلاً، في وِقْفةٍ صلبة لا شك في أنّها عادةٌ لديها. ثمّ تراجعت إلى الخلف بضع خطوات وأخرجت نظّارات من جيب إزارها.

- نعم، عرفتكِ. أذكر اسمك، وأذكر جيداً أنك أتيتِ إلى هنا. كان ذلك بعد الحرب بسنتين أو ثلاث. في تلك الحقبة، كنّا أكثر شباباً، بالطّبع. ربّما لم نتغيّر كثيراً في العمق.

- أتظنّين ذلك؟

- لا أعرف. تفضّلي إذاً!

- بكلّ سرور.

تبعتها أمّي إلى المدخل وانحنت بصعوبة لتنزع سُويْقيّتها. في تلك الحقبة، كانت حاملاً، وكانت تنحني بالطريقة نفسها. لفتت نظرها إلى ذلك المدعوّة «إينغريد».

- دعيها، الطقس بارد في الخارج. سأكنّس الأرض فيما بعد.

وابتسمت من جديد.

- سأحضّر قهوةً لنا.

اتّجهت نحو المطبخ، حيث هنالك موقدان بالغاز على طاولة العمل. أشعلت واحداً، ثمّ وضعت عليه غلّايةً ذات صفّارة. بينما هي تعمل، توجّهت أمّي إلى الصالون، ووجدت صعوبة في تعرّف المكان. لقد صار صالون امرأة عجوز. مهما كانت شخصيّتك، يأتي يوم تنتظم فيه زينة معيّنة: تُحفٌ وأسمطة من الدانتيلّا، وكلاب صغيرة من الخزف، وراعٍ طينيّ أمام طاحونٍ في جبال الألب. وفي الصور على الحائط، تحرس ملائكة بنتاً صغيرة جدائلُها شقراء، تنحني بلا حذرٍ فوق جدول لتلتقط سمكة. واحتلّت أصص إبرة الراعي الحمراء والبيضاء منذ زمن طويل حوافَّ النوافذ.

فكّت أمّي أزرار معطفها، وتركته ينزلق عن كتفيها وجلست أمام الطاولة الواطئة. رأت من النافذة خِرافاً بليدة وصامتة تدير رؤوسها باتجاه حائط مستودع الحصيد. تماماً كما في الماضي، خريفاً وشتاءً، في الصحو أو تحت الثلج. وفي الصّيف يجوبون البِراح ويجدون فيه غذاءً. كانوا يُتركون أحراراً، ولكنّهم يعودون دائماً في المساء، كالماعز في المراعي الجبليّة النرويجيّة.

عادت «إينغريد» حاملةً أكواباً وركوة مزخرفةً بالأزهار.

- ما زال لديكِ خرفان، قالت أمّي.

- لم استطع التوقّف. لطالما كان لدينا خِرافاً هنا. أو بالأحرى، طالما كان لديّ خِراف. ولكنّي أتدبّر أمري. «كارلسن» سائق العجلة مات شابّاً.

ما زالت تسمّي زوجها: «كارلسن سائق العجلة»، كما في الماضي.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle **جلست «إينغريد» على الكنبة، مديرةً ظهرها للنافذة.**

- يأتي أحد الجيران ليساعدني في زمن النِتاج. وفي حال الطوارئ، يوجد هاتف. ولكن يجب أن أتوقّفَ يوماً ما.

وضعتْ كوباً أمام أمّي وانتظرت، فلم تكن على عجلة من أمرها. انحنت وملأت الكوب بقهوةٍ محضّرة على الطريقة الإيطاليّة. كانت رائحتها مسكرة.

- رغِبت في رؤيتكِ. قالت أمّي. قرّرت ذلك منذ بضعة أيّام فقط، وقد بدا لي ذلك ضروريّاً.

- يسعدني ذلك. فنادراً ما يزورني أحد. يزورني ابني فقط، من وقت إلى آخر. هو يسكن في المدينة، على القارّة. فكّرتُ بكِ كثيراً في البداية ثمّ تلاشت تلك الأفكار.

كانت نبرة صوتها ناعمةً ولبقة؛ لم تشأ أن يبدو كلامُها جارحاً.

- أنا أيضاً فكّرتُ بكِ كثيراً. في بعض الأحيان كنت أقول في نفسي ليس لي أحدٌ سواكِ. وأقول إنّنا يجب أن نلتقي من جديد، ولم يحدث ذلك مع أنّني عدتُ إلى دياري مراتٍ عدّة. قالت أمّي مشيرةً باتّجاه القارّة.

ولكنَّ القارّة ليست مرئيّة، وأكملت كلامها قائلة: - هذا البيت هو بداية حياتي الثانية، أو نهاية الأولى، أو الاثنان معاً. هذا البيت وأنتِ. كنتُ سعيدةً هنا، وفي أفضل حال. لم أُرِد الذهاب. ولكنْ مضت سنةٌ، واضطررتُ للعودة إلى النرويج. كنتُ أظنُّ أنّني لا أمتلك خياراً آخر، ولكنّ ذلك ليس صحيحاً.

بكت أمّي، وجبينها على ركبتيها.

- لم تجرِ الأمور مطلقاً كما رغبتُ وكما أمِلت. قالت بصوتٍ حادّ. والآن أنا مريضة.

ما زالت «إينغريد» تبتسم.

- الأمر خطير؟

- أظنّ ذلك. هذا ما يعتقده الأطبّاء، على كلّ حال.

- أنا آسفة. أتريدين أن نتمشّى قليلاً بعد تناول القهوة. هل تمتلكين الجرأة؟

- بالطبع أمتلك الجرأة.

رشفتا القهوة وتبادلتا الابتسام. ومسحت أمّي دموعها. بقاؤها جالسةً في الدفء كان مريحاً؛ قالت في نفسها إنّها ربّما لن تتجرّأ على الخروج، في آخر الأمر.

- أهذا هو، في السيّارة؟ أحبّ أن أرى ما صار عليه الآن.

- لا، هو أخوه.

- ألا تريدين أن يدخل؟

- كلّا، لا أريد. عمره سبعة وثلاثون عاماً، ولكنّي لا أظنّ أنّ بالإمكان وصفه بالراشد، فتلك مبالغة. هو على وشك الطّلاق، ولا أعرف ماذا أفعل به. وصديقي «هانسن» في سيّارة الأجرة أيضاً. يرافقني بصفته صديقاً، ولا يزعجه أن ينتظر.

- ستكلّفك سيّارة الأجرة هذه غالياً، أليس كذلك؟

- اتّفقنا على السّعر. لا بأس.

- هذا جيّد.

نهضت «إينغريد» وتناولت معطفها، وتبعتها أمّي؛ كان جسمها ثقيلاً.

- الكلام أسهل ونحن نمشي. قالت «إينغريد».

- أنت على حقّ من دون شكّ.

وربطت «إينغريد» خماراً حول رأسها وهي تقول: - الطقس بارد في الخارج. يلزمك شيء تضعينه على رأسك.

وتناولت خماراً آخر عن الرفّ، أبيض وعليه أزهار زهريّة، كالخُمُر التي رأتها أمّي على رؤوس النساء العجائز في روسيا. وقالت في نفسها إن هذا ما صارت عليه امرأة عجوز.

فُتِح الباب وظهرتا على المدخل، والخماران معقودان تحت ذقنيهما. صفقت الأكبر سنّاً الباب، ثمّ نظرت باتجاه السيّارة، حيث نحن جالسان. وأغلقت الباب بالمفتاح، لا أظنّ أنّ ذلك بسببنا. انطلقتا على الطريق، والأيدي في الجيوب، مبتعدتين عن سيّارة الأجرة المركونة في منتصف السهل. من الصّعب عليّ أن أتنبّأ بما لديهما من كلام.

عندما ابتعدتا عنّا حوالى العشرين متراً، فتح «هانسن» باب السيّارة من جانبه، و أخذ يتمشّى في الاتجاه المعاكس، فتبعته.

- أتريد أن تنشّط ساقيك؟ سألتُ.

- نعم.

- أنا كذلك.

مشينا لبرهة ثم رفعتُ ياقة قميصي؛ كانت السماء رماديّة ومنخفضة، وكان الهواء رطباً ودبقاً؛ وشعرتُ بضغطٍ خفيف على صدغي. عندما وجدنا أنفسنا بعيدَين كفاية، أخرجت علبة التبغ ولففتُ سيجارة. ثمّ لففت واحدة ثانية و قدّمها لـ«هانسن».

- لن أقول لا.

أشعلتهما ودخّنّاهما، وكانتا لذيذتين جدّاً.

- عمّ تتكلّمان، برأيك؟ سألتُ.

- من السهل معرفة ذلك. لا ريب في أنّهما تتكلّمان عن الحقبة التي عاشت أمّك فيها هنا، عندما وُلِد أخوك. الذي يتلوك. لقد وُلِد هنا.

- أعرف. قلتَ لي ذلك من قبل. في الحقيقة أنا أعرف ذلك منذ زمن طويل. ولكنّ الأمر لم يكن ملْموساً بالنسبة إليّ؛ فلم يخبروني بشيء أبداً.

- لا يفاجئني ذلك. ربما كان يجب أن يقولوا لك.

- نعم، كان يجب عليهم أن يخبروني.

ثمّ أكملتُ قائلاً:

- أتظنّ أنّهما تتحدّثان عنّي كذلك؟

- لا، على الأرجح.

- بالفعل، أفترض ذلك.

لم يكن «هانسن» راغباً في الثرثرة، فتابعنا السّير صامتَين. المشهد الطبيعيّ مسطّحٌ كما هي المناظر الدانمركيّة فقط، وكأنّ أحدهم انكبّ عليها

كاوياً إيّاها بمكواة.

في آخر المطاف، هنالك ضيعةٌ صغيرة. واثنان أو ثلاثة من البيوت سطوحها مغطّاة بالطحالب الجافّة. أحاطت بالضيعة أشجار لا تزال صغيرة، صنوبرات دغليّة وتنّوبات. مررنا قرب مجموعة البيوت، ثمّ عدنا أدراجنا. لم نكن نمشي بسرعة، وكان الوقت يتمطّى. مشى خطوة خطوة، كأرقام عدّاد. عندما عدنا إلى السيّارة، تعجّلنا الصعود إليها. أبقى السائق المحرّك دائراً ليبقى دافئاً. ألقيتُ نظرة على عدّاد الوقود. فإذا بالسهم يشير إلى أنّ الخزّان نصف ممتلئ.

في هذا الحين ظهرتا، متآبطتين، وخماراهما متلاصقان، ومنحنيتين إلى الأمام لمواجهة الهواء الرطب. توقّفتا أمام البيت وهما ما تزالان متآبطتين، أو بالأحرى متماسكتي اليدين؛ لا بدّ أنّ لديهما أموراً أخرى تتحدّثان عنها، إذ دلفتا إلى الداخل. انتظرنا وقد تكوّر كلّ منّا في زاوية. وبعد ربع ساعة، عادت أمّي وحدها، ممسكةً رزمةً صغيرة في يدها.

حين كدنا ننتهي من العشاء في الفندق، ذهبتُ لأحضر زجاجة الكلفدوس وثلاثة أقداح بلاستيكيّة من غرفتي. عندما عدتُ، وجدتُ أنّ أمّي و«هانسن» لا يزالان قاعدَين. وضعتُ الزجاجة أمامهما، وكان كلّ منهما ممسكاً بيده سيجارة مشتعلة. وفي الخارج خيّم الظلام. تبادلا النظرات، ثمّ التفتت أمّي إليّ مبتسمة. لم تبدُ مفعمةً بالحماسة، ولكنّها لم تكن عدائيّة. ملأتُ الأقداح، ورفع «هانسن» قدحه.

- نخب «قوس النصر»... حسب ما فهمت.

وقلّدته أمّي.

- «قوس النصر»، نعم. نخب «بوريس» و«رافيك»، باركهما اللّه.

وانفجرا ضاحكَين. وضحكتُ أيضاً، ولكن بتحفّظ أكثر. ثمّ رفعت قدحي وشربتُ جرعةً. إنّه لذيذ وقويّ، أحسن بكثير من الويسكي. أذكى الكحول ناره في معدتي، وجعل صوت «هانسن» المنخفض كلّ شيء يهتزّ.

- يا إلهي، إنّه ماء الحياة!

- أتريدُ واحداً بعد؟ اقترحتُ.

ولكنّ «هانسن» هزّ رأسه، وأثنت أمّي عليه قائلةً: - هذا كثيرٌ لليوم. أنا ذاهبة لأنام، وسنرى بعضنا غداً.

- كما تكونين أكون، قال «هانسن».

إنّه جزء من بيت شعريّ سمعته من قبل، وأعرف ماذا يعني: إنّ «هانسن» سيصعد لينام هو أيضاً. وهذا ما فعله؛ اتّجها معاً نحو الدرج، ووجدتُ نفسي وحيداً. سكبتُ كأساً آخر، تمزّزته وأنا أنظر من النافذة. كانت الأرصفة مضاءة، ويُرى نورٌ على بعض السفن، وعلى طريق المشاة القريب من الفندق. نهضتُ وتناولتُ سترتي عن ظهر الكرسي، ودسستُ الزجاجة في جيبي الداخليّ. ثمّ نزلتُ إلى المرفأ ممسكاً قدحي بيدي، وهناك كانت سفن الصّيد مربوطةً إلى الضفة جنباً إلى جنب. مشيتُ حتّى طرف الرصيف. وبقيت قليلاً مستمعاً إلى الصوت الناعم لتربيت الأمواج على الإسمنت. سكبتُ لنفسي من جديد كأساً شبه ممتلئة، وعدتُ أدراجي وأنا أشرب رائق المزاج.

25

لم يستيقظ «هانسن» بعد، ونحن الاثنان وحدنا على الشاطئ مقابل القارّة. تغيّر الطقس، واشتد البرد وطلع النهار، وهبطت الحرارة إلى ما تحت الصّفر. الهواء صافٍ تماماً، كما يحدث أحياناً في الخريف، وللسّماء مفعول عدسةٍ مكبّرة؛ بدت المدينة واضحة، والخطّ الذي ترسمه سطوحها الصدئيّة اللون يمتدّ شمالاً وجنوباً، وتنتصب قبّة جرس الكنيسة في المنتصف مختالةً. في نهار بلا ضباب كهذا، يمتدّ النظر بعيداً فوق البحر؛ ولو صعد أحدهم التّلّةَ المشرفة على المدينة، لأمكنه الرؤية حتّى الشاطئ الذي نجلس عليه في هذه اللحظة.

لمحتُ الخيال الجسيم لمخزن الحبوب القديم؛ لونه رماديّ إسمنتيّ، وعلامته الرّمزيّة الحمراء على خلفية بيضاء أنافت على المرفأ. ولكنّ الحروف ليست واضحة من المكان الذي نحن فيه. المخزن فارغ الآن، ولم يعد يحتوي إلّا أصداء جوفاء، وأمتاراً مكعّبةً من الهواء الأسود كالفحم. كلّ شيء يتغيّر، والمدينة تتطوّر. صار هنالك المزيد من طرق المشاة، ومن المحالّ التجاريّة، ومن المقاهي. وهنالك عدد أكبر من المعدّيات كذلك، والمزيد من النرويجيين والسويديّين الثملين على متنها.

استدرتُ نحو أمّي. كانت السماء صافية والهواء يلسع وجهينا. وكانت أمي تلبس قفّازين من الصّوف، وتشدّ ياقة معطفها بيدها اليسرى. وأمسكت سيجارتها بين الإبهام والسبّابة لحمايتها من الرّيح التي تلفح شعرها صانعةً هالةً من الخصلات. شعرها لا يزال أسود، ولكنْ يمكن تمييز الخيوط الرّماديّة بوضوح أكثر من المساء.

كنتُ أرتدي معطفي وأمسك سيجارتي بيدي العارية. لا شكّ في أنّ أذنيَّ بيضاوان تماماً، وأصابعي تميل إلى الزرقة. ظننتُ أنّ هذه الأخيرة ستنفجر لشدّة برودتها. في النّهاية، لم أعد أستطيع التحمّل، ورميت سيجارتي

على الرمل الصلب. ثمّ دسستُ يديَّ في جيبيْ سترتي، وشددتُ قبضتَيّ وأرخيتهما مرّات عدّة. شعرت بيدي اليمنى أقلّ إيلاماً. ولا ريب في أنّ ذلك مردّه إلى أنّها متخدّرة. وشعرت بخدّي المتورّم يحرقني في الهواء البارد.

- أليس معك شيء دافئ تضعه في يديك؟

- كلاّ.

- أنت طائش حقّاً. هذا ما كنتَ عليه دائماً. وضربتني بيدها على ظهري فأفرحني ذلك.

- أعرف. منذ صغري.

- للأسف، ليس عندي شيء أعيرك إيّاه. لم أحضر سوى زوجٍ واحدٍ من القفّازات.

- لا بأس. سأدفئها في جيوبي.

- ولكنك لن تتمكّن من التّدخين.

- ولكن يا أمّاه، لست مضطرّاً أن أدخّن طيلة الوقت!

- بالطبع لا. زِد على ذلك أنّه من الأفضل لنا أن نتوقّف. أنا على كلّ حال...

وسكتت. كانت تحدّق أمامها مباشرةً.

- أوه، ما نفع ذلك الآن؟

أردتُ أن أقول لها شيئاً لطيفاً، ولكنّي لم أجد الكلمات المناسبة. لم أعرف حتّى إن كان يوجد مثل هذه الكلمات؛ بالمناسبة، لا أظنّ ذلك؛ والذين يدّعون العكس حمقى. وأفلتُّ الجملة الأولى التي طرأت على ذهني.

- هل أنتِ خائفة؟

- ممّ أخاف؟

التفتَتْ إليّ بغتةً. ونظرت في عينيّ للمرّة الأولى منذ نزولنا إلى الشاطئ. شعرت بخدّي يحمرّان. انحنيتُ إلى الأمام وحدّقت إلى الأرض.

- أتظنّ أنّني أخاف من الموت؟

- لا أعرف. هل أنتِ خائفة؟

- كلّا. لا أخاف من الموت. ولكنّي لا أريد أن أموت الآن.

استدارت نحو البحر من جديد. سحبت أنفاساً من سيجارتها بشراهة، ونفثت الدخان بغضب، وهي تحدّق إلى المدينة المرتسمة جانبيّاً فيما وراء الأمواج.

ذلك صحيح. أعرف أنّها لا تخاف من شيء. وأعرف أيضاً أنّ هنالك أشياء تريد رؤيتها قبل أن تموت. هذا هو حال الناس كلّهم من دون شكّ. ولكنْ هي، ما أرادت رؤيته، هو انهيار الاتّحاد السوفياتي، لا سيّما وأنّ الجدار قد انهار. أرادت أن تعيش هذا الأمر، أن تعيش ما سيحدث بعد ذلك، أن ترى «غورباتشيف» ينتصر، أو ينسحب قائلاً إنّ الأمور قد بلغت شأواً بعيداً. وهذا ما يُحتمل أن يحدث بالفعل. هي قسوةٌ بالغة أن تفوّت كلّ هذه الأحداث. أنا أيضاً، أردتُ أن أرى ذلك، ومن المؤكّد أنّ الفرصة ستسنح لي. ولكن أنا أخاف من أن أموت. ليس من كوني ميتاً: فذلك يفوق الإدراك، ذلك هو العدم. ذلك شيء غير مفهوم. وهو لا يؤخّر و لا يقدّم. بالمقابل، أن أموت، أفهم ما هو: تلك الثانية المحدّدة التي تقدم فيها هذه اللحظة التي خفت منها دائماً، حين تفهم أنّه لم يعد بإمكانك أن تصبح من أردتَ أن تكون، وحين تدرك أنّ من سيتذكّرونه هو من كنت. سيكون ذلك مثل اختناق بطيء؛ ليس أبداً كباب ينفتح ليدع فيضاً من النور ينتشر، باب تبدو فيه امرأة أو رجل عرفتموه وقدّرتموه، وربّما أحببتموه، ويشير إليكم أن تنضمّوا إليه في راحةٍ عذبةٍ في أبديّة الأبديّات.

- أتريدين أن نصعد؟ سألتُ.

- أريد ان أبقى قليلاً بعد. اذهبْ. سألاقيك فيما بعد.

- أنتِ متأكّدة؟

- اذهبْ وأرِحنا! قالت.

ولم يكن بوسعي إلّا أنْ أطيع.

- حسناً.

صعدتُ باتّجاه المرفأ، نحو الفندق، والريح تلفح ظهري. وبعد أن مشيتُ قليلاً توقّفت. وأنا أستدير، رأيت أنّها تنظر باتجاه المدينة ما وراء البحر. تركتُ

الممرّ الجاري داخل الرمل، والتففت إلى الشّمال، عبر الكثيّبات التي تصعُبُ تسميتها هكذا. ولكن بالنسبة إليّ، مذ كنتُ صغيراً، هي كثيّبات. في الحقيقة، هي بالأحرى أكداسٌ ضخمة مستطيلة من الرمل، تثبّتها شبكات معقّدة من العُلّاق. يمكن الاختباء خلف أكبرها؛ فالريح لا تتسرّب إلى هناك كما تتسرّب إلى البحر، والبرد أقلّ ضراوة. رفعتُ يديّ إلى أذنيّ وفركتهما بنعومة.

جلستُ مسنداً ظهري إلى أحد أكداس الرمل. أدخلتُ عنقي في سترتي، وشددتُ على كمّيّ لأغطّي يديّ، ثمّ شبكتُ ذراعيّ، وانطويت على نفسي.

بعد قليل، تركت نفسي أميل منقلباً إلى الأمام. مشيت على أربع حتّى طرف كدس الرمل، ونظرتُ باتجاه الشاطئ. كانت أمّي لا تزال واقفة وظهرها لي. صارت الريح تعصف بقوّة أكبر وتطيّر الزبد من موجةٍ إلى أخرى. ذلك جميل. تراجعتُ وعدت إلى وضعيّتي الأولى، ونظرت إلى الرمل، ليس هنالك ما يستحقّ النظر. عمري سبعة وثلاثون عاماً. وقد انهار الجدار، وأنا هنا.

تركتُ ربع ساعةٍ تمرّ، وكرّرت حركتي. ملتُ من جديد إلى الأمام، وزحفتُ حتّى طرف كدس الرمل، ونظرتُ إلى الشاطئ. أمّي الآن راكعة. بدا لي ذلك غريباً.

دقائق عدة، بقيتُ مسطّحاً على بطني، قائلاً في نفسي إنّها ستنهض من دون شكّ. ولكنّها لم تفعل. عدتُ إلى مخبئي زاحفاً، وأسندت ظهري من جديد إلى كدس الرمل. أغلقت عينيّ وحاولتُ أن أركّز. كنتُ أحاول أن أتذكّر أمراً مهمّاً جدّاً، أمراً محدّداً، ولكنّي برغم ما بالغتُ في إطباق جفنيّ وبذلتُ من مجهود، لم أتمكّن من ذلك. اقتلعتُ بضع غُرَيْسات من العُلّاق وحشرتها في فمي. كانت قاسيةً؛ وأنا ألوكها جرحتُ لساني. اقتلعتُ غُرَيْساتٍ أخرى، قبضةً بكاملها، وحشرتها في فمي كذلك، ومضغتها بعناية منتظراً أن تنهض أمّي لتنضمّ إليّ.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة پريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيپّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

♦ ♦ ♦

- «الأصولي» المتردِّد – محسن حامد
- ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) – ييون لي
- اعترافات غايشا – آرثر غولدن
- امرأة من ماريوپول – ناتاشا فودين
- بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني – نيلوفر بازير
- بومبي – روبرت هاريس
- بيل كانتو – الرهينة – آن باتشيتا
- حكاية الشتاء –پول أوستر
- حياة –دافيد فاغنر
- الخجل والكرامة – داغ سولستاد
- دماء الأزهار – أنيتا أمير سڤاني
- عند تلاشي الضّوء – أويغن روغه
- فتاة من بلغراد – لويس دو بيرنيير
- اللعنة على نهر الوقت – بير بيترسون
- ما تخبّئه لنا النجوم – جون غرين
- متتالية فرنسية – إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين – كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما – جيروم فيراري
- الناس والآخرون – قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

♦ ♦ ♦

- **حبٌّ محرَّم** – يوكيو ميشيما (الذي تخلّى عن جائزة نوبل مرّتين)
- **العاصفة** – جان ماري غوستاف لو كليزيو
- **الموت غرقاً** – كنزابورو أوي

♦ روايات وقصص عالمية ♦

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سردار أوزكان

- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بهان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

د. نعمة اللّه إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز – ألف يوم ويوم (قصة)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) – د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- الحريم اللُّغوي
- صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر

♦ ♦ ♦

- أرملة مهندس – صالح ابن عايض
- إمرأة... وظلّان – خلود عبدالله الخميس
- إعصار بالتيمور – حسين عبد الرسول سبيتي
- ابن الحزب – فيصل فرحات
- بائع الفستق – سمير عطا الله
- حقيبة حذر – عاطف البلوي
- رقص تحت أشجار الكستناء – عباس جعفر الحسيني
- الرؤيَوان (قصص قصيرة) – عمرو عبد الكريم

- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** – وائل ردّاد
- **سوريّو جسر الكولا** – ياسين رفاعية
- **صورة على هاتفٍ جوّال** – إلهام منصور
- **العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة)** – اسماعيل الأمين
- **عشّاق أمي (قصص قصيرة)** – هاجر عبد السلام
- **الغشوة** – راضي شحادة
- **في وسط العاصمة حانة مسحورة** – ساندرا تربونيّة
- **في حديقة الملك** – ميّادة العسكري
- **قصة مشربية – قصة يوطوبيا** – حسن فتحي
- **محاولات اغتيال علي (قصص قصيرة)** – محمد بركات
- **محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة)** – زينة حموي
- **مولود وثلاثة آباء** – نائل ماجد مجذوب
- **نهاية جيل** – محمد سعيد طالب
- **هل يفرّقنا الدين؟** – حسن السيد أسعد فضل الله
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** – قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

♦ شعر ♦

سليم حيدر

- **آفاق**
- **أشواق**
- **إشراق**
- **ألوان**
- **ألحان**
- **أشجان**
- **لبنان**
- **يا نافخ الثورة البيضاء**
- **السنة الزمان**
- **مهرجان العدالة**

طلال حيدر

- **آن الأوان (شعر)**
- **سرّ الزمان (شعر)**

مهدي منصور

- **أخاف الله والحب والوطن**
- **الأرض حذاء مُستَعمَل**
- **الظـلُّ فجر داكن**
- **فهرس الانتظار**

هادي مراد

- **حرب الجسد**
- **كما يقع التفاح** – هادي مراد

♦ ♦ ♦

- **أثواب الحزن** – هدى السراري
- **أنظر إليك** – مرام المصري
- **خريف من ذهب** – جوزيف طوبيّا
- **خطوات أنثى** – ردينة مصطفى الفيلالي
- **خفيفًا كزيتٍ يُضيء** – بلال المصري
- **ما يفعله الغريب في الليل** – محمد دياب
- **مثْل السَّكْت** – سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** – جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** – هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** – إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** – ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** – غسّان علم الدين

♦ دراسات ♦

د. أحمد حاطوم

- **في مدار اللغة واللسان**
- **قواعد فاتَتِ النُّحاة**
- **كتاب الإعراب**
- **المساجلات**
- **نقوش**

محمد توفيق أبو علي

- **ضوع الياسمين (شعر – حكايات – خواطر)**
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية – (دراسات)**

عصام محفوظ

- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)**
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)**

♦ ♦ ♦

- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** – لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** – **د.** بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** – د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** – ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** – تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران** – د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** – د. عادل كامل الآلوسي
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** – نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** – د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** – هادي محيي الخفاجي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** – عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** – د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** – نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** – إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة)** – هارالد هارمان
- **فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر)** – د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية)** – نافتج سارنا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** – منتهى العزة
- **باب للخروج (رواية)** – طارق فرّاج
- **حبيبتي الحقيقة (شعر)** – أحمد طقش
- **الخامدون (قصص قصيرة)** – ربى عنبتاوي
- **نسرين ستموت الليلة (رواية)** – خديجة نمري

د. شكري نصرالله

- **الثالث (رواية)**
- **قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)**
- **كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)**

Notes

[1 ←]
الذئبي: كلب صيد قصير القوائم مستقيمها.

[2 ←]
حيوان من القوارض شبيه بالجرذ.

[3 ←]
حذاء نصفي بشريط أو بأزرار.

[4 ←]
نوع من السمك النهري.

[5 ←]
الخليج الصغير.